رواية

عبد الإله بن عرفه

اِبن الخطيب في روضةِ طٰه

مكتبة الرمحي أحمد ٨٩

دار الآداب

عبد الإله بن عرفة

ابن الخطيب
في روضة طه

رواية

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

@ktabpdf تيليجرام

دار الآداب - بيروت

ابن الخطيب في روضة طه

عبد الإله بن عرفة/ روائي

الطبعة الأولى عام 2012
ISBN 978-9953-89-231-3

رسم وجه الغلاف: شجرة طوبى

إهداء

إلى قُرَّةِ عيني، سوسن، وطٰه، وكامل

إلى شهيدِ المحبّة، وصَرِيعِ الرُّوح، إلى لسان الدين ابن الخطيب،

ولقدْ أَنَخْتُ رَكَائِبِي بِرِيَاضِهِ وَسَرَحْتُ بَيْنَ جَدَاوِلٍ وَغَدَائِرِ
وَقَرَعْتُ بَابَ رِضَاهُ فِي سِنَةِ الكَرَى فَأَجَابَنِي مُتَنَادِيًا بِبشَائِرِ
يَا سِرَّ طٰهَ قَدْ هُدِيتَ سوَانِحًا مِنْ خَالِصَاتِ الحُورِ ذَاتِ عَمَائِرِ
طَأْهَا وَعَرِّسْ فِي مَقَامَاتِ العُلَى وَاضْرِبْ عَلَى أَطْنَابِهَا بِسَتَائِرِ
واشرَبْ صَبُوحًا مِنْ لَمَى تِرْيَاقِهَا كَأْسًا تَسِيلُ عَلَى مَسِيلِ حَرَائِرِ
واسْمَعْ مِنَ الرَّحْمٰنِ سُورَتَه التي تُتْلَى عَلَى أَرْضِ الكَثِيبِ الطَّاهِرِ
واذْكُرْ لِسَانَ الدِّينِ في صَوَلاتِهِ والمُبْتَلَى مِنْ قَوْمِهِ بِجَرَائِرِ
مَاتَ البَيَانُ بِقَتْلِ أَفْضَلِ كَاتِبِ جُرْمٌ عَظِيمٌ، من أَيَادِي الجَائِرِ
مَنْ لِلبلاغَةِ مُظْهِرٌ لِنِكَاتِهَا في العَالمينَ، ومُخْرِجٌ لِذَخَائِرِ؟

مكتبة الرمحي أحمد

مَنْ لِلْبَرَاعَةِ، أَضْرَمُوا فِي وَجْهِهَا نِيرَانَ حِقْدٍ سُعِّرَتْ بِكَبَائِرِ؟
وَإِذَا الكَآبَةُ سَوَّدَتْ آمَاقَنا فالصَّبْرُ أَجْلَى لَيْلَهَا بِبَصَائِرِ
يَا كَوْكَبَ الإِسْعَادِ جُدْ بِزِيَارَةٍ تُجْلَى على فَلَكٍ رَفِيعٍ دَائِرِ
مَا زَالَ قَبْرُكَ رَوْضَةً مَنْظورةً **طُوبَى** بَدَتْ في جَوِّهَا لِلنَّاظِرِ
جادَتْ تُرابَكَ نَسْمَةٌ هَطَّالَةٌ تَسْقِي رُفَاتَكَ دِيمةً بِجَوَاهِرِ

عبد الإله بن عرفة

بيان أدبي حول هويّة النور

هل للنور هويّة؟ وهل الكتابة بالنور ممّا تستسيغه جميع الهياكل، سواء كانت نورانيّة مثل الأنجم والشموس ونماذج الكمال الإنساني، أو ظلمانيّة مثل الغَواسِق ونماذج النقص الإنساني؟

بدءًا، نقول إنّ للنور هويّة، لكنّ تفصيل أَشِعَّتها يحتاج إلى بيان. وحتى لا نَتِيهَ في لُجَّةِ هذه البِحار الزَّخَّارة، فإنّنا سنلتزم بالحديث عن مشروعنا الروائي. لقد استوى الأمر حتى الآن على ستّ روايات، هي: **جبل قاف**، **بحر نون**، **بلاد صاد**، **الحواميم**، **طواسين الغزالي**، وابن **الخطيب في روضة طٰه**. فالرواية الأولى **جبل قاف** رواية القلب الكُلِّي كَمِنَصَّة للتجلّيات، والرواية الثانية **بلاد نون** حول النفس الكلّيّة، والرواية الثالثة **بلاد صاد**، حول الصورة الكلِّيّة. وهذه هي السلسلة الأولى للأحرف النورانيّة المفردة. وتلتها السلسلة الثانية مع رواية **الحواميم**، ورواية **طواسين الغَزَالي**، ورواية ابن **الخطيب في روضة طٰه**، للحديث عن انتقال هذا النور.

هذه هي مفردات هذا المشروع الروائي العرفاني الذي يَتَغَيَّا الكتابةَ بالنور، من حيث مصدَرُه. وشخصيّات هذه الروايات مثالات علويّة ونماذج كماليّة، ليس المقصود منها أعيانها التاريخيّة. فهويّة النور هي سريان مادّة الحياة بلا انقطاع في الأجسام والهياكل التي تقوم بها ومدد الحياة مَرَدُّهُ إلى سِرِّ الوجود، الذي هو نَفْحَةٌ من صاحب الجود الذي نَوَّرَ السماوات والأرض بنوره. وقد قَرَّبَ لنا فهم هويّة ذلك النور بمثال الزيت والزجاجة والمصباح والمشكاة، التي تستمدّ مادّة النور المتّصلة بتلك الأجسام من الشجرة المباركة، المتعالية عن الجهات، المضيئة بالقوّة من غير اتّصال بالنار والنَّيِّرات. ومنبت هذه الشجرة في جنّة عدن. فإذا تحقّق الاستعداد لأهل الكثيب، سمعوا الحقّ تعالى يتلو عليهم سورة **طٰه** في مقام رؤيتهم له في أعلى هذه الجنّة.

لماذا الكتابة عن ابن الخطيب؟

لقد تحدّثت في البيان الأدبي الذي صدَّرت به رواية **طواسين الغزالي**، عن قضيّة الحرّيّة والكونيّة في الأدب. وها أنا أعود إلى هذه القضيّة مجدّدًا مع رواية ابن الخطيب. فما معنى أن تكتب عن شخصيّات مثَّلَت الكونيّة بامتياز؟

لكن دعونا نتساءل أوّلاً: من الذي يحدّد الكونيّة اليوم؟ إنّها قَطعًا المراكز الأدبيّة التي تمارس نوعًا من الحماية الأدبيّة على آداب الشعوب التي تكتب في الهوامش الأدبيّة. فالكونيّة إذن من إنتاج المركز، لأنّ الأديب الغربي لا يتساءل مثل هذه الأسئلة التي نطرحها نحن هنا، لأنّه ما دام يكتب بلغة غربيّة، فهو يحظى بدءًا

بالثقة المرتبطة باللغة التي يكتب بها، حتى ولو كان ما يكتبه من أتفه ما يُكتَب. لكنّ الأديب غير الغربي، حينما يختار أن يكتب بلغته، فإنّه يناضل ليؤسّس لكونيّة مختلفة. وحينما ينجح البعض من كتّاب الهوامش في ذلك لا يعدو أن يكون الأمر مكرًا آخر يمارسه المركز على آداب تلك الهوامش، حتى يضمن بقاء تلك الهيمنة، ويعمد في تكريس هذا الواقع من خلال نوعيّة اختياراته في ترجمة بعض الأعمال الآتية من الهامش اللغوي والثقافي إلى لغات المركز. قد يخطئ الكثيرون في تقدير قيمة الترجمة، وهي بالنسبة لنا تتجاوز مسألة منح جنسيّة أدبيّة جديدة أو تغيير جنسيّة، بل هي أساسًا اكتساب للأدبيّة العالميّة أو الكونيّة. وبعبارة أخرى إنّ الترجمة هي الهيئة العليا للتكريس الأدبي. كان بورخيس يقول عن نفسه بأنّه إنتاج فرنسي. ولهذا السبب تحدّثت في بيان سابق عن الترجمة باعتبارها جزءًا من الأمن الثقافي.

فالكتابة عن ابن العربي أو ابن سبعين أو الششتري أو الغزالي أو ابن الخطيب أو ابن خلدون يجب أن تحظى ابتداء بالكونيّة، بالنظر إلى قامة هؤلاء في التاريخ الإنساني. لكنّ مجرّد الكتابة عن مثل هذه القامات يخفي الصراع القائم من أجل تكريس معايير أدبيّة كونيّة جديدة مناقضة لمعايير الكونيّة الغربيّة. ومن نماذج الحماية الأدبيّة التي تمارسها المركزيّة الأدبيّة الغربيّة على الأعمال التي تستنسخها أو تقلّد نماذجها، تصنيفها في دائرة ما تسمّيه أدب الكومنويلث، أو الأدب الفرنكفوني.

لقد سبق أن أفضت في الحديث حول الكونيّة حال حديثي عن

الكتابة باللغة المقدّسة، لكنّ أدباء الوقت ممّن رضوا بالتقليد، كَفُّوا عن إبداع كونيّة جديدة لجهلهم بتاريخ الأدب، ولعقدة النقص التي يشعرون بها أمام الوافد الأدبي المركزي. إنّ المتتبّع للحركات الأدبيّة يعلم أنّ التاريخ الأدبي هو مجموعة من الثورات الأدبيّة التي بموجبها تعمل كلّ حركة أدبيّة جديدة على الطعن في الأذواق والمعايير الأدبيّة السائدة في عصرها، وتحاول أن تستبدل بها نماذج جديدة للأدبيّة. لكنّنا نرى كثيرًا من أدبائنا رضوا بمنزلة المقلِّدَة التي تجعل منهم تابعين للمركز، بدل الطموح إلى إبداع أدب عالمي حقيقي من داخل اللغة التي يكتبون بها، في حين ارتضى آخرون رأسًا أن يكتبوا بلغات المركز قنوطًا ويأسًا من إمكانيّة ترجمة أعمالهم إلى تلك اللغات الغربيّة في حال ما كتبوا بلغاتهم الوطنيّة. وإنّنا لا نقول هذا بدعوى انتماء ضيّق للأدب العربي ولغته، بل نقوله من باب الحركيّة التي تحكم تاريخ الأدب العالمي عمومًا. لقد ناضل كتّاب أميركا اللاتينيّة وأدباء أوروبا الشرقيّة والشرق الأقصى من أجل انتزاع الاعتراف بآدابهم، دون الخضوع لأذواق ومعايير المراكز الغربيّة حول الأدب، ونجحوا. وأملنا كبير أن تكون الرواية العرفانيّة التي نحاول التأسيس لها هي من يحمل لواء هذه الثورة على السائد من هذه الكتابات الوافدة أو المقلِّدَة، الهزيلة في مبناها ومعناها، من أجل إبداع أدب كوني جديد في حاضرنا الأدبي.

لقد تحدّثت في بيان سابق عن مفهوم الحاضر وشهادة الحضور التي ينبغي على الأديب أن ينهض بها. ولعلّي اليوم أعود فأقول إنّ الحداثة قد قلبت أبعاد الزمان بحيث جعلت من المستقبلِ الأفقَ

الذي تتحقّق فيه السعادة ونهاية الآلام. وقد أنتجت الحداثة، لأجل ذلك، خطابًا جديدًا مناقضًا للمَاضَوِيّة، وممجِّدًا للمكتَسَبات العلميّة والتقنيّة، وراسمًا لشروط تحقيق تقدّم لا نهائي. كما نصَّبت الحداثةُ العقلانيّةَ على العالم، والتي بمقتضاها سيتحقّق السلم والمساواة والعدالة. إلّا أنّ مآسي القرن العشرين وحروبه، خيَّبَتْ آمالَ أنصارِ هذا التفاؤل، وأفقدت العقلانيّة قيمتَها الإيجابيّة، بل وحوربت باعتبارها كرَّست لظهور الاستعمار والسيطرة والانحراف والاستلاب.

وتبعًا لذلك، فإنّ العلاقة بالزمان، وخاصّة بالمستقبل، قد تأثّرت هي الأخرى بهذا النقد والرفض المزدوج لكلّ من الماضي والمستقبل. وبقي الحاضر هو البعد الزمني الذي استطاع أن يَسْلَمَ من هذا النقد، وأصبح المرجع الأساس لبناء المواطنة الديموقراطيّة. لكنّ الانتقاد الذي يمكن توجيهه إلى هذه الرؤية يكمن في كونها تعمل على تشييء العقل، الذي لم يعد يؤمن بأيّ نوع من أنواع الغايات، وإنّما هو عقل أَدَاتي، يَقْصُرُ اهتمامَه على الوسائل. ومن بين المحاولات الفلسفيّة الجريئة حاليًّا، لتفسير الحداثة، ما كتبه جيل ليبوفتسكي الذي أسَّس نموذجًا عن الفرد المعاصر. وقد استطاع أن يرصد التحوّل من الحداثة (Modernité) إلى ما بعد الحداثة (Post-modernité) ثم إلى الحداثة العظمى (Hyper-modernité) من خلال ظهور أشكال جديدة من قيم التضامن الإنساني، والتطوّع، واستنكار السلوكات غير الأخلاقيّة، وعودة قيمة الحبّ، كانت تبدو إلى عهد قريب قيمًا تقليديّة غير حداثيّة. وقد استطاعت هذه القيم تعميق إنسانيّة الفرد المعاصر،

وتحويل مسار الحداثة الزمني بعدما طعنت في إمكانيّة العودة إلى الماضي الذهبي، ويئست من إمكانيّة ظهور مستقبل مثالي. وبدا وكأنّ الفرد المعاصر لا يؤمن إلّا بالحاضر الذي يعيش فيه.

لكنّ الفرق بين التصوّر الذي حاولنا تأسيسه هو أنّ الحاضر مرتبط بمفهوم الحضور، أي بقيمة الشهادة عليه، وهو ما يمكن أن نسمّيه بميتافيزيقا الحضور أو الشهود. وتبعًا لذلك، فإنّه حاضر يستوعب الماضي والمستقبل معًا لأنّه آنٌ دَائِمٌ. وهذه الديمومة تتعامل مع هذه الأبعاد على أنّها زوايا نظر أو مِنَصَّات تَجَلٍّ. وكلّما اتَّسَعَت الرؤية ضاقت تلك الأبعاد الزمنيّة عن استيفاء حقيقة الوجود. وهنا نقطة الخلاف المركزيّة مع فهم الحداثة الجديد للزمن. إنّنا نعتقد أنّ انتقاد الحداثة للماضي والتبشير بالمستقبل، ثم العودة إلى الحاضر، لا بدّ أنّه سينتهي بها إلى إنتاج ماض جديد منظور، في حركة عكسيّة إلى الوراء، وهو ما بدأت بعض ملامحه تظهر في المجتمعات الغربيّة، بظهور سلوكات بدائيّة غريبة. لكنّنا لن نستبق مسيرة الفكر الغربي حول هذه المرحلة المقبلة، ونكتفي بالتأكيد على أنّ مفهوم الحضور الذي ندعو إليه مفهوم زمني لا يأسره الزمن، فهو لا يلغي أيّ بعد من الأبعاد الزمنيّة الأخرى، لكنّه يُبقي السيادة في الكون للمُكَوِّن على الأكوان. ولا شكّ أنّ الزمن مهما عَلَتْ رُتبَتُهُ الوجوديّة يبقى كَوْنًا من الأكوان. والمُعَوَّل عليه هو أنّ الإنسانَ حُرٌّ عن كلّ ما سِوى الوُجود الحَقّ. ومن هذه الحَيْثِيَّة نأتي إلى الحرّيّة في الأدب للحديث عن واحد ممّن دفعوا ضريبة تلك الحرّيّة غاليًا.

فما جدوى الكتابة عن ابن الخطيب (٧١٣ ـ ٧٧٦ هـ./ ١٣١٣ ـ ١٣٧٤ م.) كواحد من أعلام الماضي المشرق، المستمرّ والحاضر معنا؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال مرتبط بالجواب عن السؤال السابق حول هويّة النور. فعنوان هذه الرواية **ابن الخطيب في جنّة طٰه** له علاقة بكتاب ابن **الخطيب روضة التعريف بالحبّ الشريف**، الذي خصّصه للحديث عن هذه الشجرة النابتة في جنّة عدن، شجرة المحبّة والمعرفة. وفي اعتقادي أنّ الباحثين عادةً ما يتكلّمون عن كتاب **شفاء السائل لتهذيب المسائل** لابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ./ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م.) كمصدر أوّل من مصادر تاريخ الفكر في القرن الثامن الهجري أو الرابع عشر الميلادي، لكنّ كِتَاب ابن الخطيب **روضة التعريف بالحبّ الشريف** أَوْعَبُ من سابقه، وأَجْمَعُ مادّة، بحيث يَضُمُّ مجمل المعارف الفلسفيّة والصوفيّة، وغيرها في موضوع المحبّة، فيعطينا فكرة دقيقة ومتكاملة عن الحياة الفكريّة والدينيّة في الأندلس المسلمة خلال هذا القرن. وهو أحد المصادر الأساسيّة التي اعتمد عليها ابن خلدون في كتابه المذكور. وبناء عليه، فإنّ حلول الذكرى السبعمائة للرجلين معًا بالتاريخين الهجري والميلادي تجعل من الحديث عنهما أمرًا متلازمًا، كما كانا في صداقتهما

واستكمالاً للجواب، فإنّ المرء إذا سُئل عن شخصيّة تجسِّدُ فردوس الأندلس المفقود، لم يجد بُدًّا من أن يعتبر ابن الخطيب أوفر حظًّا من غيره لتجسيد تلك الشخصيّة الأندلسيّة النموذجيّة

القَلِقَة، لما له من خصائصَ لم تجتمع لأحد غيره، فهو أمير البيان، ولسان العربيّة الناطق بلا منازع. وهو، إلى هذا، وزيرٌ نافذُ الكلمة، وطبيبٌ، ومؤرّخٌ، وشاهدُ عِيان، وسياسيٌّ محنَّك، وفيلسوفٌ بصير، وصوفيٌّ عاشق، عدا ما كان يمتاز به من صفات نفسيّة وخُلُقِيّة أهَّلَتْهُ لأن يَشْغَلَ الناس قديمًا وحديثًا، حتى تمازَجَتْ حياتُه المأساويّة مع مَصير وحياة الأندلس، مثلما أوضح ذلك المقّري بأبلغ بيان في **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** الذي هو شهادة تأبين متأخّرة للأندلس وابن الخطيب في نهايتهما المفجعة. وبسبب تلك المواهب أجمعِها، فإنّه نجح في تأليب الحاسدين الذين لم يحتملوا نجاحاته. فسعى هؤلاء إلى الكيد له حتى جَرُّوهُ إلى النفي والغربة، ثم الأَسْر والتعذيب والاغتيال والحرق. فكأنّ هؤلاء الأوغاد لم يحتملوا رؤية إخفاقهم أمام عبقريّته الفريدة. وقد عبَّر ابن الخطيب بأوضح بيان عن مأساة الأندلس في قصيدته السينيّة الرائعة، لمّا قال:

جَادَكَ الغَيْثُ إذا الغَيْثُ هَمَى يا زمانَ الوَصْلِ بالأندَلُسِ

لم يَكُنْ وَصْلُكَ إلّا حُلُمَا في الكَرَى أو خِلْسَةَ المُختَلِسِ

فلكأنّه كان يتوقّع هذا الذي حدث من ضياع الفردوس المفقود، حيث أدرك أنّ الأندلس ليست سوى حُلُمِ مُخْتَلَسٍ لن يلبثَ حتى تبدِّدَهُ شقاوةُ الإنسان.

ثم هناك سبب شخصي وراء اهتمامي بابن الخطيب، لأنّي أعتبره أحد شيوخي من خلف حجاب القرون، لكوني تعلَّمتُ أوّلَ

ما دَرَجْتُ، مبادئَ القراءة والكتابة وحِفْظ القرآن[(١)]، في كُتَّابٍ بمدينة سلا في المغرب كان جزءًا مِنْ بَيْتٍ يَسكُنُ فيه ابن الخطيب، وفيه تُوُفِّيَتْ زوجتُه الصالحة، فدفنَها في البستان المتَّصِل بداره.

وقد كان لمزيّة التعلّم في هذا الكُتَّاب بين الجدران التي عاش فيها ابن الخطيب، وقرب القبر الذي دَفَنَ فيه زوجتَه، أثرُه البالغ في نفسيّتي، وصحِبني طولَ حياتي، حتى كَبِر معي حُبُّ الأندلس ورجالاته وآدابه. ورغم أنّ ابن الخطيب وجد سعادته في سلا، مدينة الولاية والعلم والصلاح، إلّا أنّه لم يَنْعَمْ بهذه الخلوة السلاويّة طويلاً، إذ جرَّته السياسةُ مرّة أخرى إلى أَتّونها حتى لقي حتفَه بكيدِ تلميذِه الخائِن، ابن زمرك الذي قابَلَ إحسانَ أستاذه باللؤم والحقد والخِسَّة. مكتبة الرمحي أحمد ٨٩

فكان من واجب البرور أن أكتبَ عن هذا الأديب الكبير، الذي يمثّل المصير المأساوي الذي حلَّ بالأندلس، والذي جسَّده بأسمى صورة لا نجدها إلّا عند الأبطال الأسطوريّين.

وليس أَوْفَقَ في الإتيان بهذا البُرور، من فضيلة الكتابة عن ابن الخطيب في الذكرى السبعمائة على ولادته (٧١٣ ـ ٤٣٣ هـ./ ١٣١٣ ـ ٢٠١٣ م.). فكان لا بدّ من إحياء هذه الذكرى مجدَّدًا في وِجدان كلّ عاشق للفردوس المفقود. وعطفًا على ما ذكرت، فقد فَرَطَ من تَأَسُّفِ المرحوم الدكتور عبد الله عِنَان عن تهاون المغرب في إحياء الذكرى الستمائة على وفاة ابن الخطيب، حيث قال «وهي

---

(١) على الفقيه الحاج أحمد الغرباوي الضرير، وأخيه الحاج إدريس الغرباوي، رحمهما الله.

الذكرى التي لم تحظ مع شديد الأسف من الاحتفال والتنويه بما كان واجبًا أن تحظى به، وذلك بالرّغم ممّا لفتنا إليه الأنظار، ودعونا إليه بشدّة من وجوب الاحتفال بها قبل وقوعها بأعوام. وقد خسر المغرب، وخسر العِلْمُ المغربي، بإضاعة هذه الفرصة التاريخيّة العظيمة، خسارة أدبيّة وعلميّة فادحة، تدعو إلى أشدّ الأسف والأسى» (مقدّمة تحقيق كتاب **ريحانة الكُتَّاب** لابن الخطيب، ص. ١١).

واليوم، ونحن نكتب عن ابن الخطيب هذه الرواية التي تُقَرِّبُ القارئَ المعاصر من هذا الرجل الذي يُمَثِّلُ الأندلس أفضل تمثيل، ندعو بإلحاح إلى تفادي ما تأسَّف عليه المرحوم عبد الله عنان، والعمل على إحياء الذكرى السبعمائة لولادة ابن الخطيب، وإسبال الرعاية السامية. ولعلّنا نجد تعليلاً لعدم احتفال المغرب بالذكرى الستمائة على وفاته، لكون المغرب لم يكن له ضلع مباشر في مقتل ابن الخطيب وإهانته والتمْثِيل بجثّته، ولم يكن شريكًا في تلك المؤامرة الدنيئة التي تثور لها كلّ نَفْس كريمة، وتَبَرَّأَ رجالُه العِظام من فَعَلَتِهَا في حِينِهِ، وعلى مَرِّ التاريخ. ولعلّ من أعجب الموافقات أن يكونَ الآمر بقتل ابن الخطيب هو سلطانه محمّد الخامس، من بني الأحمر. وكان مجدِّد رَسْمَ قبره، وباني ضريحه، بعد قرون من الإهمال، هو المغفورُ له الملك محمّد الخامس، محرّر المغرب من الاستعمار الفرنسي، الذي نَسَخَ نهائيًّا هذه الجريمة من تاريخ المغرب. واليوم، يتضاعف هذا الإحياء بضرورة إقامة الاحتفال بذكرى ولادة ابن الخطيب السبعمائة. ونحن نرى أنّ هذه الاحتفال بهذه الذكرى سيجعل ابن الخطيب يولد من جديد، بعدما اغتالته

غرناطة الآيلة للسقوط، والتي لولا جهود ملوك المغرب ورجالاته لما استمَرَّتْ تُقاوِمُ حملات الاسترداد القشتاليّة، حتى سقَطَتْ في الأخير حين ضَعُفَ المغرب عن نَجْدَتِهَا، وانشغل بمشاكله الداخليّة. وانتقل تراث ابن الخطيب إلى خزائن المغرب المختلفة، وعليها اعتمد الباحثون في تحقيق كثير من كتبه وإخراجها للنور. وقد مات قَتَلَةُ ابن الخطيب، ولا يُعْرَفُ قبر واحد منهم، لكنّ لسان الدين بقي مذكورًا بعبقريّته وكتبه وأعماله، وما زال الناس يقفون عند ضَريحه(١) يترحَّمُون عليه. ولعلّ السبب الرئيس الذي أدَّى إلى اغتيال ابن الخطيب كونُه كان يؤمن بضرورة أن تَتَّحِدَ مملكةُ غرناطة مع دولة بني مرين في المغرب، لوقف الزحف القشتالي. لكنّ هذا الحسّ الوحدوي كان يعاكس المصالح الضيّقة الأنانيّة لأعداء ابن الخطيب فكادوا له، ولفَّقُوا له تهمة الزندقة.

ولعلّ من باب البرور أيضًا أن أشكر الأب روني بريز الدومينيكاني، الذي اشتغل على كتاب **روضة التعريف**، لابن الخطيب(٢) فلما كان أوان مغادرته المغرب نهائيًّا، للانقطاع للعبادة في أحد الأديرة في مدينة باريس، دعاني إلى مكتبه،

---

(١) لقد قام مجلس مدينة فاس، بالتعاون مع بلديّة مدينة لوشة Loja، مسقط رأس ابن الخطيب في إقليم الأندلس بإسبانيا مؤخرًا بإعادة ترميم ضريح ابن الخطيب في مدينة فاس.

(٢) تحت إشراف الدكتور الأب بولس نويا، وناقش رسالته في جامعة مدينة ليون الثانية في فرنسا سنة ١٩٩١. وقد أسّس هذا الأب **خزانة عين الماء** (la Source) الغنيّة بمحفوظاتها، في الرباط. وهي تابعة لأسقفيّة القدّيس بطرس بعاصمة المغرب.

فجالسته وتباحثنا في أمور كثيرة علميّة وأدبيّة، وبخاصّة حول ابن الخطيب ونهايته المفجعة. فلمّا أردتُ تَوديعَه، قام فأهداني النسخة الأصليّة من رسالته التي عليها تعليقاته، لعلمه بمدى العلاقة العاطفيّة والأدبيّة التي تجمعني بابن الخطيب. فله منّي خالص الشكر والتقدير على خدمته للتراث والأدب العربيّين[1]

إنّ إحياء ذكرى ابن الخطيب هي مثال على الحضور والإشهاد الحضاري الذي ندعو إليه، ونؤسّس عليه الأدب المنشود في تحقيق الكونيّة والعالميّة التي نبَّهنا عليها.

د. عبد الإله بن عرفة

الرباط، المغرب

---

(١) لقد أدّاه اهتمامه بابن الخطيب إلى الاشتغال على ثاني أكبر شخصيّة في ذلك العصر، وهو ابن خلدون، حيث قام بدراسة وترجمة كتابه **شفاء السائل لتهذيب المسائل** إلى الفرنسيّة، دار النشر: سندباد ١٩٩١. والكتاب يتعرّض لإحدى المسائل الفكريّة والسلوكيّة التي شغلت علماء الأندلس آنذاك، واشتبك فيها الفقراء والفقهاء بالأيدي والنعال، فطلبوا فتوى علميّة عنها من علماء فاس، ودخل ابن خلدون على الخطّ فأدلى بدلوه، وألّف هذا الكتاب.

﴿طه مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾

* * *

خلافُ طٰهَ فَإِنَّ الفَتْحَ يَلْزَمُهُ   لِذَاكَ جاءَ لِيَشْقَى وَهْوَ يَخْلُقُهُ
بِالجُودِ أَوْجَدَهُ، بِالكَوْنِ حَدَّدَهُ   وَبِالتَجَلِّي يُغَذِّيهِ وَيَرْزُقُهُ

ابن العربي الحاتمي

* * *

«كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب، لا يُسَاجَلُ مَدَاهُ، ولا يُهتدى بمثل هُداه»

ابن خلدون، كتاب الرحلة

طبع الماء

طهَّرني والدي في سابع ولادتي وسمَّاني محمّدًا، وأقام الأفراح التي تليق بأبناء الكُبراء، وأَسْبَل وافرَ العطايا على المساكين والفقراء.

لم أعد أذكر من طفولتي المبكرة، في مدينة لوشة غربي غرناطة، شيئًا كثيرًا، فقد انتقلَتْ أسرتنا إلى حاضرة الأندلس حين دخل والدي في خدمة بني الأحمر

ومن أسباب انتقالنا إلى غرناطة أنّ والدي كان قائدًا في الجيش، فلمّا وقعت المعركة الكبيرة قرب غرناطة التي انهزم فيها القشتاليّون، وكنت وقتها حدثًا لم أجاوز ستّ سنين، كان والدي من الذين أبْلَوْا البلاءَ الحسن مع شيخ الغُزاة المريني أبي العلاء. فلمّا وضعت الحرب أوزارها كلَّم شيخ الغزاةِ السلطانَ بشأن والدي، فضمّه السلطان إلى رجاله، وزَوَّجَهُ من بنات أحد أقربائه، الذي هو جدّي من جهة أمّي.

كان فضولي كبيرًا في استكناه الحياة، واستنطاق كلّ ما يعرض

لي. ومن أعجب أموري أنّي كنت أُكَيِّفُ صوتي على الوجه الذي أريد، فمرّة أجعله حادًّا، وكانت هذه النبرة هي الغالبة عليّ، ومرّة ثانية أجعله غليظًا، وهي النبرة التي كنت نادرًا ما ألجأ إليها. أمّا غالبيّة الوقت، فكان صوتي مخمَلِيًّا وأمّا نظراتي فكانت حادَّةً تُثِيرُ فُضولَ الناس وتسحَرُهُم. شعرت بقدرتي منذ صغري على التحكّم في مشاعري. كما أنّني كنت أظفر دائمًا بما أريد، فألجأ إلى قدراتي العجيبة للحصول على رغباتي.

كان وعيي بذاتي دقيقًا جدًّا، فأنا أعلم ما أريد، وأريد ما أعلم، لكنّ أهمّ ما كنتُ أتميَّزُ به هو قُدرتي على التحوُّل في الأَشْكال والمواقف، من دون أن يَفْطَنَ غيري بذلك. فقد أبدو باردًا، وألبسُ وجهًا لهذا البرود، وباطني على خلاف ذلك. هذه القدرة على التحوّل كانت تُربِك مَنْ حولي، فلا يَدرون كيف يتعاملون معي. فكلّما أدركوا وجهًا من وجوهي، لم يكن ذلك لينفعهم بشيء، إذ كنتُ على خلاف ما ظنُّوه، فأَفُكُّ عَقْدَ ما أَبْرَمُوه. كنت أمتاز بقدرة فائقة على إظهار ما أُريدُ من المشاعر، من دون أن أَتغيَّرَ في داخلي. بعض الناس كان يحاول أن يَستكنِهَ ما وراء هذه الوجوه المتعدّدة التي كنت أبدو بها منذ صغري. لم يكن لهم من علامة تقودهم إلّا تَتبُّع التغيُّر الذي كان يحدث لصوتي بعض الأحيان، حيث يكون مرّة أَجَشَّ، وقد يتحوَّل لكي يبدو حادًّا أو مخمليًّا. ثم كانت نظراتي أيضًا علامة أخرى، إذ كان بصري حادًّا يكشف خبايا مُخاطبي ويجرِّده من كلّ مقاومة.

منذ عَقَلْتُ وأنا لا أتمتَّعُ بالنوم كثيرًا. كنتُ دائمَ الأرق،

أمضي ليلي أحبِك خيوط أحلامي، فإذا أصبح الصباح سَعيتُ لتحقيقها.

من مظاهر قوّتي، كلماتي التي كنت أُرسلها بدون مُوارَبة ولا مَحاذير، بصراحةٍ تُزعزع كِيانَ المتردِّدين، وَتقلِبُ حسابات العاجزين. كان هذا من أسباب بلائي بين أصدقائي الصغار. فكم أبْكَيتُ منهم من واحد، وكم أَدْميتُ مشاعرهم بهذه الصراحة الزائدة. كنتُ أَعلمُ أنّي أَخْسَرُ كثيرًا بهذه المعاملة، لكنّي كنتُ مطمئنًّا إلى صدق هذا السلوك الجارح. وكان بعض الأصدقاء يحبُّون صراحتي فيحتكمون إليَّ في أقضيتهم.

دَرَجْتُ أُحبُّ الطبيعة والأشجار والأنوار، رغم أنّي في أغلب أحاييني كائنٌ ليلي. لكن قد تأتي عليَّ أوقات أُصبح فيها كائنًا يعشق الأضواء والأجواء العالية حيثُ نَسيمُ الحرّيّة. أمّا عن مَثالبي التي كنت أَمقُتُها، فهي حين أَجْبُنُ إلى درجة الخِسَّة، فَتُرَانِي أعيشُ في الظلمة والخوف.

هذه صورة عن نفسيّتي المعقّدة، المتأرجحة بين عدّة نوازع لا يدركها مَن كان حولي. ولعلّ من عجائبي الخفيّة أنّي كنت أتماهى مع بعض الكائنات. فمرّة أرى نفسي عقربًا سامًّا يلدغ لمجرّد اللذّة، وطورًا آخر تراني ضَبًّا لئيمًا خائفًا منجحرًا في ظلمة الأرض، لكنّي أحيانًا أخرى، وهي أفضلُ أوقاتي وأَحَبُّها إليَّ، حين أُصبح نَسْرَ الأعالي، أَهُبُّ لنَجدة الخائف، ونُصرة الضعيف، وإكرام الفقير، وإجارة المستجير. حينها أُحِسُّ أنّي أصبحتُ ذاتًا واحدة لا مُشَاكَسةَ فيها مِنَ الذوات الأخرى. نظراتٌ حادّة وتَفاؤلٌ

يملأ القلبَ فَيُفِيضُ على كلّ الكائنات الحبَّ والوفاء والرحمة. لا أتزلزل ولا أخاف ولا أَهَاب، صَبور على المصائب، فَحْلٌ في النوائب، أَمنحُ حياتي قُربانًا للناس في سبيل ما أؤمن به.

فكيف يصنع مخلوق بهذه النفسيّة المعقّدة، إلى درجة الجنون؟

أدركتُ، منذ فُتُوَّتِي، هذه التناقضات المختلفة، فعمِلت على الاستفادة منها في مختلف المواقف الحياتيّة التي تعرض لي. لم أختر أن أكون بهذا الشكل أو على هذه الصفة، كما لم أختر يوم ولادتي، ولا حتى اليوم الذي سأموت فيه أو سأُقتل فيه، ولا الاسم الذي منحني والدي. هذه كلّها مواهب أو مكاسب، وقد تكون لدى كثير من الناس أقربَ إلى أن تكون من النوائب. رغم هذه القَهْرِيَّات، أعتقد أنَّ على الإنسان أن يَقبَل بقواعد هذه اللعبة الوجوديّة. إنّها ضريبة الحياة التي يدفعها كلّ واحد مِنَّا، راضيًا أو رَاغِمًا. لعلّ البعض يثور على هذه الحتميّة التي تجعل الإنسان غير مُتَحَكِّم في سَيْرِ حياته، بل تَظهَر منه تَصرُّفات بحسب الصورة النفسيّة التي حلَّتْ بذاته الطينيّة. لطالما رأيتُ في أحلامي أنَّ النفس الكلّيّة تدور في الكون كما تدور الناعورة التي تحمل أَسْطَالَ المياه لِتَصُبَّهَا في السواقي. إنّ هذه النفس الكلّيّة دائمةُ الدوران، فإذا حلَّت ساعة قيامة الواحد منّا إلى الحياة والوجود، صبَّتْ عليه سطلاً أخذَتْها من عين ماء تلك النفس الكلّيّة، وأراقتها في مجرى ساقية نفسه الجزئيّة. فهل لهذا الذي رُشَّ بذلك الماء الأزلي رأيٌ أو اختيار مع هذه النفس الجزئيّة التي حلَّتْ بين جنبيه؟ لا شكّ أنّه لم يُستَشَر في هذا كما قال عمر الخيّام:

لَبِسْتُ ثوبَ العيشِ لم أُسْتَشَرْ   وحِرْتُ فيه بين شتَّى الفِكَر

أُحِبُّ الحياة بجميع دقائقها، وأسعى للحصول على أكبر قدر من المتعة من لذاذات العيش الهني.

كانت هذه المدينة لدى أهلها عاصمةَ الدنيا، حيث جمعَتْ رؤوس العلوم والفنون في كلّ مجال، ورسخ لديهم إحساس بأنّهم مؤتمنون على الحضارة، لكنّ مدينتهم كانت مثل جزيرة مُحاطة بالأعداء. لقد كَبُرَ العُمران فيها جَرَّاء أعداد المهاجرين الذين تقاطروا عليها بعد أن سقطت مدنهم الواحدة تلو الأخرى في يد القشتاليّين أو الأراغونيّين، فكانوا ينحدرون إلى مدينتنا التي كانت تزدحم بهم، وتمنحهم شيئًا من الرحمة والأمان إلى أَوَان.

كان والدي عبد الله حريصًا على تربيتي أحسن تربية، فدفعني أوَّلَ ما عَقَلْتُ إلى المُكَتِّب الصالح أبي عبد الله العوّاد، فعلَّمني القراءة والكتابة وحفَّظني القرآن والتجويد. لم يَطُلْ بي المقام معه إذ كنت نبيهًا فتعلَّمت بسرعة فائقة، ممّا جعله يدفعني مرّة أخرى إلى شيخ الجماعة أبي الحسن القيجاطي لأقرأ عليه القرآن والعربيّة. وقد انتفعت به كثيرًا ثم قرأت على الخطيب ابن جزي، وأتقنت العربيّة والفقه والتفسير على الإمام ابن الفخار البيري، شيخ النحويّين في وقته.

بَدَأَتْ أماراتُ النباهة والشفُوف تَظْهَرُ عليّ، وكنتُ مَفخرةَ والدي الذي كان يدَّخِرني للعمل لدى بني نصر، حيث كانت له يَدٌ عندهم بعد أن تَصاهر معهم لمّا تزوَّج من أمّي.

أمّا أخي الأكبر فقد صرفه والدي لكي يصبح قائدًا أو أميرًا في

الجيش، فشبَّ على مُقارعة السِّنان ومبارزة الأقران. كنت سعيدًا غاية السعادة، أُقارِع بسِنانِ القلم واللسان فيما أُحسِنُه من البَراعة ممّا لا يحسنه غيري من الفتيان، فكنت أقضي وقتي في الدراسة والتحصيل، وأرى أنّي أَفضَلُ حالاً من غيري. وفي أوقات الفراغ أتمتَّع بأطايِب الحياة الغرناطيّة. أَخْرُجُ مع الأصدقاء للاسترواح في جِنانها وجَنَّاتها الغَنَّاء التي كانت تبلغ حوالى مائة جنّة، ناهيك عن كُورِهَا وقُراها الثلاثمائة. لم نكن نشعر بالملل أو السأم، فنجد في هذه المنتزهات ما نُريد من الهواء العليل والبساط الأخضر الجميل، والصبايا الروميّات اللواتي كنَّ أكثرَ جراءَةً من بنات المسلمين، فَنُعاكِسُهُنَّ على غِرَّة، ونُجاريهِنَّ في مَكْرٍ كما يجاري الماءُ المنسكب من جبل الثلج[1] حركةَ الأرض وانحدارها كنّا نستمتع بلعبة الماء والأرض وزواجهما.

كان والدي قائدًا على مخازن الطعام لدى السلطان أبي الوليد إسماعيل. وكان هذا السلطان من بني الأحمر عفيفَ النفس، وقد تولَّى الحكم في السنة التي وُلدتُ فيها عام سبعمائة وثلاثة عشر.

نجح والدي في مهامِّه، وحَظِيَ بثقة كبيرة واحترام واسع لنزاهته وإخلاصه في عمله. نشأتُ قريبًا من مراكز السلطة ومواقع القَرار، وكنتُ طَموحًا فَبَدَتْ للجميع مَخايِلُ نباهتي. ثم ما لبثَ السلطانُ أبو الوليد أن قُتل بسبب خلاف تافه حول جارية، بينه وبين ابن عمّه محمّد بن إسماعيل الذي تولّى الملك بعده. وفي عهد هذا الأخير تَمَّ استرداد جبل الفتح من القشتاليّين بفضل بلاء الجيش

(١) التسمية العربيّة المطابقة للكلمة القشتاليّة Sierra Nevada.

المغربي الذي هَبَّ لنُصرة بني الأحمر، وأوقَعَ بالإيبيريّين هزيمةً مُنكَرَةً. ولكنّ أيّام هذا السلطان المتهوِّر لم تَدُمْ سوى ثماني سنوات قُتِلَ بعدَها من قِبَلِ الغُزاة المرينيّين بسبب سَلاطة لسانه. كنتُ قد بَلغتُ حينَها عشرين سنة واستويت على ساق الفُتُوَّة والشباب، ثم بويع للسلطان أبي الحجّاج يوسف بن إسماعيل الذي كان يَكبُرني بستّ سنوات.

كنتُ أرى ما يحدث بحاسّتي، فأنجذب للسلطة والمكانة رغم فزعي من الحُتوف التي كانت تترصَّد كلّ مُتَصدِّر لهذه المراتب، لكنَّ مِغْناطِيسَ السلطة كان أكثرَ قُوَّةً من مخاوفي النفسيّة. كنتُ مُتيقِّنًا أنَّ بإمكاني أن أُغَيِّرَ الأشياء حين أتَّصِل بالسلطان. وكانت نفسي التي بين جنبيّ مِهمازًا يحثُّني باستمرار على سلوك هذا الدرب حيث كنت أُقلِّل من تخوّفاتي بترديد قول أستاذي من أن الأندلس أرض رباط وجهاد. فالمرء لا محالة ميِّتٌ، سواءٌ في ميدان الحرب، أو في مكائد السياسة. ثم يحضرني قول القائل الحكيم:

وإذا لم يَكُنْ منَ الموْت بُدٌّ فَمِنَ العَيْب أَنْ تَمُوتَ جَبَانَا

دخلت إلى المدرسة العظيمة التي أنشأها السلطان، ولزمت أساتذتها العظام الذين لم يكن لهم نظير. ومن هؤلاء ابن صفوان، وابن هذيل الحكيم. وقرأت عليه بهذه المدرسة الأصولَ والفرائض والطبّ. وعلى الجملة فهو «آخِرُ حَمَلَةِ الفُنون العقليّة بالأندلس، وخاتمة العلماء بها، من طبّ وهندسة وهيئة وحساب وأصول وأدب». كنت أقضي الغالب من أوقاتي في الدراسة والتحصيل، فدرست على هذا الأستاذ ولازمته حتى حصَّلتُ ما لم يكن عند

غيره في التعاليم والفلسفة.

أَنْفِرُ بين الفينة والأخرى إلى جِنان غرناطة مع رفقة من شبابها نستروح من عَنَاءِ ما حَصَّلناه، غافلين عن هشاشة وجودنا في هذه المملكة. كنت شَغُوفًا بالأدب والشعر، فجرى لساني يَنْسجُ كلمات من وَشْيِ سحر غصن الأندلس الرَّطيب، وأزهار رياضها الفَيحاء. كان الجمالُ مَصْدَرَ الإلهام في النظم، جمالُ الطبيعة بمياهها وأزهارها ونباتاتها، أو جمالُ الطبيعة الإنسانيّة الأندلسيّة. وأحيانًا قد يُلِمُّ المرءُ بشيء من السخرية والتَّفَكُّهِ بأمور الحياة. طبعًا، كان هناك من يَنْظِمُ في أمور أخرى، ربّما كانت أَلْيَقَ بحال أهل الأندلس ووحشتهم وغربتهم وضعف عصبيّتهم، فتراه يُومِئُ إلى الزهد في الحياة، وتَذَكُّرِ الآخرة والتَّقلُّلِ من المباهج، والحَضّ على أعمال البِرّ والإحسان.

كان كثير من فقهاء مملكتنا يُنكر على أستاذي أبي هذيل تعاطيه الفلسفة والتعاليم وعلوم الحكمة القديمة، لكنّه لم يكن يُلقي لهم بالاً، كما أنّ أهل بلدنا كانوا على الجملة متسامحين، ولم يكونوا يرون غَضاضةً في الإقبال على مثل هذه العلوم. أَفَدْتُ من الأستاذ ولازمتُه ملازمةً قويّة، فتعلَّمتُ منه ما لم يكن عند غيره.

وأحيانًا كان يخصُّني مع جُملة من الرفاق بدروس خاصّة في بيته، فنذهب إليه نتعلَّم الحكمة والفلسفة على طريقة القدماء. كان الأستاذ يعتبرهم من أهل المحبّة، فكان يُفيض في الحديث عنهم وعن أصنافهم من أهل ملطيّة وأصطراخيّة وقونيّة مثل مانياتاليس الملطي، وأنكساغورس، وأنكسماليس، وأمبادقليس، وفيثاغورس،

وسقراط، وأفلاطون. وبعدهم ممّن يلحق بهم كبقراط، وأفلوطين، وديموقراط، وسائر المشَّائِين والرِّواقِيِّين، وفلاسفة أقديميا، وفلوطرخيس، وزِينون، وهِرمس الأكبر، ومقورس، وأرميوس، وأقليدس، وسولس، وهرقل الحكيم، وخيمانيس، وأرشلاوش، وطبايورش، وفرسطوس، وجورامسيس، وأرسطاطاليس الإصطخري الحكيم المعروف بالحقّ، وواضع المنطق، وتلميذه الإسكندر الرومي، وأوزنيطس، وتامسطيوس، والإسكندر الأفرودسي، وأرشمديدش، ورفش، وبولس، وجالينوس. كلّهم فَاضِلٌ مُوَلٍّ وجهَه شَطْرَ الإلٰه، مُتَزَلِّفٌ إلى رَبٍّ، مُرْتَاضٌ عاشق بين مُوَحِّد ومُوَسِّط.

كانت هذه الدروس ممتعة حيث كنتُ أحاول أن أَشُقَّ طريقًا لي بين هذه الأفكار المتلاطمة والمتداخلة التي قلَّما يَخْلُصُ منها المرء، لكنَّ المقارنةَ بينها في الموضوع الواحد تجعل للإنسان رأيًا في هذه المسائل المعقّدة، بشرط أن يدرك قول كل واحد في استقلاله عن الأقوال الأخرى إن أمكن. وهذا ما كنت أَجْهَدُ فيه بالذات حتى يكون لي رأي في المحبّة والمعرفة والوجود والزمن والنفس والأخلاق والاجتماع والسياسة. ومن مغالطات هذه المرحلة في تكوين الطالب أنّه يُحِسُّ بالشُّفوف ومُناطحة العمالقة من الحكماء، إذ مجرَّد رَصْفِ رأيه بإزاء الآراء الأخرى يوهِمُه أنّه أصبحَ على شاكلتهم. وهيهاتَ هيهاتَ له ذلك، لكنّه لا يدرك هذا الأمر أوّلاً، إلّا بعدما يكتملُ تكوينه، فَتَهْجُمُ عليه الإشكالات والتناقضات الداخليّة التي لا قِبَلَ له بها، فيدركُ أنّ ما توهَّمَه سابقًا من قدرة على مناطحة آراء العظماء لم يكن سوى نَزْوَةٍ عارضة من

نَزوات النفس التي تَكيدها للعقل فينحَجِبُ عن الكمال الذي لا نسبة فيه على الحقيقة للأفكار. إنّ الحقّ والحقيقة لا نسبة معهما إلّا بالتعلّق لا بالتملُّك، لكن عامّة الناس سَادِرون في غَيٍّ نرجسيّاتهم فينسُبون لها ما لا تَصِحُّ نسبته إلّا لمصادرها العليا المطلقة. كنت أنعم في غِرَّتي بدقائق الحكمة عن مقتضياتها المتعدّدة التي تُحَتِّمُ وضعَها على المِحَكِّ بإزاء كلّ الآراء المتصارعة على ادِّعَاءِ تمثيل الحقّ. ورغم هذه الغفلة، فإنّي كنتُ أُدرِكُ أنّها مرحلة ضروريّة في تكوين طالب الحكمة، إذ لو دخلها بالتواضع من أَوَّلِ وهلة لما استطاع أن يُبدِعَ له رأيًا في مثل هذه القضايا الدقيقة. إنّ طلبَ المعرفة في البداية يستهوي الطالب بمثل هذه الغَواية الفكريّة، حتى إذا استحكمَتْ حَلَقَاتُها أدرك أنّه لم يَقْبِضْ على شيء، لكنّه حتمًا سالك على الطريق. ولو لم تُمَارِسْ عليه المعرفةُ تلك الغَوايةَ لهجَرَهَا عند كلّ شائكة، ولطلّقَها لدى كلّ عائقة.

أدركتُ أنّ ثَدْيَ المعرفة لا يَتِمُّ إلّا بالرَّضَاع، وأنّ صُراخَ الطفل يتوقَّفُ عند دَرِّ الحليب، لكنّه حين يَكْبُرُ لا يَلْقَمُ الثَّدي بل يَحْلِبُ لنفسه بيديه.

@ktabpdf تيليجرام

أيُّ جولاتٍ هذه التي كنّا نخوضها في التاريخ والجغرافيا والمعارف؟ فهذا وَالِدُ الحكماء هرمس، أو هذا أفلاطون الحكيم مُعلِّم الخير، وذاك أرسطو واضع المنطق وإمام المشّائين، أو ذاك جالينوس المهندس، وذلك بقراط الدّنّان، أو ذلك سقراط المسفسط. ورجال عظماء من أمم أخرى كأصحاب الأنوار

القدماء والمتألّهين الذين أوغلوا في الحكمة من الهند وفارس، فقسَّموا الناس بحسب استعداداتهم لِقَبُولِ نور الأنوار أو ظلمة الغَواسِق. لكنّنا نعرف هؤلاء جميعًا كما نعرف مَنْ هُمْ أَقرَبُ إلينا مثل الكندي والفارابي والرئيس ابن سينا وابن باجة وابن طفيل والغزالي وابن رشد. كلّهم سائر إلى الحقّ مسترشد طالب. جغرافيّتهم واحدة مهما نَأَتْ بهم الأوطان، واختلفت بهم الألسن، وتعدَّدت عندهم المعتقدات، فإنّهم يُشَكِّلُونَ أُمَّةَ المعرفة التي لا تَعْرِفُ التسْيِيجَ، ولا الحدود القوميّة أو غيرها. طبعًا، كان الأستاذ يخبرنا عن حدود أخرى من طبيعة مختلفة، إنّها حدودُ المعرفةِ ذاتِها التي تضعها لكي تتقدَّم وتُحقّقَ طَفَرَاتٍ، وتَشُقَّ لها تُرَعًا جَدِيدَةً، وطُرُقًا غيْرَ سَابِلَةٍ.

مكتبة الرمحي أحمد

كنتُ أَستغرِبُ هذا الأمر لنزوع روح الفتوّة والشباب إلى الحرّيّة عمومًا، فحتى الحدود المعرفيّة لم أكن أَقبَلُ بها إلّا على مَضَض. ومهما كنتُ مخطئًا وكان الأستاذ مُصيبًا فيما يقول، فإنّ غِرَّةَ الشباب ضَروريّة لتقَدُّم المعرفة، إذ إنّها في سذاجتها وطلبها للمطلق قد تصيب في فَتْقِ رَتْقِ ما لم يُقَلْ قَبْلاً، أو يُشْبَعْ بحثًا ودرسًا. إنّ هذه الخَصيصة في طلب الحقّ مهما كان، وعدم الإيمان بالحدود مهما عَلَتْ، مُعْتَصَمٌ لِتَقَدُّم المعرفة وانفكاكِها عن البراهين المصطنعة والأَقْيِسَةِ الإقناعيّة، والأَسْيِجَةِ الحامِيَة لقِلاع أفكار الراحة والدَّعَة. كان الأستاذ يُعْجَبُ بهذه الجَسَارة على تَقَحُّمِ تلك المَضَايِقِ في إقدام وغِرَّةٍ، لكنّه كان يَترُكُ لنا الفرصةَ لفعلِ ذلك، لإيمانه الداخلي بأنّ الراحة والدَّعَة والتسليم لما مضى ليس من العلم في شيء. طبعًا، كان يؤكّد لنا على أنّ للعلماءِ حُرمة،

لكن ليس على حساب حُرْمَةِ العِلم وتقدُّمِه. وزاد من جسارتي التركيبُ العجيبُ لذاتي الآيسةِ من كلّ كَوْنٍ، المنتقلةِ إلى ما بعده. فلا يَهُمُّهَا وَضَحُ نهارٍ ما تَدَّعِيهِ بعضُ المعارف والأفكار، فكأنّ طبيعةَ نفسي الليليّة تَنْحَاشُ إلى سُدْفَةِ الغَوَاسِقِ لعلّها تَسُلُّ منها شعاعًا من لَمْحِ فكرةٍ لا يَلْبَثُ أن يَشْتَدَّ ويَقْوَى بالمعالجة حتى يستوي فكرًا قائمًا إنّ عَقربيّتي الليليّة وسَبُعِيَّتِي النَسْريّة كانتا دائمًا تَهزِمان خِسَّة وَزَغِيَّتِي وضَبِّيَّتِي.

لكم هو جميل وغريب هذا الإحساس بالتركيب في ذوات أخرى من عالم الحيوان؟ بعضها يطير، وآخر ينجحر، وثالث يسبح. فهي جامعة للبرّ والبحر والجوّ. بعضها يحبّ الأنوار، ويفتِك في واضحة النهار، وبعضها الآخر يحبُّ سوادَ الليل وظلمةَ الأرض، وتراه يَبُثُّ سُمَّهُ في خِلْسَةٍ عن الرُّقَبَاء. أمّا ثالثُهُمَا فلا شكّ أنّه لا يَفتِكُ بغيره إلّا لمقتضيات البقاء.

ثم هناك أمر آخر، وهو أنّي كنت أُحسّ كأنّي كائن مائي يجري بالحياة، يروي الأرض فَيُحييها، ويملأ العيون والسواقي فَيُجريها. أو كنت أرى نفسي شجرة كونيّة عظمى في روضة لا يوجد فيها غيرها من الأشجار. طبعًا، هذه صورة مُرَكَّبَةٌ عن نفسي حين يخبرني عنها جَاسوسُ الضمير كان هذا إحساسًا بالتميُّز والهَشَاشة في الوقت نفسه. فما معنى أن تتحَوَّل في كلّ الذوات وتَصِير جنسًا في كلّ الأجناس، أو نوعًا في كلّ الأنواع؟ لا شكّ أنّه شعور بالتميّز يُخفي غرورَه في التَّحَوُّل. لم أَكُنْ أُخبِرُ أحدًا بهذه الأحاديث النفسيّة، لأنّ ذلك يعني أن تَكْشِفَ عن خباياكَ وزوايا ذاتِك فَتَبْدُو

عاريًا أعزلَ، لكنّي كنت أستفيدُ من هذا الوعي كما ينبغي، حين ينبغي.

* * *

مَرَّتْ سنواتٌ، واستوَيْتُ قائمًا على سَاقِ الرُّجولة. ثم تُوفّيت والدتي، وأصابني حزن شديد عليها

وفي أواخر سنة سبعمائة وأربعين، طلبني والدي فدَخلتُ عليه، ووجدتُه جالسًا في وسط المجلس وبجانبه الأيمن أخي الأكبر. كان يلبَسُ مِعْطفًا فَضفاضًا مُقَلْنَسًا قرمُزِيَّ اللون، بدون أكمام، وكان يمتشق سيفًا مستقيمًا متوسّط الطول رقيق النصل، له مقبض مزخرف ينتهي عند النصل بتُفَيْفِحَةٍ مُستديرة لحماية اليد من الضربات. وكان يضع خوذة بسيطة على فخذه. لمّا رأيته على هذه الهيئة، عَلِمْتُ أنّه خارجٌ للجهاد كعادته في الغارات الموسميّة التي كنّا نُسمِّيها في بلدنا «الشَّواتي» إذا كانت شتاء، و«الصَّوافي» إذا كانت في فصل الصيف. سلَّمتُ عليه وقبَّلتُ يده وأومأتُ لأخي، الذي كان يلبس لباسًا عسكريًا، بابتسامة خفيفة. بَشَّ والدي في وجهي ورحَّبَ بي ثم أجلسني عن يساره. بدأ حديثه بسؤالي عن تحصيلي فأخبرته بما يعلم من أمري سلَفًا، فقال:

لطالما كنت أرغب في استدعائك للحديث معك، لكنّ شواغلي كانت تمنعني، وأرجو أن تُقَدِّرَ هذا وتَعْذُرَني عن تقصيري. ويعلم الله أنّك كنتَ محطَّ عنايتي دائمًا. أمّا أخوك هذا فأنت تعلم أنّه كان قريبًا منّي بحكم عَمَلِه إلى جانبي في الجيش. فهو يعلم من

أمري أكثرَ ممّا تعلمُ، لكنّي أردتُ أن أجعلَ أحدَكُمَا حاملاً للسيف مدافعًا ومجاهدًا، وأردتُ الثاني مُنافحًا بسيف العلم في مَحاريب المَعَارِف.

ظهر لي أنّ أُعقِّبَ على كلام الوالد فقلت له: يعلم الله يا سيّدي أنّي كنت دائمًا أَحِنُّ إلى الاجتماع بك ومصاحبتك في حِلِّكَ وترحالك. وقد راودني كثيرًا حُلْمُ حَمْلِ السيف مثل أخي، لكنّي كُنْتُ أعلم الترتيب الذي أَمْلَتَهُ لكلينا ورضيت به، ولم أعترض ولم أجد في هذا غضاضة أو تحكُّمًا. بل إنّ طبيعتي تأنس بالقلم أكثر ممّا تَرتاحُ إلى حَمْلِ السُّيُوف في مَيادين الوَغَى. لكن هل تَأذَنُ لي في السؤال؟

فقال الوالد: تفضَّل.

فقلت مُدَارِيًا: لكأنّي أتوقَّع أمرًا مَا مِن هذا الاجتماع، وهذه المقدّمة، فهل أنت مُقْدِمٌ على السفر أو الحجّ؟

ابتسم الوالد وقال: لَيْتَ الأمر كما تقول يا ولدي، ولعلّه قد يكون كما تقول عند الله. فِعْلاً قد أزمعتُ السفر والجهاد في سبيل الله، دفاعًا عن هذه الأمّة الأندلسيّة الباقية. وبعد وفاة والدتك، لم أعد أفكّر إلّا في الجهاد في سبيل الله. ولعلّك لا تعلم أنّ السلطان المجاهد أبا الحسن المريني قد عبر بحر الزقاق بعد أن استولى على أسطول النصارى، وقد أزمع التوجُّهَ لمحاصرة مدينة طَرِيف مع عساكره. وقد أمر سلطانُنا أبو الحجّاج بالاستعداد عاجلاً لموافاة أبي الحسن هناك لمنازلة طاغية النصارى الذي بعث لطلب الإمدادات من ملك البرتغال.

فقلت متسائلاً: يا سيّدي إنّ المعارك بيننا وبين ممالك النصارى لم تتوقّف في يوم من الأيّام، فما الجديد الذي استوجبَ دعوتَك لي على هذا الوجه؟

فقال: لك الحقُّ في أن تَعرف، وسأُكلِّمُك كلام الرجال. لقد أصبحتَ شابًّا كامِلَ الفِطنَة والنباهة، ولا أُخْفيكَ أنّ السلطان أبا الحجّاج لمّا طلبني للجهاد، كلَّمتُهُ عنك، وسألتُه أن يستعملَك في ديوان الإنشاء.

فقلتُ، وقد غمَرَتْني الفَرحَة: ذلك ما كنت أُؤَمِّل منذ مدّة.

فقال: وقد وعدني السلطان خيرًا، بل إنّه سألني فيما إذا كنتَ مُتَزَوِّجًا. ولعلّي بإذن الله، حينما أَعودُ من هذه المعركة أَجِدُكَ قد بدأتَ العمل مع الرئيس أبي الحسن ابن الجياب، ونبدأ احتفالات الزواج بمن تختارها من بنات رجال السلطان. لكنّي أستشعرُ شيئًا يدفعني لأن أُقَدِّمَ لك نصيحةَ والدٍ لولده.

فقلت: سمعًا وطاعة يا سيّدي.

فقال: أُوصِيكَ يا ولدي أن تتّقي الله في السِّرِّ والعَلَن، وأن تؤدّي واجبَك بإخلاص، وأن تكون كاتِمًا للأسرار. فلا أقبحَ من خيانةِ أمانةِ المجالس، على ما في ذلك من المخاطرة بالنَّفْس والوَلَد والمال. فاحفظْ لسانَك وقلمَك عن فُضول القول والعمل، ودَعْ ما يُريبكَ إلى ما لا يُريبك. وسَارِعْ في تحقيق مَصلحة العباد، وصُنْ كرامة الإنسان كيفما كان صغيرًا أو كبيرًا. وقُمْ بالحقّ في يُسْرٍ وذكاء واعتدال. كما أُوصِيكَ بالذَّوْدِ عن تاريخ أُسرتنا ومَجْدِ آبائكَ وأجدادك. فكن لسانًا ناطقًا بالخير والثناء، ولا تَصرِفْهُ إلى

قولِ سُوءٍ أو فحشاء. ولا تنْس أنّ العلمَ إذا لم يَصحَبْهُ عَمَلٌ فلا خير فيه. كما لا تنس أن تجعلَ العِلم وِقاءً أكثرَ من أن تجعلَه سلاحًا.

أَطْرَقَ والدي برأسه إلى الأرض، وأحسستُ أن غَيْمَةً من وِجْدَانِهِ لاحت في أُفُقِ فِكره، فتوقَّفَ عن الكلام، ولمحتُ لُؤْلُؤًا سال على ما بقي من صَفْحَة خَدِّه العارية، وانسلَّ بسرعة وسط لحيته، فَأَطرقتُ بدوري رأسي إلى الأرض مُراعاةً لشعوره، وأخذتني شبه قشعريرة، فَجَرَتْ مَدامعي بماء صامِت، لم أَعلَمْ له سببًا سوى أنّه استدعاءُ بُكاءٍ لبُكاء، أو رشح عين بعين، ومجاراة لوالدي فيما انتابه. فقد يَحْدُثُ في بعض الأَحَايِينِ أن يَغْلِبَ حالُ صاحبِ الحال مَنْ كان شاهدًا على ذلك الحال، فيقوم به حالٌ مُمَاثِلٌ مِنْ جِنْسِ ما شاهد.

لكنّي أدركت أنّ هذه الدموع فضحَتْ أمرًا لم يكن يَرْغَبُ والدي أن يقوله لولا أنّه اضْطُرَّ إليه، لكنّي لم أَتبَيَّنْ حقيقَتَهُ. وبعد أن استرجعَ أنفاسَه واستولى على أشجانه، نظر إليَّ مجدّدًا وقال:

لعلّك تستغربُ يا ولدي من حالي، لكنّي أتوقَّعُ أن لا أعودَ من هذه الحرب التي نُدافع فيها عن بقائنا على هذه الأرض. فقد وَقَرَ في نفسي أنّي سَأُكْتَبُ في الشهداء بإذن الله.

انتفَضْتُ مُعترضًا وقلتُ: يا سيّدي، أدعو الله أن يَمُدَّ في عُمُرِكَ.

فقال: إنّ للقلب إحساسًا لا يُخطِئ يا ولدي، وأَمْرُ الشهادة أَفْضَلُ ما يتمنّاه فارسٌ يهدي روحَه لربّه، فلا تحزنْ ولا تبتئِسْ. ثم

قام وأخذني في حِضْنِهِ فشعرتُ أنّي عُدْتُ طفلاً صغيرًا وشَعرتُ بخوف شديد فانْسَدَلَت على شعوري ظلمةٌ شديدة، وأحسستُ بأنّ ذاتي تُنازعني مرّةً أخرى في اتّجاهين اثنين، أحدُهُما طبيعتي الضَّبِّيَّةُ، وثانيهما نَسْرِيَّتِي. لم أَدْرِ كيف أَفْصِلُ بين الأمرين، أو أختارُ بينهما، بل لقد كنتُ محكومًا تحت قَهْرِ ما يَرِدُ عليّ، لا أستطيعُ له رَدًّا لم أَجِدْ مَهْرَبًا من هذا الصراع الداخلي سوى أن أَحْضِنَ والدي بقوّة فَأَحَسَّ بارتباكي فضمَّني إليه. كان هذا الشعور بالأمن في لحظة إعلان مُفارقة الأمن يَعكِسُ التَّقَلُّبَ النفسي ذاته الذي كنتُ فيه، لكنَّ اللحظةَ كانت هي الحاكمةَ في هذا الوقت، فتركتُها تفعلُ بي ما تُريد. بقيتُ مُسمَّرًا في حِضْنِ والدي الذي سايرني أوّلاً، ثم خَضَّنِي فجأة فانتبَهْتُ. وفجأة فارقني التركيب، وشَعرتُ بتدفُّقِ نسريّتي في أوصالي كأنّها كَواسِرُ تريدُ أن تخرجَ من باطن جَوَّانِيَّتِي. ابتسمَ لي والدي بعد أن شعر بما شعرتُ به، ثم ودَّعني وخرج بدون أن يَلفِظَ بكلمة. سايرتُه قليلاً إلى جانب أخي حتى خارج البيت، ثم ودَّعتُهُما مجدَّدًا. وهنا شعرت بوحدة وجوديّة غريبة.

كان هذا الشعور قد حصل لي ذاتَ مرّة في المنام، لمّا كنتُ فتى، فرأيت أنّ جميعَ أهلِ الأرض قد ماتوا ولم يبق في الدنيا سِوايَ. وقتَها فَزِعْتُ من نومي وأسرجْتُ المصباحَ خوفًا من الظلام حتى يفارقني ذُعري، وحاولتُ التأكّد من أنّ جميع أهل بيتي قد ماتوا، فأَلْفَيْتُ أجسادَهم هامدةً بلا حِراك. فَيَا لَهُ من شعور غريب باليأس والوحدة التي لا يمكن تصوّرها؟ وها أنا اليوم أشعر بذلك الشعور نفسه الذي حصل لي في المنام وأنا فتى صغير، وحيدًا في

الكون الفَسيح، لا سنَدَ ولا أحَد، سوى الظلمة والصقيع القارس.

ركب والدي على فرسه وبجانبه أخي. كان والدي أميرًا من أمراء الجيش النصري، يقود خمسة آلاف رجل، وكان أخي قائدًا تحت إمرته، ويقودُ ألفَ رجل مِنْ بين رجال والدي. وكانت لوالدي راية كبيرة، أمّا أخي فكان له علم أصغر. ويعمل تحت إمرة كلّ أمير خمسة قوّاد، كلّ منهم يقود ألف رجل، وكلّ قائد يعمل تحت إمرته خمسة نقباء، كلّ نقيب يقود مائتي رجل، ولكلّ نقيب لواء. كما كان يعمل تحت كلّ نقيب خمسة عُرفاء، وكلّ واحد منهم له بَنْدٌ ويقود أربعين رجلاً كما يعمل تحت إمرة كلّ عريف خمسة نُظراء، وكلّ نظير له عُقدة من قُمَاش يُعَلِّقُهَا على رُمحِه، ويقود ثمانية جنود. كانت هذه هي تركيبة الجيش النصري في مملكتنا. صدرت الأوامر بالتحرّك وفق نظام بديع من الأعلى إلى الأدنى.

خرج هذا الجيش والتحق باقي الأمراء بالسلطان الذي خرج من غرناطة باتّجاه طريف. وبين يديه كانت الرايات والأعلام والبنود تَصْفِقُ، والطبول تُدَوِّي فَتَهْتَزُّ الأرضُ من تحت أقدامنا. كان أمراء الجند الأندلسي يَلبَسون دُروعًا واسعة، ويَحْمِلون تُروسًا طويلة، ويَعتَمِرون خُوذًا مثل التي كانت لوالدي. كما كان الفرسان يحملون رماحًا طويلة وأَسِنَّةً عريضة، وبعضهم يحمل القوس والسيف والفأس والخنجر. أمّا سروج خيولهم فكانت تغطّي ظهر جيادهم. وكان بعض المشاة من الجند يحملون الأقواس الإفرنجيّة التي ترمي عدّة سهام في الرمية الواحدة. وكان يصحب هذا الجيش

النصري فرقة من الجيش المغربي، ولباسهم الحربي مختلف. فقد كان فرسانهم يلبسون البرنس، ويضعون قُبَّعات مِنْ زَرَدٍ لحماية الرأس، تُسمّى المَغَافِر. وتحت البُرنس قميص مَسْرُودٌ من حديد. أمّا تروسهم فكانت طويلة، ورماحهم قصيرة رشيقة، وسيوفهم خفيفة، وسروج جيادهم صغيرة. كما كان يمشي في رِكاب هذا الموكب العظيم أبراج خشبيّة عالية تسير على عجلات، تستعمل لكسر دفاعات المدن، حيث تُدْفَعُ إلى أعلى أسوار المدن المحاصَرة لِيَمُرَّ عليها الجند. وإضافة إلى هذه الأبراج، رأيت هيكلاً يحمله مجموعة من الجنود يسمّى «الكبش»، وهو آلة يَدُكُّ بها المهاجمون أبواب المدينة المحاصرة لهدمه. تبيّن لي أنّ اصطحاب هذه الآلات يعني أنّ حصار مدينة طريف سيدوم مدّة طويلة.

خرج الناس يودِّعون الجيش المظفَّر، وتعالَت الزَّغاريدُ من الشرفات والأزقّة، وضَجَّ الجميعُ بالدعاء والنصر للمسلمين. لم أَمْنَعْ خاطرًا مَرَّ بي بسبب تَخَلُّفي عن الخروج مع الجيش، لكنّ الله يعلمُ أنّ والدي كان قد قرَّرَ أن أكونَ عالمًا وكاتبًا، بدل أن أصبحَ قائدًا أو أميرًا وفي هذه اللحظات التي كنت أشعرُ فيها بالخِزْي والعَار، انتفضَت كبريائي لكي أَعْمَلَ على أن أُصبحَ من رجالات الدولة وأَسُوس أَمْرَ هذه المملكة حتى أُكْتَبَ من المحافظين على أمنها ورخائها.

بعد خروج الجيش النصري، استشعرت فراغًا كبيرًا من حولي. ولم يكن يخفِّف عنّي سوى الجلسات العلميّة المطوّلة التي كنت أقضيها مع شيخي ابن هذيل، نتباحث في قضايا مختلفة، ومن

ذلك بعض ما كان يرميه به بعض المتفقّهة ممّن كانت بضاعتهم العلميّة كاسدة بخصوص مسألة علم الله بالجزئيّات. كنت أنوي أن أظفرَ بالجواب اليقين حول هذه المسألة من الشيخ مباشرة، فقلت له:

ما قولك يا أبا زكريّا في علم الله؟

فقال: إنّ الجواب عن ذلك مرتبط بالحديث عن الإرادة الإلٰهيّة.

فقلت: وكيف ذلك؟

فأجاب: إنّ جميع الجزئيّات الناتجة عن تصرّفات الخلق تستلزم في العقل أن تخصّصها الإرادة. ولكي يحصل التخصيص لا بدّ أن يكون مسبوقًا بالعلم.

فقلت: لم أفهم جيّدًا.

فتابع كلامه: إنّ الله هو الذي خلق العالم لمّا توجَّهت بذلك قدرته. وقد علم من الأشياء ما هي عليه في ذاتها فأوجدها وَفْقًا لإرادته العليّة.

فقلت: زدني يا أبا زكريّا إيضاحًا

فقال: إنّ القصد أو الإرادة الإلٰهيّة لا تتوجّه إلّا على ما دخل في العلم، فلا يوجد شيء من المقدورات إلّا مُخصَّصًا بالإرادة التابعة للعلم.

فسألته مرّة أخرى: هذه أدلّة عقليّة، لكن ما هي الأدلّة النقليّة

على علم الله بالجزئيّات؟

فقال: هذه أيسر من الأولى، فانظر مثلاً إلى قوله تعالى ﴿إنّ الله بكلّ شيء محيط﴾ أو قوله ﴿وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علمًا﴾ أو ﴿وأحصى كلّ شيء عددًا﴾ أو ﴿وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها﴾.

فقلت معترضًا: صحيح أنّ هذه الآيات واضحة، لكن دعنا نحكي حُجَجَ المعارضين من العقلاء. إنّ الموجودات تنتج المعلومات أي العلم. ولكنّنا نعلم أنّ الموجودات متناهية، فلا بدّ أن يكون العلم متناهيًا ومنحصرًا في الموجودات الفعليّة. فلنفترض مثلاً أنّي لم أتعلّم هذه العلوم وصرفني والدي إلى دراسة فنون الحرب، ولنفترض أنّي خرجت إلى الحرب ضمن الجيش النصري، فهل كنت سأطرح عليك هذه الأسئلة؟ بل هل كنت سأعلم حتى بوجود مثل هذه القضايا؟ فهل هذا ممّا يدخل في الوجود؟ وهل علم الله يتعلّق بمثل كلّ هذا؟ وهل كان هذا سيغيّر شيئًا لو أنّني وُلِدْتُ في بلاد الأمم النصرانيّة؟ هل كنت سأرى الأمور بالطريقة نفسها التي أراها الآن؟ تبدو لي هذه الاحتمالات واردة، لكن هل تعلَّقَتْ بها الإرادة أم لا؟

فقال الشيخ: أراك تُرَكِّبُ قضايا، وتضع مُسَلَّمات وتريد أن تَخْلُصَ إلى نتائج. ويمكننا أن نبقى إلى الصُّبح، بل إلى ما لا نهاية نفترض الافتراضات التي كان يمكن أن تكون ثم لم تكن، ونبني عليها ما لا يتناهى من النتائج. فلنفترض مثلاً أنّك وُلدت بين أمّة النصارى وترى رأيهم في الحلول والاتّحاد، كيف كنت سترى مسألة

الخير والشرّ؟ هل هي بالطريقة نفسها التي نراها نحن؟ قطعًا لا ودعك من هذا، ولنفترض أنّ رجلاً كان غائبًا في الحجّ فلمّا عاد أخبره الجيران أنّ رجلاً نصرانيًا دخل بيته وقتل أولاده واستولى على ماله، فإنّك قطعًا ستتعاطف معه وترغب في إنزال أشدّ العقوبات بالفاعل. ودعني أعكس القضيّة. فهذا نصراني كان غائبًا في زيارة لبيت المقدس قصد الحجّ ولمّا عاد أخبره الجيران أنّ رجلاً مسلمًا دخل إلى بيته واستولى على ماله وأخذ زوجته. ما هو حكمك على كِلا الرجلين؟ لا شكّ أنّك تستقبح العملين، لكن حاول أن تربط بين الحدثين، وتجعل أحدهما نتيجة للآخر. ثم حاول أن تكون مُحايدًا في الحكم. هنا تتغيّر الأمور، ويصبح المعتدي هو من بدأ بالاعتداء، وينسحب الخير والشرّ والحسن والقبح بمقتضى أسبقيّة الاعتداء. فالزمان هنا هو من وَجَّهَ الحكم وأوضح القيمة. لكن إذا علمنا أنّ هذه الأعمال الشنيعة مسلسلة، وانبنى بعضُها على بعض، فلا شكّ أنّ العقل يحتار ويختلّ الحُكْمُ بالقبح والحُسْن. وهنا يتّضح لنا أنّ الحكم هو نتيجة لجهلنا، فلو علمنا كلّ الجزئيّات لكان حكمنا مختلفًا. فأنت ترى الآن أنّ ما اعتقدته صحيحًا منذ البداية لم يعد كذلك. ومهما كانت نصاعة عقلك، فإنّ الأمر مرتبط بالعلم، وقد تبيَّن لك أنّ علمَك محدود، وأنّ حكمَك تابع لعلمِك، فأين العدل؟ إنّ كلّ هذا وارد رغم أنّه من سفسطة العقل. ودعني أسألك، من أين لك بتلك المسلَّمات التي وضعتَها؟ لقد افترضتَ أنّها معلومة، وأنّ العلمَ محيط وسابق على ما استنتجت.

يا ولدي، يجب أن تعلم بأنّه لا يصحّ في العقل أنَ يُرَادَ ما لا يُعْلَمُ. فلو امتنعَتْ في الوجود أشياء لما تعلَّق عِلْمُ الله بإرادة

إيجادها. والعلم بالجزئيّات من ضمن مُرادات الحقّ. ثم إنّ العلم الإلٰهي القديم ليس مشابهًا لعلمنا لأنّه تعالى يعلم ما لا يَتناهى بعلم لا يتناهى.

أطرقت مَلِيًّا وتَفَكَّرْتُ في هذا الذي سمعتُ ممّا لا يَسَعُ إدراكَه إلّا العقولُ الرَّاشِدَةُ، فقلت: لقد تبيَّنَت لي يا سيّدي عقيدتك حول هذه القضيّة. حبّذا لو أدرك المنكرون أنّ هذه الجزئيّات التي يُحيلون علم الله بها هي ممّا لا يمكنه أن يُوجَد، لهذا لم يتعلّق بها علم الله ولم تُخصِّصها إرادته بالكون والوجود، لعلمه تعالى باستحالة وجودها. وهذه من القضايا المرتبطة، لكنّ عقول هؤلاء المتفقّهة تفترض فرضيّات لا جامع بينها

فقال ابن هذيل: نعم يا ولدي، إنّ هذا من جنس ما اعترضوا به على الإمام أبي حامد الغزالي في قولته الشهيرة «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان». فظنّوا أنّه حَدَّ من القدرة الإلٰهيّة، واتّهموه بالزندقة. والقدرة إنّما تتعلّق بالممكنات لا بالمستحيلات، والوجود الذي نراه ونعرفه هو الممكن. ولو أدركوا أنّ النفي المذكور في عبارة الغزالي ليس متعلّقًا بإمكان وجود شيء غير هذا الموجود، بل إنّ النفي المذكور يتعلّق بنفي أن يكون ذلك المنفي أبدع من هذا الموجود.

توضَّحتْ لي هذه المسألة بجلاء، وعَلِمْتُ سرّ الحجاب وانطماس البصيرة عند بعض الناس ممّن لم تُحَذِّقْهُم المعارف وتهذّبهم العلوم.

* * *

كنت أتحاشى الخروج كثيرًا، بعد خروج والدي مع السلطان أبي الحجّاج إلى طريف. ووصلتنا الأخبار عن نزول السلطان أبي الحسن المريني إليها مع أهله، ونَصْبِ خيامه بساحتها. ثم ما لبث أن انضمَّ إليهم جيش أهل الأندلس فأحاطوا بالمدينة نِطاقًا واحدًا، وبدأ القتال فانتصر المسلمون في البداية، لكنّ ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر، استعان بالأمم النصرانيّة، وأرسل أسطولاً ثانيًا ليعترض سفن الإمدادات المرينيّة في بحر الزقاق. استمرّ الحصار مدّة ستّة أشهر حتى اختلَّ أَمْرُ الجيش وتقلّصت الإمدادات والعلوفات. فلمّا كان شهر جمادى الأولى من سنة سبعمائة وواحد وأربعين، حشد ألفونسو جيوش الأمم النصرانيّة، وتحايل على المسلمين فأرسل جزءًا من جيشه متخفّين وانْسَلُّوا ليلاً فدخلوا إلى طريف، ولم يفطن بهم عَسَسُ المسلمين إلّا في آخر الليل بعد أن دخل معظمهم، فمَنعوا ما تبقَّى منهم وقتلوهم، وأَخْفَوْا الأمر على أبي الحسن ولبَّسوا عليه بشأنهم. فلمّا أصبح الصباح احتشد الجيشان ونشَبَتِ الحرب، فخرج الجيش الذي كَمَنَ في طريف وانسلَّ إلى معسكر المسلمين، وأعمل الجنود القتل فيمن تخلَّف من الصبيان والنساء. ووصلوا فُسطاط السلطان أبي الحسن وأخذوا ابنة عمّه عائشة، وفاطمة وقتلوهما، وأضرموا النار في المعسكر. فلمّا انتبه المسلمون إلى ما يجري خلفهم اختلَّت صفوفهم ورجعوا إلى المعسكر. وكان في مقدّمة الجيوش ابن السلطان وبرفقته والدي مع خيرة من الفرسان الغزاة، فتقبَّض النصارى على ولد أبي الحسن. واستشهد والدي وأخي مع جماعة من الغُزاة. وعاد مَلِكُ قشتالة إلى بلاده مبتهجًا مسرورًا. أمّا أبو الحسن فذهب إلى الجزيرة ومنها

إلى جبل طارق وركب البحر باتّجاه سبتة، مُزمِعًا الثأر لهذه الواقعة. وقفل السلطان أبو الحجّاج ابن الأحمر إلى غرناطة.

ولمّا وصلتنا تلك الأخبار، حزنتُ حزنًا شديدًا على فقد والدي وأخي، وأدركتُ سِرَّ اجتماع الوالد بي ووصيَّتِه لي وصدق فراسته. ولم تمض أيّام قليلة حتى استدعاني السلطان. ولمّا دخلت عليه ألفيت عليه مهابة ووقارًا. كان أبيضَ البشرة، معتدلَ القامة، كثَّ اللحية. فلمّا رآني قام إليّ تواضعًا وعزَّاني، وأسهب في ذكر خِصال والدي وترحَّمَ عليه. كان كلامه عذبًا، ثم طلب منّي أن أشتغل كاتبًا في ديوان الإنشاء، فقبلتُ لِتَوِّي وشكرتُه على ثقته وعنايته بي. ثم حدَّثني عن رغبته في تزويجي من بنات أحد رجالات دولته دون أن يذكر لي اسمه. شكرته مرّة أخرى لكنّي أضفت:

يا سيّدي هذا شرف كبير لي أن يزوّجني أمير المسلمين، لكنّي اليومَ مشغولُ الخاطر باستشهاد والدي وأخي، وأرجو أن تمنحني بعض الوقت حتى يصفو خاطري.

فقال السلطان بعطف: بورك فيك يا عُبَيْدَ الله، واعلم أنّي ما فاتحتُك في هذا الموضوع إلّا لأُسَرِّيَ عنك بفقد خديمِنا الأرضى، والدِك المنَعَّم. وحينما تكون جاهزًا، أَخْبِرني بالأمر. وأنصحُكَ أن لا تتمادى في الحزن، فهذه سُنَّةُ الله. وقد توفّي والدُك رضي الله عنه شهيدًا في ساحة القتال، مجاهدًا في سبيل الله.

فقلت: أجزل الله ثوابك يا مولاي، ثم استأذنته في الانصراف وخرجت.

* * *

بعض مُضِيّ عِدَّة أيّام اشتغلتُ فيها بالنظر في شؤون الأسرة وإعطاء الحقوق، تَفرَّغْتُ أخيرًا إلى عملي في ديوان الإنشاء، فاتَّصَلْتُ بالرئيس الوزير أبي الحسن علي بن الجيّاب، الذي كان يَرْأَسُ وزارة القلم التي كان مَقرُّها داخل قصر الحمراء. دخلت إلى هذا العالم البديع الذي كنت أسمع عنه وأُمَنِّي النفس بالوصول إليه.

استقبلني أبو الحسن ابن الجيّاب الذي كان يُدِيرُ جملة من الأدباء والكتّاب تحت إِمْرَتِهِ، ويُكَلِّفُ كُلَّ واحد بمهَامَّ خاصّة. عرَّفني بهم واحدًا واحدًا، فرأيتُ من أَوَّلِ لقاء بيننا نَظرات مختلفة مَطبوعةً بالفضول، وفي بعضها الآخر تَوَجُّسٌ وحَذَر، وأغلبُها يَفْضَحُهَا الاستعلاء. أمام هذا العَداء واللامبالاة، كانت نفسي هادئةً ثابتةً تبتسِمُ لكلّ واحد بمقدار، وتُظهِر ارتياحًا. علمتُ أنّي دخلتُ جُحْر أفعى. كان أوَّلُ سؤال يثور في ذهني هو: بأيِّ جزء من ذاتي سألقى هؤلاء؟ وعاودني التركيب من جديد. أَجَّلْتُ النَّظَرَ في الكيفيّة التي سأتعامل بها مع كلّ واحد من هؤلاء حتى أختبر نواياهم، وأَقِفَ على نفسيّاتهم ومشاعرهم. كان هذا أوَّلَ امتحان لي في سلك الوظيفة، لكنّي لم أرتبك ولم أضعف، بل لعلّ تَصَرُّفَ هؤلاء الزملاء كان حافزًا لرفع هذا التحدّي. ولعلّ في هذا السلوك مَزِيَّةً في إبعاد الضعفاء الذين لا يَنْصَلِحُ بهم أَمْرُ السياسة، فكأنّ عَدَاءَ هؤلاء الزملاء يُغَرْبِلُ كلّ مُقْبِلٍ على مُزَاوَلَةِ هذه المهنة حتى يَقْوَى قَلْبُهُ لمواجهة شَدائد انتقال السلطة والحروب والانقلابات وغيرها

أطلعني أبو الحسن على بعض نماذج من الرسائل التي كانت

تخرج من الديوان. نظرتُ فيها فَلفَتَ نظري شكلها وأنّها مكتوبة بمداد أحمر، وأنّ الكاتبَ عَمَدَ إلى ترك هامشين عن يمينٍ وأسفل الرسالة. كما أنّها كانت تحمل شعارَ السلطان أو ما يُسمُّونَه العَلامة «ولا غالب إلّا الله»، ثم الخاتم والتوقيع والتأريخ. بعد معاينة أدوات الكتابة من دواة وأقلام وأحبار وأشرطة حريريّة لِلَفّ الرسائل وغيرها، طلب منّي الوزير أن أكتب رسالة وفق النموذج الذي أطلعني عليه، وحدَّد لي موضوعًا ثم صرفني إلى شغلي الجديد.

بعد ساعة عدتُ إليه فوجدتُه يتجَوَّلُ في حديقة القصر، أطلعتُه على الرسالة المنجزة فَنَظَرَ إليها بسرعة وقرأها عن آخرها، ثم الْتَفَتَ إليَّ مبتسمًا: بُورِكَ فيك يا ولدي، فقد أدَّيْتَ أوّلَ مهمّة لك بنجاح كبير، وأنّ إمكانيّاتِك الأدبيّة عالية، وأسلوبَك رشيق، وعباراتِك جزلة ناصعة، لكنّك تُكثِرُ من السجع، وتُفرط في استعمال الغريب. أمّا صُوَرُكَ البيانيّة فقد لا يُدركها كلّ واحد. ثم هناك أشياء لا بدّ من مُراعاتها، مثل الاستفتاح، والعبارات الملوكيّة التي ينبغي التقَيُّدُ بها، ممّا يُرَسِّخُ في ذهن قارئها أُبَّهَةَ الملك وقُوَّةَ السلطان. هذه بعض الملاحظات الأوّليّة التي ينبغي التنبُّه لها مستقبلاً

شكرتُه ثم أَضَفْتُ قائلاً: سأعمل يا سيّدي ما في وسعي لأكون عند حُسْنِ ظَنِّكَ بي.

نظر إليّ ثم قال: فَلْنَمْشِ قليلاً في هذه الروضة الغنَّاء حتى أخبركَ عن بعض الأشياء.

أومأتُ له برأسي مُطيعًا، وسارتْ رجلايَ في إِثْرِهِ تُسايِرانه فيما أَمَر كان أوَّلُ ما حدَّثني به صداقتَه مع والدي، وذكر لي أشياء

كنت أجهلها عنه، فتأثَّرت لذلك. ثم تحدَّثَ لي عن الأندلس وتاريخِها العريق، وعن الأمم التي تعاقَبَتْ على حُكمِها منذ أن فتحها المسلمون قبل قرون، وكيف كانت تمتَدُّ إلى حدود فرنسا، ثم تقلَّصَتِ اليوم إلى حدود هذه المملكة حول غرناطة ومدنها المجاورة لها مثل مالقة وألمريّة. وبعد ذلك خلص إلى الحديث عن دولة بني الأحمر وعن سلطان الوقت، ملك المسلمين بها أبي الحجّاج يوسف الأوّل. وأفاض في رسم الخارطة السياسيّة لهذه الدولة والأخطار التي تهدّدها وأخيرًا تخلَّص إلى مهنة الكتابة ووظيفة ديوان الإنشاء وأهمِّيّته في شؤون الدولة، وكبار الكُتَّاب. وأكّد عليّ في صَوْنِ الأمانة وكتم الأسرار. وأخيرًا نبَّهني إلى أخذ الحيطة والحذر من زملائي في العمل. فقال لي: إنّ من آفات هذه المهنةِ السعايةَ والوشايةَ، وكم جَدَّلَتْ سيوفُ الأقوياء من الرؤوس بسبب وشاية خبيثة؟ كان هذا الرجل الأديب يتكلَّم بصدق كبير ويناصحني مثل ولده، تأليفًا لقلبي وجَبْرًا لخاطري بعد أن فَقَدْتُ والدي الذي كان يَحمي الأسرة. علمتُ أنّ جميع من يشتغل داخل هذا القصر له حُمَاةٌ يدافعون عنه أصالةً أو نيابة. بعضهم بالعصبيّة والقرابة، وآخرون بالمال والمصالح. فهمت من خلال كلام الوزير أنّ ما كان مصدرَ سعادة لي بَدَا وكأنّه اليومَ وَرطةٌ ومَأْزِقٌ عليّ أن أُحسنَ التعاملَ معه حتى أتجنَّبَ الوقوعَ في المهالك. ونبَّهَني إلى التحَرُّزِ من زملائي في المهنة، والحسد الذي ينشأ بينهم. وبعد التحذير الذي ذكره لي الوزير، عمد إلى طمأنتي من جديد، ونصحني بأن أُخبره عن كلّ شيء، وأن أَطْرُقَ بابَه في كلّ مُلِمَّةٍ تَحْصُلُ. أدركتُ بدون كبيرِ عناءٍ أنّ الوزير يريدني أن أكونَ أحد

رجاله المخلصين، ولم يكن لديَّ مَانِعٌ في أن أُصبِحَ كذلك، فأنا محتاج إلى من يدعمني ويحميني مثل هؤلاء جميعًا. ولا شكّ أنّي سأتعرَّض لضربات ووشايات من قِبَلِهِمْ، فالأفضل أن أُحَصِّنَ دفاعاتي من البداية بهذا الركْنِ الشديد حتى آوي إليه متى نابني مكروه.

خلال تَجوُّلنا في الحديقة، كان يصلني توقيع عود في أنغام بدأت بنغم الأصبهان ثم انتقل العزف إلى الزيدان، ثم العشّاق، ثم الحجاز المشرقي والحجاز الكبير مع نبرات خفيّة من الزوركند والحصار. طربت لهذه الأنغام الجميلة في صباح هذه الجنّة، وهاجني البلغم، لأنّ هذه الأنغام والطبوع باردة رطبة، فاستأذنت الوزير وأخذت شربة ماء، ثم مسحت على وجهي من نافورة في الجنّة. فجأة لمحتُ فتاة باهرةَ الحُسْن على إحدى شُرُفَاتِ القَصر مع إحدى الوصيفات. لم تَفطَنِ الفتاةُ لوجودنا بِسبَب حُؤُولِ الأشجار بيننا، فكنتُ أَختلسُ النظر إليها. وفجأةً، دخلنا إلى أَحد المماشي المُحَصَّبَة، وكان لِخَشْفِ نِعَالِنَا على الحَصْباء تَصْوِيتٌ نبَّهَ الحسناءَ إلى مَصْدَرِ الصوت، فأسدَلَتْ خمارَها بسرعة، ودَلَفَتَ إلى مَخْدَعِها بعد أن لمحَتْ ابتسامَتي الماكرة لها لم أَصْرِفْ نَظري عن الشرْفَةِ لعَلَّ الحسناءَ تُطِلُّ علينا من جديد، لكنّها لم تَفعَل، ثم رأيتُ بريقَ حُلِيِّها خَلْفَ شُرْفَةٍ صغيرة بِمُشْرَبِيَّاتٍ، فأدركتُ أنّها كانت تراقِبُنا بحيثُ تَرانا ولا نَراها. حاولتُ أن أعتدلَ في مشيتي وأن أَصطنعَ رزانةً لجِهَتِهَا ثم سألتُ الوزير عن سكّان القصر، من غير أهل السلطان، فأخبرني بأنّ بعض كبار رجال الدولة ممّن يحتاجهم السلطان بشكل مستمرّ، يسكنون ضمن مُجَمَّع الحمراء. وذكر لي

أنّه يسكن في القصر ولم يُعيِّن لي مكان سكناه. نظر الوزير ناحية الشرفة مبتسمًا، وكأنّه كان يريد أن يخبرني بشيء ثم أحجم. أشرتُ بيدي نحو البناية التي أَطَلَّتْ منها الفتاةُ حتى أَجُرَّهُ للكلام عن صاحبها وقُطَّانها، وحتى ترى الفتاةُ التي كنتُ أتوقَّعُ أنّها تَرْصُدُ حركاتِنا، أنّي مُهْتَمٌّ بأمرها. أَظُنُّ أنّ الوزير لم يفطن إلى أسبابي الخفيّة من وراء استفساري، لأنّه لم يكن قد انتبهَ إلى الفتاة وصاحبتها لدى مرورنا في المَمْشَى المُحَصَّب. ولمّا رأيتُه قد أحجَمَ عن ذِكْرِ سُكَّانِ تلك البناية، سألتُ الوزير أسئلة أخرى حتى لا أُثير فُضولَه.

شعَر ابن الجيَّاب بالتَّعَبِ، فطلبَ أن نعودَ أدراجَنا، وفي طريقِ عودتِنا قال لي: يا ولدي، إنّي أعلمُ أنّ والدَكَ كان حريصًا على تزويجك قبل خروجِه إلى وَقْعَةِ طَرِيف، وإنّي أعلمُ أنّكَ شَابٌّ نَاضِجٌ، وأنّ مِثْلَ هذه الأمور قد خَالَجَتْكَ مِنْ قَبْلُ، لكن دعني أُخْبِرْكَ بأنّ هذا الأمر أصبحَ الآن ضروريًّا بعد عملِكَ داخلَ القصر.

لم أفهم مقصودَه مِنْ رَبْطِ زَواجي بعملي داخلَ القصر، فاستوضَحْتُ منه، فقال:

إنَّ مَنْ يَعملُ داخلَ هذا القصر لا بدّ أن يكونَ متزوّجًا حتى لا تمتدَّ أعيُنُهُ إلى المحظيّات التي تعيشُ داخلَ هذه الأسوار. فَكَمْ قَتِيلٍ ممَّن انتهكَ حُرماتِ غَيْرِه جَدَّلَتْهُ نِصَالُ الغَيْرَة؟ ولو أنّ أَسوارَ هذا القَصر تَنطِقُ لأَفْصَحَتْ عن المآسي التي تَفْطُرُ القُلُوبَ حُزْنًا، وتَرْدَعُ كُلَّ مُتَهَوِّرٍ مِنْ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ حِمَى هذه المَحَارِم. وأنت يا ولدي فَتًى في مُقْتَبَلِ العُمْرِ وغِرَّةِ الشَّبَابِ، ولا شكّ أنّ نظرَكَ

سَيُصادفُ يومًا مَا إحدى نساء قصر الحمراء، فَتَشْرَئِبُّ نفسُك إلى بُلوغِ مَطْمَحِهَا، ولستَ بقادرٍ على دَفْعِ الهوى ولا صَبَابَةِ الفُتُوَّة. وإنّي أخاف عليك من سوء العاقبة، فَاحْرِصْ على أن تتزوَّجَ وتُبَدِّدَ الشكوكَ والشبهاتِ مِنْ حولك. فإنّ هَا هُنَا عيونًا راصِدةً للحركات والسكنات، تَتَعَقَّبُ كُلَّ جَلِيلٍ وحَقِيرٍ لتنقله. وقد عَلِمْتُ أنّ السلطانَ يسعى في تزويجك، فبادِرْ لذلك.

ثم أضاف بشكل عَفْوي: وإذا كان بإمكاني أن أُساعِدَكَ في اختيار زوجة لك، فلا تتردَّدْ في طلب معونتي.

لمّا سمعتُ هذا التحذير الواضح، شَعرتُ بِفَزَعٍ شَدِيدٍ وَارْتَعَدَتْ جَوَارِحِي، وأَيْقَنْتُ أنّ الوزير ربّما يكون قد فَطِنَ إلى ما جرى قَبْلُ معَ الفَتاة، وأراد أن يُنَبِّهَنِي بِذَكَاءٍ قبلَ أن أَنْغَمِس في الوَحَل. لكنّ جَرَاءَتِي كانت تُحَدِّثُنِي بِلِقَاءِ الفتاة التي رأيتُ على الشرفة. شَكَرتُ الوزير وطَمْأَنْتُهُ لِجِهَتِي قائلاً: يا سيّدي، إنّ والدي رحمةُ الله عليه كان قد دبَّرَ أَمْرَ زواجي قبل سفره، لكنّ الحقَّ أعجَلَهُ بالشهادة، ثم إنّ السلطانَ كما تعلَمُ كان قد فاتحني في الموضوع، فَاسْتَمْهَلْتُ منه حتى يَلْتَئِمَ جُرْحُ أحزاني على والدي، فَأَنْظُرَ في أمر مَنْ أَرْتَضِيهَا زَوْجَةً لي. لكنّي لا أعلم من أمر السلطان شيئًا، ولعلّك ترغب في إعلامي بما اختار لي.

رَبَتَ الوزيرُ على كَتِفِي، وقال لي: يا بني، ذلك أَمْرٌ يَخُصُّ السلطان، وإنَّ من الأمانة أَنْ لا أُذيعَ ما طَواهُ عنك.

كُنَّا قد وَصَلْنَا إلى بِنايَةِ الوِزَارَة، فَاسْتَأْذَنْتُ منه.

طبع الهواء

خلال الأيّام التي تلت دخولي في ديوان الإنشاء، حاولتُ أن أقُومَ بعملي على الوجه الذي يُرضي رئيسي، ولزمتُ الخدمةَ بإخلاص وتَفَانٍ. كان السلطان قد بدأ بعض الأشغال في القصر في جهة باب الشريعة، الذي هو المدخل الرئيس للحمراء، حيث كان ينوي أن يبني عِقْدًا شاهقًا على الباب. كما كان ينوي توسعة الحمراء وإكمال بناء بَهْو القمريّة أو قمارش، والبرج الذي يعلوه. وقد أدّى العمل في هذه الإصلاحات إلى تغيير في الطريق الذي كنّا نسلكه عادة للدخول إلى القصر كنت أسكن في مُنْيَةٍ لها حديقة خارج الحمراء، لكنّها غير بعيدة عنها. وكان يعجبني التسَكُّع في أسواق المدينة وقَيْصَرِيَّتِها التي يمكن الوصول إليها من عشرة أبواب في المدينة. كنت أجلس مع بعض أصدقائي نتداول في شؤون الأدب والسياسة العامّة. وكان الوزير يعلم أنّي أرتاض هذه المجالس الأدبيّة ويشجّعني على استقصاء آخر الأخبار، فكنت أُحدِّثه بما جَدَّ في غرناطة من كتب وهيئات وألبسة وأطعمة ونكت وقصص.

وذات يوم، وعلى عادتي، كنت جالسًا إلى أحد أصدقائي التجّار في دكّانه، فدخلت علينا فتاتان تستران وجهيهما بخمارين، وتبدو عليهما علامات الغِنى واليَسار. أخذت الفتاتان في معاينة الأثواب التي كان يبيعها صاحبي. كنت جالسًا على دَكَّةٍ أُراقِب الفتاتين وأحتسي قهوة معطّرة بِقَاعِ قُلَّة أو حَبِّ الهَال كما يسمّى أحيانًا، وقرفة وأعشاب أخرى.

قام صاحبي التاجر ناحية الفتاتين وعرض عليهما خدمته بأدب. كنت أنتظر بشوقٍ سماعَ صوتِ إحداهنّ. ولم يُخَيِّبِ الدهْرُ ظُنُوني، إذ نطقَتْ إحداهُنَّ قائلة للتاجر: إنّ سيّدتي ترغب في شراء بعض الأثواب الحريريّة الخفيفة.

طربت لهذا التعريف الذي عيَّنَ لي السيّدة والوصيفة، فصرت متتبّعًا لما يجري في فضول شديد، ولمحتُ أنّ الفتاة التي ذكرت الوصيفة أنّها هي السيّدة، قد لاحظت وجودي، فَأَمعَنَتْ في التستّر بحيث لا أكاد أَتَبَيَّنُ من قَسَمَاتِ وجهها إلّا العيون. ثم أخرجني جواب صاحبي الذي بدأ يعرض ما عنده من نفائس على الفتاتين. كنت أتحيَّن الفرصة لكي أُقحِمَ نفسي في النقاش، فقلت لصاحبي: لعلّك تُري السيّدتين تلك البزَّة الحريريّة ذات اللون القُوَيْقِي السخْفَان (فاتح اللون)، فإنّي أرى أنّها تليق بمقام وجمال هذه السيّدة.

نظرت إليّ الفتاة فجأة، ولمحتُ عينَيها النجْلاوين فزادت جسارتي، وقمت إلى البزَّة أُريها للفتاة. تدخَّلَت الوصيفة قائلة: إنّ سيّدتي تريد لونَ قَلْبِ تُفَّاحة.

فقلت: ذوق سليم، فشتّان بين من يختار لون الخُرشُف القُوَيْقِي، وبين من يختار لون قلب التفّاح. إنّ ذوق سيّدتك أجمل وألطف.

وفي لحظة غير منتظرة، فاهت الفتاة قائلة: بل سآخذ الثوبين واللونين معًا

هنا وجدت الفرصة سانحة لكي أُغير إغارة جديدة، فقلت: سَلِمْتِ يا سيّدتي على هذه الرقَّة واللطافة والذوق الرفيع. ثم عمدتُ إلى الثوب وذَرَعْتُ أربعة أذرع للطول. وقام صاحبي إلى الثوب الآخر فذَرَعَهُ ذَرَاعَتِي نفسها ثم قصَّهما بمقصّ، ولفَّهُمَا لَفَّ مُحترِفٍ خبير.

فقالت الوصيفة: إنّنا لم نتَّفِقْ بَعْدُ على الثمن.

فقلت بمكر لناحية الفتاة: هذه الأثواب لا تليق في غرناطة كلّها إلّا بسيّدتك، وأنا مستعدّ لدفع ثمنهما لصاحبي التاجر خدمةً لسيّدتك اللطيفة.

فقالت الفتاة السيّدة: بورك فيك أيّها الشابّ الكريم، لكنّي سأدفع ثمنهما حالاً بدون سوْمٍ. ثم أخذت تَفُكُّ تَكَّتَهَا بين أثوابها فسقط طَرَفٌ من خمارها وكشفً عن صفحة كأنّها البدر ليلة التمام. راعني جمالها وهاجني نورُ إشراقتها، ونَصاعَةُ لونها وسِحْرُ عيونها وما هي إلى لحظة مقتطعة حتى عمدَتْ إلى خمارها فَسوَّتْهُ، فانحجب النور خلف الخمار مرّة أخرى، وتعلَّق القلبُ بهذه اللمحة البدريّة اليتيمة، فأيُّ سحر هذا الذي يَسْلُبُ من أوَّلِ نظرة؟

أخرجَتِ الفتاة القطع النقديّة المربّعة، وسألَتْ عن ثمن الأثواب فأجابها صاحبي. عدَّتِ الفتاة القطع المطلوبة فمددتُ يدي قبل صاحبي لعلّي ألامسُ هذا الجمال الآسر. تَرَدَّدَتِ الفتاةُ أَوَّلَ الأَمْرِ ثم وَضَعَتْ قِطْعَتَيْنِ في كَفِّي، وانْسَلَّتْ أصابعي في حركة كأنّها حركةُ المغناطيس فلامَسَتِ الأصابع البَضَّة، وأَحْسَسْتُ بِقُشَعْرِيرَةٍ سَمِعْتُ ارْتِجَاعَ دَبِيبِهَا في كِياني كلِّه. وفي هذه اللحظات البرقيّة، أرسلَ جاسوسُ القلب بَريدَ تَوَلّهِه في غفلة الرُّقباء، وارتفع وجيبُ قلب الفتاة من خلف ثوبها فأدركتُ أنَّ ما كان مِنِّي كان منها، وأنّ ما أوقعني أوقَعَهَا. وَلَمَحْتُ خَلْفَ شَفَافَةِ الخِمَارِ الحَاجِبِ، الصَبَابَةَ رَشَحَتْ دُرًّا وَلُجَيْنًا على حاجِبِهَا المعرَّق، فأسرَعَتْ في الخروج من الدكّان بعد أن وَدَّعَتْ بِطَرفِ بَنَانِهَا المخضوب، ولَحِقَتْ بها الوصيفَةُ تَحْمِلُ الثوبين. خِلْتُ بعد انسلال نور الفتاة إلى الخارج أنّنا أمسينا بليل غَاسِق مع أنّ الوقتَ نهارٌ، وتعلَّقَ القلبُ وزاد الشوقُ. وبينما كنت غارقًا في استحضار تلك الإشراقات المُختلَسة، خاطبني صاحبي قائلاً: ما الذي دهاك يا ابن الخطيب؟

فقلت: دهاني الذي أودى بالعُشَّاق إلى مَصَارِعِهَا

فقال لي: عجبًا لك يا ابن الخطيب، ترى فتاة لأوّل مرّة فَتَذْبُلُ إلى هذا الحَدّ.

فأجبته: قلتَ صوابًا يا صاحبي، وما الصبابةُ إلّا غصنٌ من شجرة المحبّة التي زرعها الله في أرض النفوس.

فقال الصاحب بمكر: هلا تَبِعْتَ الفتاة حتى تعرفَ محلّ سكناها. ولكن أعطني القطعتين أوّلاً

التفَتُّ إليه وكأنّ بي صَمَمًا لم أَفْطَنْ له حتى لحظة تنبيهي. ضَنِنْتُ بالقطعتين على الصاحب، ففيهما من أثر المحبوب، وشَذَا طيبِ راحته ما يجعلني أَشتَمُّ أريجَهُمَا العَبِقَ من وراء طبيعتهما المعدنيّة. أخرجتُ قطعتين مماثلتين من جيبي ونَقَدْتُ الصاحبَ بهما، ثم خرجت لا أَلْوِي على شيء. عَدِمْتُ التدبير وَاستولى عليَّ التركِيبُ المعلوم، واختلَطَتْ طِباعي الذاتيّة، فأين الأَثْلاَثُ المعلومة، أين ضَبِّيَّتِي وعَقْرَبِيَّتِي ونَسْرِيَّتِي؟ لقد نَفَقَتْ دَوَابِّي كلُّها، وَهِمْتُ في السوق لا أهتمّ بالمارّة ولا بمن يُسلِّم عليّ ممّن أعرفه، فقد لبستني غيبوبة طارئة، وأدركتُ أنّي دخلت لولبًا زمنيًّا عَبْرَ بَابِ الخَيَال. كان دكّان صاحبي في البيّازين، وأتذكّر أنّي تبعت الفتاتين فمررنا قرب الجامع ودخلت إثرهما من باب البنود، ثم تسلَّلتا حتى وصلتا إلى باب التوّابين قرب القصبة القديمة، ولمحت أنّهما خَفَّتَا بسرعة من باب الدقاق. أسرعت في أثرهما، فعبرتُ قنطرة القابض على نهر هدَّارة. التفَتُّ يمينًا ويسارًا حتى أجدَ طَيْفَ الفتاتين اللتين كانتا قد انعطفتا في زقاق من أزقَّة رَبَض القاضي، فسرتُ نحو تلك الناحية، ومشيتُ تحملني الريح، فعبرتُ ربض المنصور، يقودني شذا فتاتي العالق بقطعها النقديّة التي كانت بحوزتي. وما إن أدركت ربض المنصور حتى كانتا قد اختفتا خلف باب الخندق. أسرعت في مشيتي تحملني ريح المحبّة حتى دخلتُ من الباب المذكور. وهنا أُسْقِطَ في يدي، فأمامي السبِيكَة، وعن شمالي جنَّة مَدْيَن، وإلى يَساري حَيُّ اليَهود. وهنا انتابني شعور قويّ بأنّ الفتاة من بنات العبرانيّين، وكدتُ أَدْخُلُ الحارَةَ اليهوديّة لولا أنّي رأيتُ فجأةً طَيْفَ الفتاة يَلُوح على أطراف جنّة مدين باتّجاه السبيكة.

أعياني المشي في الأزقّة، فأخذتُ أنفاسي لاقترابي من قصر الحمراء. ولمحتُ كأنّ الفتاةَ ووصيفتَها دخلتا القصر من باب الشريعة، ثم غابتا عنّي. لكنّي لم أَكُنْ مُتَأَكِّدًا مِنْ ظَنِّي لأنَّ غَيْمَ سُكْرِي حَجَبَ صَحْوَ عَقْلِي.

* * *

عدتُ لعملي في ديوان الإنشاء، وكلَّفني الوزير ابن الجيّاب ببعض المهمّات، لكنّي تقاعستُ عن إنجازها، فاستفهمني الوزير عن سرّ هذا الفُتُور العَارِض غير المعتاد، واستفهمني عن علّة حزني وسوداويّتي الطارئة، فلم أُطْلِعْهُ على جَلِيَّةِ الأمر من انشغال الفكر بحبَّة القَلْبِ التي نَبَتَتْ حتى اسْتَوَتْ رَوْضَةً في الفؤاد، واجْتَنَّتْ عن العِيَان. لكنّ الوزير بعطفه المعتاد عليَّ أذابَ جَلِيدَ تَمَنُّعِي في مُفَاتَحَتِهِ بِمَكْنُونِ سِرِّي، فأخبرتُه بتعلُّقي المباغِت بالفتاة. ابتسم الوزير لي، وَرَبَتَ على كتفي وهنَّأني قائلاً: أخيرًا، قرَّرْتَ يا ابن الخطيب أن تَتَأَهَّلَ لما يَتَأَهَّلُ له الرّجال، فهنيئًا لك. إنّ الحبّ يسبّب عدّة أمراض للقلوب والأبدان، وله أحوال كثيرة كالشوق والغَرام والهُيام والكَلَف والبكاء والحزن والكَبَد والذبُول والانكسار.

فقلت له بلسان الذائق المجرِّب: نعم يا سيّدي، فبي ما بي من الزفرات التي يضيق قلبي عن احتوائها، فأطردها عن ذاتي، ولو أرسلت منها على أعظم شجرة في هذه الجنّة لاحترقت. وبي ما بي من النحول والذبول في كثافتي ولطافتي. وبي من هواها كَمَدٌ فَاتِكٌ، استهلكني في المحبوب. أمّا الشوق إليها، فحركة الروح

تهفو إليها، ثم ينتابني نظيره من الاشتياق.

وأبكي إن نَأَوْا شَوْقًا إليهمُ   وأبكي إن دَنَوْا خَوْفَ الفِرَاقِ

فأنا ما بين شوق واشتياق، فالشوق يستحثّني على لقاء المحبوب، والاشتياق يطلب استدامة الوصال، والحال أنّي لا أنعم بالوصال إلّا في عالم الروح، فأتخيّل جلوسي معها، ولقائي بها، وأسرح في عوالم السرور، وأتمنّى أن لا أستيقظ من سعادة تلك اللطائف.

فقال الوزير، بعد أن نظر إليّ نظرة عطف وحنان: يا ولدي، أنت محبّ صادق، لكنّي أخشى عليك من الوَلَهِ، والبَهْتِ والدهَشِ والحيرة والخَرَسِ والسقَام والقلق والخُمُود والتبْرِيحِ والوَجْد. فلئن بقيت على حالك أصابك ما أصاب الصادقين من المحبّين، والمصروعين من العشّاق. ولعلّ حِمْيَتَكَ من هذه الأحوال أن تداوى بالموسيقى. وتعالج بالطبوع التي تضادّ طبع السوداء، وهي طبوع هوائيّة حارّة رطبة، تجلب السرور، وزمانها الربيع مثل الماية ورمل الماية وانقلاب إلرمل والحسين والرصد، حتى تنسى هذه الفتاة التي وَلِعْتَ بها، وتتركَ الوقتَ يفعلُ في قلبِك فِعْلَهُ.

لكنّي أجبتُه قائلاً: جزاك الله خيرًا يا سيّدي، لكنّي لا أعلمُ شيئًا عن هذه الفتاة، ولا أعرفُ اسمَها ولا سكناها، وإنّما التَقَيْتُ بها في دُكَّانِ صديقي الذي تَعْرِفُه، وذَرَعَتْ بي غرناطةَ طولاً وعرضًا حتى تزيد من تَوَهَانِي، ولا أَقِفَ على محلِّ سكناها. وقد هام بها قلبي من أوّل نظرة، وملكَتْ عليَّ فؤادي، فلا أَبرحُ أُفَكِّرُ فيها ليلَ نهار حتى علاني هذا السقْمُ الظاهر وانتابني هذا الفُتور العجيب،

وانصبَغَ وجهي بالذبول والاحتراق من السوداويّة التي سكنَتْ قلبي.

فقال الوزير: عجبًا لأمرِك يا ولدي، فأنت من أصفياء المحبّين وأشرافهم الذين يعشقون من أوّل نظرة ومُسْتَهَلٍّ لقاء.

ثم أضاف: أليس لديك دليل أو علامة عن الفتاة تخبرني بها؟

فقلت: لقد تبعتُها في أحياء غرناطة بعد أن اشترَتْ ثوبين أحدهما بلون قلب التفّاح، والثاني بلون قُوَيْقِي فاتح، وأظنّ أنّها دخلَت الحمراء، لكنّي غير متأكّد من هذا الأمر وقد طَوَّحَتْ بي في غرناطة كلّها لأنّها كانت تعلَمُ أنّي كنتُ أَتَتَبَّعُها

فقال الوزير هذه أدلّة جيّدة قد تقودنا إلى الفتاة، وسأستعلم عن كلّ طَلَبِيَّةِ خِياطة تَصْدُرُ مِنَ الحَمْرَاء.

انفرجتْ أساريري، ولاحت لي بارقة أمل بعد أن نَفَّسْتُ عن مكنون قلبي، وأشركتُ الوزير في أسراري، واستبشرت خيرًا بهذا المقترح الوجيه. شكرت أبا الحسن ابن الجيّاب، لكن عاودني التركيب من باب الشكّ، فسألتُ الوزير قائلاً: لكن، ماذا عسايَ أفعلُ إذا كان السلطان قد اختار لي فتاةً أخرى للزواج؟

فأجاب الوزير دَعْ هذه المهمّة لي، فأنا أَقْدِرُ على إقناع السلطان. والأهمُّ الآنَ هو العثورُ على الفتاة والتأكُّد من أنّها غير متزوّجة.

أُسْقِطَ في يدي لأنّي لم أُفَكِّرْ في هذا الأمر من قبل، لكنّ الوزير لاحظ ارتباكي فطمأنني قائلاً: لا تقلَقْ، ففتاتُك غير متزوّجة، وإلّا لما خرجَتْ تَتَبَضَّعُ في السوق.

استغربتُ من يقين الوزير لعلمي بما كانت عليه نساء الأندلس من الحرّيّة، متزوّجات كُنَّ أو عازبات، لكنّي اقتنعتُ بقوله لما يجلبه لي من الراحة النفسيّة التي كنت في حاجة إليها. طلب منّي الوزير أن آخذَ إجازة لبضعة أيّام للراحة حتى يستدعيني.

خرجتُ من عنده مُهَنَّأَ البال، لكنّي ما بَرِحْتُ أُفَكِّرُ في الفتاة وكيفيّة اللقاء بها مجدَّدًا قبل أن تَضِيعَ منّي ويتزَوَّجَهَا غيري، هذا على احتمال أنّها غيرُ متزوِّجَة أصلاً

لزمتُ خلالَ أيَّام عُطلتي بيتي أَنْظِمُ الشعْرَ إطفاءً لغُلَّة الشوق، ثم أَخْرُجُ في العشيّ أجلس إلى صاحبي البَزَّاز، لعلَّ الظَّبْيَ النَّافِرَ يَمُرُّ بِالكِنَاسِ مُجَدَّدًا وكنت طلبت من أحد الموسيقيّين أن يأتي إلى الدكّان ليغنّي من أشعار وتواشيح العَشَايَا في طبوع الماية الجالِبة للسرور، المذهِبَة للحُزن والسوداويّة.

اشتَريتُ قِطعتين صَغيرتين من قُمَاشِ الفَتاة نفسه، صَنَعْتُ منهُمَا مِنْدِيلَيْنِ مُطَرَّزَيْنِ باسمي، أَتعلَّلُ بهما مِنْ بُعْدِ مَنْ أَهْوَى، عَلَّ وعسى أن يَسْتَحِثَّ الشوقُ، ومُلازمَةُ ذِكْرِ مَنْ أَهْوَى، وَشَمُّ أَنْفَاسِ أَثْوَابِهِ من نَقْلِ تَعِلاَّتِ رُوحِي إِليهِ، فَيَبْرُزَ إِلَيَّ مَرَّةً أُخْرَى.

مَضَتِ الأَيَّامُ كأنّها الدُّهور، وطلبني الوَزِيرُ لأمر مُهِمٍّ. دَخَلْتُ عليه فقام إليَّ مبتسمًا وأجلسني بجانبه، ثم دعا بعصائر وحلويات وفواكه جافّة. وبعد أن قَضَمْتُ منها واحتَسَيْتُ، التفَتَ إليّ أبو الحسن قائلاً: لقد اجتمع بي السلطان مؤخّرًا وسألني عنك فذكرتُ له ما أعلمُ منك سوى ما كان من أمورك الخاصّة. وقد حدّثني في أمر زواجك وطلب منّي أن آخُذكَ إليه في جنَّة العريف حيث

يستَجِمّ. ارتبكتُ من هذا الخبر إذ لم يكن بيدي أن أرفض اختيارات السلطان. وكنت قد سوَّفْتُهُ سابقًا لمّا استشهد والدي. ولا أظنّ أنّي سأملك الشجاعة لأرفضَ مجدّدًا لكن بقي أن أعتمد على الوزير في دفع ما أكره، وجَلْبِ ما أَرْغَب. حدَّثْتُ أبا الحسن بتخوُّفاتي، فقال: يا ولدي، لقد وعدتُ بأن أتوسَّطَ لك عند السلطان، لكنّي لحدِّ الآن لم أقف على هُويَّة صاحبَتِك التي سلبَتْكَ العقلَ والروح. وهَبْ أنّ السلطان يوافق على تزويجك مِمَّن ارتضَيْتَ، فأين هي؟

مكتبة الرمحي أحمد ٨٩

وضعتُ يدي على جبيني حائرًا مُتهمِّمًا، إلى أن طلب منّي أبو الحسن أن نذهبَ لزيارة السلطان في قصر جنّة العريف شمال شرقي قصر الحمراء. قمت معه وقطعنا الحمراء بين القصور والحدائق الغنّاء. ومررنا قرب برج الأميرات، وجزنا الأسوار فمشينا إلى باب الجنّة قرب برج الماء، فإذا بنا في جنَّة لا نظير لها في الحسن والدمَانَة، وكثرة النباتات والأزهار والرياحين، وطِيبِ التربة، ووفرة المياه، والتِفَافِ الأشجار، واستجادة أجناسها، وشَدْوِ الطيور المختلفة. سحرني هذا الجمال الآسر، وَوَدِدْتُ لو أنّ السلطان أَرْجَأَ أمر دعوتي إلى حين. وصلنا القصر، وأبو الحسن يداعبني ويُسَرِّي عنّي، ويحكي لي عن غرائب الجنّة، وبدائع جلب الماء إليها عبر السواقي، حتى وصلنا إلى القصر. تقدّمنا في دهاليزه وقطعنا البهو الأوسط حتى وصلنا إلى المنظَرَة حيث كان يقف السلطان في إحدى الشرفات البيضاء يعاين الجمال المحيط، بعيدًا عن صخب المدينة ومشاغل السياسة ومكائد الحكم. دخلنا عليه فابتسم لنا، وباسطنا كان السلطان

يقرُبُني سنًّا. أزهر اللون، أنجلَ العينين، برَّاقَ الثنايا، قويًّا، حَاسِرِ الرأس، رَجِلَ الشعَرِ أسودَهُ، كثَّ اللحية وسيمًا. كان يلبسُ لباسًا فاخرًا، ويمتَشِقُ سيفًا دقيقًا. تكلَّم كلامًا عذبًا فمَلَكَ قلبي إليه. تعلوه هيبة ملوكيّة، ونفحة أميريّة. وبعد أن حدَّثنا عن غرناطة من أعلى المنظرة، وأشار إلى مختلف أحياء المدينة، كأنّه يلعب لعبة قائدٍ حربي، ضَليعٍ بالأمكنة، سألني أن أُعَيِّنَ له مكانَ سُكناي ليختبرني. تردَّدْتُ بعض الوقت قبل أن أُشير إلى جهة ربض القاضي على نهر هدَّارة، مستعينًا في ذلك بصومعة جامع التوّابين، من الجهة الأخرى للنهر داخل المدينة. هنَّأني السلطان وقال: هكذا ينبغي أن يكون عليه أهل الخدمة الملوكيّة من الأمراء والوزراء والقوّاد، فمثل هذه المعارف ضروريّة لأصحاب السيوف والأقلام.

أَوْمَأْتُ برأسي مؤيّدًا لكلامه، لكنّه سرعان ما حوَّلَ وِجهَةَ الكلام للاستفسار عن أحوالي وعملي في القصر، فأجبتُه باقتضاب، شاكرًا له حسن تَهَمُّمِهِ بأحوال مَخْدوميه، وذاكرًا نِعَمَهُ وأفضالَه عليّ. وبعد أن اطمأنَّ من هذه الناحية، اقتَحَمَ ما كنتُ أحاذِرُ منه، فقال لي: لقد مضى على وفاة والدك ما يقرب من سنة، وانتهت فترة الحزن، وقد وفَّقني الله في اختيار فتاة ذات حسب ونسب تصلح لأن تتزوّج بها.

نظرتُ جهة أبي الحسن ليجيبَ عنّي، لكنّه أشار إليَّ أنْ أتكلَّمَ، فقلت: شكرًا لك يا مولاي على اهتمامك بي، وأنا رهنُ إشارَتِك، وطوعُ أمرِك.

فقال السلطان: لقد وقع اختيارنا أن تتزوّجَ كريمةَ وزيرِنا أبي الحسن ابن الجيّاب.

تلقَّيتُ الخبر كأنّه قَصْفُ رَعْدٍ، لكنّي لم أكن الوحيد الذي تلقّاه على تلك الصفة، بل لمحتُ الوزير، في خِضَمِّ سُقوط هذا النبأ، قد ارتَجَّ كِيانُه، وخطا خطوةً حتى لا يسقط. زادت حيرتي حيثُ كنتُ أُعَوِّلُ على أبي الحسن كي يثني السلطانَ عن اختيار حَليلتي، ويقنعه بالموافقة على من وافق قلبي هواها، فإذا به يفاجئني بانهداد هذا المعتَصَم الذي أويتُ إليه. وهنا أَدركتُ أن لا مناص من الرضوخ لأمر السلطان. كما أدركتُ أنّ كُلَّ محاولة من الوزير للتعَلُّل والتسويف سوف تقابل بالرفض والشكِّ في النوايا وأخيرًا قرَّرتُ أن أتكلَّمَ فقلتُ: إنّ أفضالَ مولاي عليّ كثيرة وعديدة، بحيث اختار لي ابنةَ أخلصِ رجاله وأقربِهِم إليه، وإنّي أُعبِّرُ عن سعادتي واغتباطي بما وقع عليه نَظَرُ مولاي، لكنّي أَستأذنُ من شيخي الوزير الرئيس الأديب أبي الحسن بن الجيّاب في طلب موافقته على إمضاء هذه المصاهرة.

كنت أقول هذا الكلام، وأنا أعلم شدّة الإحراج الذي كنت فيه، والذي كان عليه الوزير بالمقدار نفسه، لكنّنا لم نكن نملك أن نُغيِّرَ الوقائع. والحالُ أنَّ مَنْ عَلِقَ حبّي بها صارت كالكبريت الأحمر الذي لا يُعْرَفُ له مكان، ولا يُظْفَرُ بها في هذا الزمان. وأخيرًا قرَّر الوزير أن يتكلَّم فقال: الفضلُ كلُّه لمولاي، وما أمضاه نمضيه بإذن الله، فإرادتُنا لِأَزِمَّةِ إرادتِه تابعة. ولستُ أجد في الشباب نِدًّا أصلحُ لكريمتي من ولدي وتلميذي ابن الخطيب.

ولكن، ليعذرني مولاي، فإنّي أعلم من أمر ابن الخطيب ما يجعلني أُحْجِمُ عن القَبول بتزويج ابنتي منه.

تعجَّبَ السلطان من قول الوزير واستفسر منه: وماذا تعلم منه ممّا لا نعلَمُه نحنُ، يا أبا الحسن؟

فقال الوزير: أعلم يا مولاي أنّ قلبَ ابن الخطيب معلَّقٌ بغير ابنتي، فكيف أَقْبَلُ أن أُزَوِّجَهُ بها وهو يَرُومُ غيرَها؟

فتوجَّه إليَّ السلطان: هل هذا صحيح يا ابن الخطيب؟

فقلت: أخشى، يا مولاي، أن يكون الأمر كما ذكر سيّدي الوزير.

فَكَّرَ السلطان قليلاً وقال: إنّها نزوة عابرة يا أبا الحسن، وكلُّنا نهوى الصَّبَايا، لكنّنا لا نتزوّج إلّا من النساء الحرائر. وأنا أحتاج أن أُقَرِّبَ بين هاتين الأُسرتين، فأمرُ المملكة يحتاج إلى تمتين الأواصر بين رجالات الدولة في هذا الزمن.

فقال الوزير فلتعذرني يا مولاي، لكنّي أشترطُ على ولدنا ابن الخطيب أن لا يتزوَّج على ابنتي، وأن تبقى العِصْمَةُ بيدها

رأيت من واجبي أن أرحمَ الوزير في الذي يعلم منّي، لكنّي كنتُ أعلمُ أيضًا مدى وفائي له: فقلت: وأنا أَقبلُ بهذا الشرط يا مولاي، فليس لمثلي أن يَرْغَبَ عن مُصاهرة أبي الحسن وتَزوُّج ابنته التي اختارها لي مولاي.

استبشر السلطان، والتَزَمْتُ بصداق كبير، ثم قرأنا الفاتحة. أَنْفَذَ أبو الحجّاج أوامرَه للوزير بالاستعداد للزواج بعد شهر بعد أن

تكفَّل بما يلزم، ثم صَرفَنا.

خرجتُ أُمسِكُ بذراع الوزير الذي دخل في صَمت مَهيب، حتى خرجنا من القصر. فلمّا كُنَّا في مَمَاشي جَنَّةِ العَريف، قال لي: يا ولدي، لقد وعَدتُكَ بأمر لم أَقْدِرْ على الوَفَاءِ به، وأنا أَعْلَمُ أنّي أُسَلِّمُكَ فِلْذَةَ كبدي، وأَنْتَ بِحُبِّ غَيرِها مَسْبِيّ، فكيفَ أَصنعُ، وأَمْرُ السلطان لا يُخالَف؟

فقلتُ مُسَرِّيًا عنه: ٱدْعُ الله لي أن يَرزقني حُسْنَ الأدب معك، والقيام بواجِبِ مَشْيَخَتِكَ عليَّ، بِحُبِّ بنتك كما أَحببتُ طيفَ تلك الفتاة.

فقال الوزير: لقد وَقَعْنَا في ورطة يا بنيّ، فأنا صهرُك اليومَ أعلم من حال قلبك ما أعلم، فكيف أصنع؟ والحال أنّ قلبَك بتلك الفتاة مُعَلَّق، ورغبتي في إنفاذ أمر السلطان لا تقبلُ التخَلُّف، كما أنّي لو خُيِّرْتُ في تزويج ابنتي لاخترتك لِمَا أَعلمُ عنكَ مِنْ حُسْنِ السيرة وصَفاء السريرة، وطِيبِ المَحْتِدِ والأَصل، وفي هذه الساعة لا أَمْلِكُ إلّا أن أَدْعُو الله كما تقول، أن يُعَوِّضَكَ عن محبوبتك بحبّ ابنتي حُبًّا مُمَاثِلاً مُضاهِيًا وأرجو أن تتذكَّر أنّي مشفق على ابنتي ممّا هي مُقبلة عليه، فلا تُفَرِّطْ بهذه الجوهرة يا ابن الخطيب، فهي أمانة عندك.

أحسست بتأنيب الضمير من هذا الوالد الذي يرغب في تزويجي من بنته، لكنّه يعلم من حالي ما يعلم، فكيف يأتمنني على فلذة كبده؟ هنا فارقني التركيب، وغالبني الوفاء لشيخي وأستاذي، فأحسست أنّ نسريّتي تعالت في فضاء المكارم، ولم تترك مجالاً

لعرقبيّتي أو ضبّيّتي. لم أعد أشعر بالخِسَّة أو الجبن، بل ملأ أُفْقَ فكري وكياني شعورٌ هادِرٌ بالوفاء والإخلاص إلى مَنْ رَعاني وأحبَّني، فَهَلاَّ كان من رَدِّ الجميل أن أُوَطِّنَ قلبي على حُبِّ هذه البُنَيَّة؟ وكيف العمل، والقلبُ مثل بَيْتِ الإبرة، يعملُ في استقلال عن حِكمة العقل والضمير؟

خرجنا من الجنّة ووصلنا إلى الحمراء عبر برج الأسيرة، ولاحظت وكأنّ الوزير شعر بما يوحي به هذا الاسم في حقِّ ابنته التي ربّما ستصبح أسيرة عند تلميذه ابن الخطيب، فقلت له: يا سيّدي إنّي أعاهدك أمام الله أن أَبَرَّ بابنتك كما ينبغي لزَوجٍ مع زوجته، وأنّها ستعيش في كَنَفي حُرَّةً كريمة. وأسأل الله أن يدفعَ عنّي حُبَّ تلك الفتاة وأن يُخْرِجَهُ من قلبي إلى الأبد.

شكرني الوزير الأديب، ثم قال لي: أنا يا ولدي لا أُعَوِّلُ على وُعودِك لأنّي أعلمُ من حال القلوب ما أعلم، لكنّي أطمعُ في فعل الزمن، وتَعَاوُرِ البِلَى بمكنونات القلوب. وما أطلبُه منك هو أن لا تُحاول البحثَ عن فتاتك حتى لا تُجدِّدَ بالقلب جُروحَ الهوى، ويتفرَّغَ الحَيِّزُ لمحبّة ابنتي.

وهنا لاح لي أن أسأل الوزير عن اسم ابنته حتى أجعلَ من هذا الاسم بَذْرَةً لِحُبٍّ جديد، فأجابني أبو الحسن بأنّ اسمها أمل. وأضاف قائلاً لي: احتفظ يا ولدي بالصَّدَاقِ الكبير الذي وعدتَ به، واصْرِفْهُ على أهل بيتك، فأنت في أوّل الشباب، ولم يبق من مال أبيك إلّا قليل انتهبَهُ الوَرثَةُ. فاصرِفْ مَالَ صداقك على بيتك وزوجتك.

شكرتُ الوزير على عنايته بي، ثم تَفَكَّرْتُ في اسم ابنته أمل، وعَقَدْتُ الأَمَلَ على أن لا أَمَلَّهَا وأَمْلأَ قلبي بحبّها.

* * *

مرَّ الشهر وحان يوم الزفاف الذي عُقِدَ في الحمراء، ودُعِيَ القوم من أكابر رجالات الدولة، وأَحمَضْنَا بِمَاتِعِ الألحان، وقُدِّمَتْ صُنوفُ الطعام المُلُوكِيّ على الموائد والأَخْوِنَةِ، فلا تَسأَلْ عن أنواع اللحوم والأخباز والثرائِد والكَساكِس والأَحْساء والفواكه والمُحَلَّيَات. فهذه أَطباقٌ من لحوم الضأن بالبَرانيّة (الباذنجان) والمروزيّة (طبق محلّى بِذَرِيرِ اللوز والعسل) والتفايا، والغسَّانيّة، ورأس ميمون (لون يصنع من خواصر وعيون دَوَّارَة الكبش السمين). وأطباق لحوم الخرفان من البَدِيعي الذي يُصنع من قطع صغيرة من الصدر والأجناب والذَّنَب، مع كزبرة وفلفل وملح وزيت وبصل ثم يطبخ ويوضع عليه جبن طري وبيض ثم يسقى ويصبغ اللحم بفلفل وزنجبيل وقرفة وزعفران. وبعد أن ينضج يوضع في طاجن مزجّج فرشت أرضيّته بزيت وجبن، وينثر عليه من اللوز المقشور، ثم يوضع مرّة أخرى في الفرن حتى ينضج ويحمرّ ثم يؤكل. وكان هذا من أَحَبِّ الأطباق إليّ. وهناك المُعَلَّكُ، ويصنع من خروف رضيع كامل من غير رأس ولا أحشاء، فيوضع في إناء من فخّار ويُرَشُّ بملح حتى يَنْضَجَ ويَخْرُج ماؤه، ثم يضاف إلى اللحم قِطَعٌ من الجبن في القِدْر حتى يلتئمَ دُهْنُ الخروف بِدُهْنِ الجبن. وبعد أن يَحْمَرَّ ويَنْضَجَ يُذَرُّ عليه قِرْفَةٌ وفُلفل ويؤكل بالهناءة والعافية. وقُدِّمَتْ ألوان أخرى من لحوم الطيور كالإوزّ والدجاج والحَجَل وفِراخ الحَمام واليَمام والزرَازِير، من بينها طبق يسمّى

اللوزيّة والمَغْمُوم، وهو من المحشوّ بالأَرُزّ واللِّيم مع نُثَارَة أفاويه وبهارات. والراهبي والمحشوّ. وصُفَّتْ أطباق الحيتان المختلفة من الجرافة والبُوري والمروج. وأطباق أخرى من البقول. أمّا العصائر والسوائل فَحَدِّثْ ولا حرج، وكذلك الألبان والرايب والأجبان. وفي صنف المعسّلات، قُدِّمَتْ للحاضرين أطباقُ المعسّل، والغَسَّاني، وهو من أنواع المعسّل المصنوع من العسل الأبيض مع الجلجلان واللوز المقشور. أمّا الحلواء، فمنها كعب الغزال، والبيضاء الرطبة، والجلجلانيّة البيضاء والغَبِيطُ المَجْبُود، ويُحَضَّرُ بتصفية العسل وإنضاجه على نار خفيفة حتى يَنعقِد ثم يُصَبُّ على رُخامة ويُسَمَّرُ على مسمار على الجدار ثم يُجَبَّدُ ويُثْنَى. ويستمرّ التجبيد حتى يبيضَّ، ثم يُوضَعُ منه كَعْكٌ. وحلواء الخَبيص ومَعقود السكّر، والرخَاميّة، وهي سكّر أبيض يُنْضَجُ على نار ليّنة، ويُضافُ إليه لوز مدقوق كالسميد، ويُحَلُّ الكلُّ بماءِ وَرْدٍ وكافور وسنبل وقَرنفل، ثم يُمَدُّ على رُخامة مَدهونة ويُغَطَّى بلوح أملس حتى يَصير مثل رغيف، ثم يُقْطَعُ في شكل أقلام رقيقة. ومَعقود العسل، والقَصب الحُلو والفَانيد. وإضافة إلى كلّ هذه الطيِّبات، صُفَّتِ الأطباق المختلفة من الفواكه المتنوّعة من التفّاح والتين والعنب والبرتقال والتمر وغيرها

كان الناس يَنعمون بهذه المآكل الملوكيّة التي لا يصنعها إلّا السلاطين والأمراء والأكابر، ثم يَطربون لتوقيعات الموسيقيّين بآلاتهم المتنوّعة، من عيدانٍ ورَباباتٍ ودُفوفٍ وشَبَّابَاتٍ ومزامير ويَرَاعَاتٍ وغيرها كان الحفل بهيجًا، والكلّ إمّا قاعد يتنعَّمُ، وإمّا خَاطِرٌ يَتَنَسَّمُ بين بِرَكِ الماء. أمّا الطِّيبُ، فهذا ماء الورد وماء الزهر

والعود والصَّندل والعنبر والمِسك والخُزامى، فترى الغلمان والجواري حاملين مِرَشَّاتٍ فضّيّة أو مُعالِجين للمَباخر العظيمة المشبَّكة كلّما خَبَتْ سَحائب العُود، أو مُتَمَنْطِقِينَ بأَحْقَاقٍ أريجيّة يُوَزِّعُونَ منها هذه الأطايب للحاضرين. وعَلَتْ مرّة أخرى سَحائبُ العود لِيُضَمِّخ المكانَ بعد ارتفاع آلات الأكل وحضور المادحين والمسمِّعِينَ الذين أبهجوا وأطربوا بماتع الألحان في نغمة العود والناي الرخيم حين تآلَفَا على أَنْغَامٍ من الهزج. وبدا وكأنّ غرناطة قد طردَتِ الحزنَ هذه الليلة، ونسيتِ الغربةَ النفسيّةَ التي يعيشها أهلُها بمجاورتهم لممالك الروم والإفرنج. وكنت أقول لنفسي ها قد أصاب أهل غرناطة بعضُ ما بِكَ من أَرَقٍ يا ابن الخطيب، لا نومَ في غرناطة هذه الليلة. ولم يَبْقَ من أهلِها أَحَدٌ إلّا ونالَه من بِرِّ السلطانِ وكَرَمِه. دام الفَرحُ إلى ساعةٍ مُتَأَخِّرَةٍ من الليل، فلمّا سَرَى الخَدَرُ إلى الأبدان، وانحلَّتِ الجُسومُ تَطْلُبُ الوَسَنَ في ظلمة الهَزِيعِ، انقَلَبَ الناسُ إلى بيوتاتهم.

كنتُ طَوالَ الليلةِ جالسًا مع الضُّيُوف أو مُمَاشيًا للسلطان والوزير في مَمَاشي القصر، حتى إذا أَزِفَ الدخولُ بالعَروس، استَأْذَنْتُ السلطانَ وخرجتُ بها مِنَ الحَمْراء راكبًا على فرس أصيل، ورَكِبَتْ بدورها داخل هَوْدَجٍ، في مَوكبٍ تَصْدَحُ فيه الطبول والآلاتُ الموسيقيّة وزَغْرَدَاتُ النسَاءِ وتَهَالِيلُ الرجَالِ حتى وَصَلْنَا إلى المُنْيَة التي أَقْطُنُ بها في رَبَضِ القاضي، غير بعيد من قصبة الحمراء، وعلى مَرْمَى حَجَرٍ من بُرْجِ الحراسة بها. ترجَّلْتُ عن فرسي، ونزلَتْ حليلتي ودخلنا المنية. أَوْدَعَتِ الوَصيفاتُ العَروس خِدْرَهَا. انتظرتُ حتى كفَّ الكَلامُ وانفَضَّ الموكب، وخلا الأمرُ

لكي أُفْضِي إلى أمل. صَعِدْتُ إلى الدوْرِ العُلوي ودخلتُ غرفتَها التي كانت تحت ضوء خافت، إلى درجة جعلتني لا أُميِّزُ بوضوح تَفاصِيلَ الأشياء. أَمَرْتُ الوصيفتين بالخروج. كانت أمل جالسةً على طَرَفِ سريرِها سَادِلةً خِمَارها على وجهها. اقتربتُ قليلاً منها في حَركة هادئة حتى لا أُنفِّرَهَا، ثم سلَّمْتُ عليها لأوّل مَرَّة. أحسستُ أنّها ارتعدَتْ قليلاً عند سماع صوتي، لكنّها بَقِيَتْ مُسَمَّرَةً في مكانها، وَرَدَّتْ عليَّ السلام بصوت مُرتَعِش خافِتٍ، حسبتُ أنّي سمعتُ مثلَ نبرتِه مِنْ قَبْلُ. اقتربتُ أكثرَ حتى أصبَحْتُ خلفَها مباشرة فقامَتْ مُديرةً ظهرَها لي وأَمسكَتْ بقضبان السرير. حاذرتُ في الكلام معها بصوت خافت، ثم وضعتُ راحتي على كتفِها فارتعَشَتْ. على هذه المسافة من القرب، كنتُ قد دخلتُ في مجالها الخاصّ حيث أسمعُ صُعودَ نَفَسِهَا في وتيرة مُتَسَارِعَةٍ متقطّعَةٍ، وامتلأَ خَيْشُومِي من أَرِيجِ عِطرِهَا الفَاتِن، فامتلأ جَوْفِي بنار الهوى. وبعد أن اطمأنَّتْ إلى وُجودي قليلاً، وَضعتُ يَدِي الأخرى على كتِفِهَا فارتعَشَتْ مرّة أخرى. حاولتُ عِندَئِذٍ أن أُهدِّئَ من رَوْعِهَا، فمرَّرْتُ كَفِّي على ذراعيها لكي أُشْعِرَها بالأمان، ولاحظتُ أنّ مَلْمَس ثوبها أَلِيفٌ لديَّ، ثم آنَسْتُهَا بكلام طَيِّبٍ، فسألتُها عن اسْمِها فأجابتني بالذي أَعْرِفُ. فقلت: أرجو الله أن تكوني أَمَلَ حياتي، ثم أنشدتُ عَفْوَ الخاطر بيتًا نظمته للتوّ:

واسمُكِ مقلوبُهُ يُبِينُ لي مَآلَ أمري في معرض الفَالِ

سمعتُ وكأنّها فاهَتْ بشيء لم أُدْرِكْ منه إلّا نَغْنَغَةً سَقِيمَةً. ثم أحسستُ وكأنّ دموعَها تَجْرِي على خدَّيها، فسارعتُ بإخراج أَحَدِ

المنديلين اللذين كنتُ قد صنعتُهما من قُماش الفتاة التي التقيتُها في سوق البيّازين، ومددتُه إليها حتى تُكَفْكِفَ دُموعَها أخذَتْ منّي المنديلَ وعاينَتْهُ، ثم التفتَتْ إليَّ فجأةً. تجاسَرْتُ ورفَعْتُ خمارَها كَيْ أساعدَها في مَسْحِ دُموعِها ويا للمفاجأة العجيبة، فقد جَفَّ ريقي عن الكلام، وفَغَرْتُ فَاهِي مُستَغرِبًا. ماذا أرى؟ كيف حَصَلَ الذي حَصَلَ؟ إنّ هذا لأمرٌ في غاية الغَرابة؟

ضَممتُ أمل إلى صدري، وأَحسستُ بصُعود قلبي إلى حنجرتي، وغالَبَتْنِي دُموعِي فَبَكَيْتُ في استحياء شديد، لكنّي شعرت براحة عجيبة. ثم قبَّلتُ أمل على جبينِها وتشجَّعتُ لاستكانتها، فَلَثَمْتُ شفتَيها فانتفضَتْ وتراجعَتْ قليلاً، وكأنّها ظَبْيٌ غَرِيرٌ ضَجَّ إلى الحِمَى. اقترَبْتُ مرّة أخرى لأُؤَانِسَهَا، وأَحْسسْتُ بانقباضها وتَمَنُّعِهَا، فلَمَسْتُ كَتِفَيْهَا بهدوء، وحاوَلْتُ جَسَّ ذِراعِها بلُطْفٍ حتى ترتخي وتَلِين. ثم حاولتُ مرَّة أخرى أن أَلْثمَها على طَرَفِ شَفَتَيْها فأدارت وجهها للجهة الأخرى، لكنّها بَقِيَتْ واقفةً في مكانها. وفجأة أخذتها الفُواقَة، فصارت تشهق بشكل غير إرادي، فتراجعَتْ إلى الخلف. وبشكل غير متوقّع قالت لي بصوت فُواقي متصاعد: اقْتَرِبْ.

تردَّدْتُ، لكنّ جاذبيّة الأشياء بعضها لبعض فَعَلَتْ فِعْلَهَا، فأحسست كأنّها مغناطيسٌ يجذِبُ معدني بقوّة، فانجذبتُ نحوها بشكل غير إرادي، مثلما كان شهيقها عن غير إرادة.

واحتضَنْتُهَا في صدري فسمِعْتُ قَصْفَ قلبها، ثم وضَعْتُ قبلة على عنقها الأبيض الناعم، فلاح لي عِرْقٌ نَابِض يَهْتَزُّ في عُنْفٍ،

ومَسحْتُ على رأسها قليلاً فأَحْسَسْتُ بعودة السكينة إليها. ثم وضعتُ قبلة ثانية في موضع العِرْقِ النابِض، فتباطَأَتْ حركَتُه وانزوى قليلاً تحت بَشَرَتِهَا

تكفَّلَتْ جاذبيّة الأشياء القهريّة في جذب شفتيّ نحو شفتيها فَقَبَّلْتُهَا على طَرَفِ فمها، فَشَهِقَتْ شهقةً، لم أَدْرِ هل كانت بسبب الفواقة، أم بسبب التوَلُّه. ثم تماديتُ قليلاً لِأُهدِّئَ من رَوْعِهَا، فضممتُها ثم قبَّلتُها مرّة أخرى على الطرف الثاني من شفتيها وتَأَوَّهَتْ تَأَوُّهَ الرشَا مِنْ باطن الحَشَا، ثم تأَوَّهَتْ مرّة أخرى وتخاذَلَتْ، فغَرِقْتُ في بحر من السعادة، وزال تركيبي، فزالت عنها الفواقة، وتمنَّيتُ لو أصبحتُ وإيّاها روحًا وجسدًا واحدًا. لقد أكسبَتْنِي هذه اللحظات معنى التوحيد أكثرَ ممّا درستُه على أساتذتي. ثم تتابعَتْ قُبلاتي، مُزاوجًا في الانتقال من يمين شفتيها إلى يسارهما، وأخيرًا عقدتُ العزم على الأخذ بكلتيهما، فَيَا لَلسُّكْر. وغبتُ في تلك الشُّطْآن بين سَعِير الخُلجان، وبَرَدِ الأسنان. وانْسلَّ ثُعبانُ لساني يَقْضِي عنّي ما كنتُ عاجزًا عن قوله بأبسط بيان، فتارةً يخترقُ الحُدود، وتارة يشقّ الصفوف، ثم تَلَبَّثَ ساكنًا لِوَهْلَةٍ، وكأنّه اعتمدَ على سَنَد، وخِلْتُهُ عَلِقَ بسَقْفِ اللَّهَا، ثم الْتَوَى يمينًا ويسارًا، وكَرَّ من حيث أتى، ثم عاد والتَوَى، وامتَصَّ واستَوى، فلَيْتَ الزمان تَوَقَّف، ولَيْتَ الأرواحَ قُبِضَتْ على هذه الهيئة السَّنِيَّة، وهذا الاتّحاد في ذَاتٍ عَلِيَّة، ونَفْسٍ كُلِّيَّة. اختلَطَتْ أَنْفَاسِي بأنفاسها، وذُقْتُ شَهْدَ رِيقِهَا، وارتَشَفْتُ بَلِيلَ رَحِيقِهَا، وَاحْتَسَيْتُ رُضَابَ ثَغْرِهَا، ونَعِمْتُ بما لم أَنْعَمْ به مِنْ قَبْلُ. كَلَّ لساني عن الكلام، ونطقَتْ نفسي بأفصح بيان، وقَلَّ قولي وَلَطُفَتْ

حركاتي. ثم دفعتُها على السرير فتدافَعَتْ، ونَسِمْتُهَا فَتَضَوَّعَتْ، ثم تَأَوَّهَتْ وتَأَوَّدَتْ، وأنا أُحاذِرُ من ارتكاب خِسَّة، أو اعْتِسَافِ نَذَالَة. وأَسْلَمَتْ أَمَلُ نفسَها لي فَخَلَعْتُ عنها بِرِفْقٍ، ونَزَعْتُ عنها بذَوْقٍ أَرْدِيَةَ الصَّوْن، وفَتَحْتُ التكَة، وشَقَقْتُ السِّكَّة، فما هي إلّا نَسماتٌ حتى طلَعَتْ لي حُورِيّةٌ في أبهى حُلَلِ الطُّهْرِ والحُسْن. وتَأَوَّهَتْ وتَأَوَّدَتْ مرّة أخرى، فطار لُبِّي وغاب رُشدي، واعتلَّ تمييزي، فلست أدري أوّلاً من آخر، ولا زمانًا من مكان. وتوقَّفَ الإدراك الحسّي، وانطلق الإدراك الروحي. فتبَدَّتِ الأشياء كما هي، وزالتِ الصنْعَة، وانْصَبَغْنا بسرِّ الفطرة، وفاضت علينا نَسَائِمُ الحُبِّ الشَّريف. عِشنا لحظاتٍ كأنّها الدَّهر، واجتمعَتْ حبَّاتُ القلب في جَوْهَرٍ واحد. حَسوْنَا بحار المحبّة فلم نَرْتَوِ. وكيف الرَّوَاء؟ والسعادة في عَدَمِ الرَّواء كلّما توالت كؤوس الشراب من يد الساقي في كلّ نفَس وحين. أمضينا ليلَنا في حُبٍّ وَهُيَامٍ، ومُنَاجَاةٍ ولَثْمٍ وعِنَاقٍ، وتَقْبِيلٍ وتَنَسُّمٍ لِطِيبِ رِيحِ الحبيب.

ومع غَلَسِ الصبح، نَظَرْتُ إلى أمل نَظرةَ العاشق الولهان، والتقى نظري بنظرها، ثم وضعتُ قبلةً على ثَغرها الطيِّبِ الشَّذَا، فأضاءَتْ ليَ الأرضُ، طولُهَا والعَرْضُ. أخرجَتْ أمل المنديلَ الذي كفكَفْتُ به دموعَها فتأمَّلَتْهُ ثم أشارتْ بطَرْفِ بنانها إلى ثَوبِها، فأصابتني الدهشَة التي عَرَتْنِي أَوَّلَ الليل، فقلت لها: إنّه من قُماشِ ثَوْبِكِ نفسِه يا عَروس.

فقالت: ولماذا صنعتَ منه منديلاً؟

فقلت: بعد خُروجِك من الدكّان، سِرْتُ في أَثَرِكِ مِنْ زُقَاقٍ

لِزُقَاق، ومن رَبَضٍ لآخر، ومَرَقْتُ أَتعَقَّبُكِ مِنْ بَابٍ لِثَانٍ حتى غاب عنّي طَيْفُكِ بإزاء الحَمراء. وقد شككتُ في نفسي، فلم أَتَيَقَّنْ جَوَازَكِ إلى الداخل أم لا، بل لقد ظَنَنْتُ أنّك مِنْ بنات العِبْرَانِيِّين، وأنّكِ دخلتِ حارَتَهُمْ. وقد عشتُ أيّامًا صعبةً مِنْ فِرَاقِكِ، وعَدَمِ الظَّفَرِ برؤيتك مُجَدَّدًا. فما كان منّي إلّا أن احتفَظْتُ بالدرهمين المربّعين، ثم صنعتُ منديلين من القُماشين اللذين اشترَيْتِهِما حتى أَحتفِظَ بشيء يُذَكِّرُني بك.

فقالت: ألهذا الحَدِّ أحببتَني، ولم نكن قد التقَيْنَا مِنْ قَبْلُ، ولا سمِعْتَ عنّي. فكيفَ يكونُ الحُبُّ مِنْ أَوّلِ نظرة، وأَوّلِ لِقَاءٍ؟

فأجبتُ: إنّه الحبُّ الشريف يا أمل، الذي لا يحتاج إلى زمن، لأنّه مطلق عن الزمن. إنّ الروحَ إذا عَشِقَتْ تمكَّنَ الحُبُّ من الجسد في لحظة، وحَلَّ في كُلِّ أَجْزَائِهِ من أوّل طَرْفَة. ويشهدُ الله أنّ حُبَّك تمكَّنَ من كِياني كلِّه حتى أسقَمَني، وكنتُ في ورطة عظيمة مع والدك، وقد فاتحتُه في الأمر لمّا رأى ما عليَّ من الفُتور في العمل، فأشفق عليَّ، ووعدني بالسَّعْي في البَحث عَنْكِ، لكنَّ سَعْيَهُ لم يُسْفِرْ عن شيء. ثم إنّ السلطانَ كان يُريدُ تزويجي بعد مَوْتِ والدي، فاستَبْطَأْتُهُ لمدَّةٍ. وقبل شَهْرٍ دعا والدَكِ الوزير فأَعْلَمَهُ بِبُلُوغِ الأجل، وطلب منه أن يُحضِرَني للاجتماع بي. فلمّا ذهبْنَا إليه في جنَّة العَريف فاجَأَنا بقرارِهِ تَزْوِيجِي من ابنَةِ وَزيرِه، والدِكِ. أُسْقِطَ في يَدِ كِلَيْنَا للحَرَج الكبير الذي قد تُسَبِّبُهُ هذه الزِّيجَة، حيث يَعْلَمُ والدُكِ عن مشاعري تجاهَ فتاةِ البيّازين، لَكِنْ، ما كانَ لنا أن نَرْفُضَ أوامر السلطان. وقد وَاعَدْتُ والِدَكِ على الوَفَاءِ لَهُ والبُرورِ بابنته،

وسألتُه الدعاءَ لي حتى أَنْسَى طَيْفَ الفَتاةِ التي مَلأ حبُّها قلبي. لقد دخلتُ عليكِ ليلةَ البارحةِ، وأنا أَنْوِي أَنْ أُصَارِحَكِ بما في قلبي تجاهَ مَنْ مَلَكَتْ قلبي، فلمّا كَشَفْتِ عن خِمَارِكِ غَرِقْتُ في بحر من الدموع، وعَلمتُ أنّ رحمةَ الله بالمحبّين أَوسَع. فما أعجبَها من قصّة! وما أروعَه من لقاء مجهول حتى لحظات الجَنْيِ الأخير!

نظرَتْ إليَّ أمل طويلاً وأنا أَسْرُدُ عليها وقائعَ ما حدث منذ لقائنا في البيّازين، فقالت: وهل كنتَ مستعدًّا للتضحية بحبّ فتاة البيّازين من أجل الامتثال لأوامر السلطان؟

فقلت: وماذا كان عساي أن أفعل مع طَيْفٍ ظَهَرَ مَرَّةً ثم اختفى للأبد؟ وكلّ ما كنتُ أُؤَمِّلُه أَنْ أُطْلِعَكَ على الأمر أوّلاً، ثم تمنَّيْتُ على الله أن يُدَبِّرَ لي ما كنتُ عاجزًا عن تدبيره.

ثم سألتُها: وأنتِ كيف كان الأمرُ منكِ منذ لقائنا في البيّازين؟

فأجابت أمل: بل هناك ما هو قبل ذلك يا محمّد، وأَظُنُّ أَنَّكَ نسيتَه.

فقلت: والله ما أَتذَكَّرُ شيئًا آخر يَربِطُني بكِ غير حَادثةِ البيّازين.

فقالت: ألا تَذكرُ جولتَك الأُولى في الحمراء مع والدي؟

قلت: بلى.

قالت: ألا تذكر الفتاة التي كانت على الشرفة حين كنتما تَتَمَاشَيَانِ على المَمْشَى المُحَصَّب.

قلت: بلى.

قالت: فأنا كنتُ تلك الفتاة.

قلت: وهذه أيضًا؟

قالت: نعم، وفي الأيّام التي تَلَتْ، عَلِمْتُ من والدتي أنّ السلطانَ يريد تزويجَك، وسألتُ عنك من الخَدَم الذين يعملون بالحمراء فأطلعوني على أَخبارِكَ. ثم إنّي كنتُ أَعلَمُ عن تَرَدُّدِكَ إلى البيّازين، فرتَّبتُ خُروجًا مع وَصيفَتي لِشِراءِ ثوب، وهناك التَقَيْنَا، وحَصَلَ مَا أنت تعلمُه. وقد لَبِستُ الثوبين يومَ عُرسي البارحة، الواحدَ فوق الآخر حتى تَفْطنَ لأَمْري. فالثَّوب الداخلي كان هو الذي اخترتُه لي بلون قَلْبِ تُفَّاحَة، حتى أُعْلِمَكَ بِقُرْبِ حُبِّكَ من فؤادي، ووضعتُ عليه الثوبَ الثاني القُويقي اللون، مفتوحًا من الأمام بالأزرار التي نسمّيها «عَيْن وعُقْدَة» حتى يجتمع شملُنا اجتماع الثوب والثوبين، ويَنْسَلِكَ أَحَدُنا في الآخر انسلاكَ العُقْدَةِ في العَيْن.

فقلت: لقد كانت أضواء الليل تمنعني من مُلاحظة أثوابك، وحينما لمستُك لأوَّل مرّة أَحسستُ بمَلمَس أحد مناديلي نفسه، لكنّي لم أَفطنْ للأمر، ولم أَرْبِطْ هذه التفاصيلَ فيما بينها وقد سَعَيْتِ إلى لقائي كما سَعَيْتُ إلى لقائِك، ووالدُك المسكين لم يَكُنْ يَعْلَم.

قالت: بل إنّه كان يعلم بأمر وُجودي على الشرفة واختفائي وراء المشربيّات زَمانَ تجوُّلِكُمَا في الممشى المحصَّب لأنّه أمرني بالتَّحَفُّظِ في البُرُوز، وما عداه فلم أطلِعْهُ على شيء منه.

قلت: لقد أحسستُ أنّه ما كان يُحَذِّرُني من العُزوبة إلّا لِيُرَغِّبَنِي في الزواج، لكنّي لم أكن أعلم أنّ له طَفْلَة[1] مثل البدر، مع أنّه لم يرفَعْ رأسَه نحو الشرفة. لكن لا بُدَّ أن أكتبَ إليه هذا الصباح لأُخبرَه بهذه المفاجأة السارّة.

ومع إشراقة الصباح الذي طلع نهارُه، ولم نَكُنْ قد خرجنا بَعْدُ مِنْ لَيْلِهِ، وكان قد استَرَقَّنا الأَرَقُ طولَ الليل لننعمَ بسعادة اللقاء، قالت لي أمل فجأة: إنّي لا أحسّ بالتعب رغم أنّي لم أَطْعَم النوم طوال هذه الليلة التي مضت كأنّها لحظة.

فقلت لها على طريقة الحكماء: يا جوهرةَ الذات، وحِلْيَةَ الصفات، إنّ الأرقَ يعني صعوبة الخروج من أمس. وهذا أمر خارج عن الأنا ورغباتها. *مكتبة الرمحي أحمد*

فقالت، وقد استفزَّها قولي: هل معنى هذا أنّ الحبَّ يُوقِفُ الزمن؟

فقلت: أجل، إنّ فَلَكَ الحُبِّ يحيط بفلك الزمان، حينما نقول «قد سهرنا» يكون السهر قد انقضى، لكنّنا في شوق إلى ربط الأمس باليوم في بُعْدٍ واحد. أو لنقل إنّنا نرفض الخروج من الأمس.

---

(١) طَفلة: بالفتح، هي المرأة الناعمة، وبالكسر، الصبيّة الصغيرة. وقد سألتني مرّة، إحدى الفنّانات المعروفات بشيء من الإنكار: هل الشيخ الأكبر محيي الدين يدعو للتَّحَرُّش بالأطفال حين يقول:

بأبي طَفلة لَعوبٌ تَهادى ... من بَنَاتِ الخُدُورِ بَيْنَ الغَوَانِي

ونطقَتْهَا بالكسر، فأصلحت لها النطق، ونزَّهتُ الشيخ عن مثل هذا الظنّ، ونبَّهتها للمعنى الذي رامه.

فقالت: فهل العشَّاق من أهل الماضي؟

فقلت: إنّه لم يعد ماضيًا، بل هو لحظة حضور في زمن بلا أبعاد.

ثم تذكَّرت واجبًا، فقلت لها: سأستأذنك في الكتابة إلى والدك.

ثم قُمْتُ بعد أن انسلَّتْ أُولى أشعّةِ الضوء إلى الغرفة، وأَخذتُ قَلمًا ورُقعةً كتبتُ له فيها بعد التحيّة والسلام، لُغْزًا شعريًّا ذَكرتُ له أنّي نظمتُه لعروسي، ليعلمَ أنّ الله قد جمع لي بين حبيبة وعروس في ليلة دُخولي:

واسمُكِ مقلوبُهُ يُبِينُ لي مَآلَ أمري في معرض الفَالِ

ووقَّعْتُ بإمضاء: صِهْرُك الوفي.

ناديت على أحد غِلماني وأَمَرْتُهُ بإيصال الرُّقعَة حالاً للوزير، وانتظار الجواب؟

لم تمض مدّة قصيرة حتى عاد الغلام فرحًا مستبشرًا يحمل كيسًا من الدراهم، منحه له الوزير، وأبلغني سعادة الأب بقراءة الرقعة.

* * *

بعد أيّام الفرح التي عشناها، والتي عمل الوزير على إبلاغ السلطان بالمفاجأة السارّة، انقلبنا إلى أحوالنا المعتادة من تدبير شؤون المملكة ومواصلة الأشغال في الحمراء، وسائر الثغور. لقد كان الخطر الذي يتهدَّد المملكة مِنْ قِبَلِ ألفونسو الحادي عشر الذي

ما فَتِئَ يَشُنُّ حملات متوالية في جنوب المملكة، لِيَقْطَعَ عنَّا الإمدادات الآتية من بلاد المغرب. وبعد سنتين من معركة طريف، استطاع القشتاليّون أن يستولوا على طريف والجزيرة. وأحدث هذا الاستيلاء حزنًا عظيمًا في المغرب والأندلس على السَّواء منذ وقعة العقَاب في عهد الناصر الموحّدي. ولم يبق في يد المسلمين سوى جبل طارق لتوصيل الإمدادات بين المغرب والأندلس. ومن الألطاف الخفيّة أنّ مَلِكَ قشتالة توفّي، فتشاغل القشتاليّون بتدبير أمر مملكتهم، وعمل السلطان خلالها على توطيد دعائم الملك وتحصين المواقع المهدّدة، وتنظيم شؤون مملكته بتجديد معاهدة الصلح المنتهية مع بيدرو الرابع، ملك الأرغون، لمدّة عشر سنوات أخرى، عام سبعمائة وخمسة وأربعين، فكانت سنوات من الإصلاح والرخاء والسلم، لكنّني تيقَّنْتُ، بملازمتي لدَواليب الحُكم، أنّ مَصير هذه المملكة اليتيمة إلى زوال، وأنّ ممالكَ النصارى عاملة على طرد المسلمين إلى ما وراء بحر الزقَاق، لكنّي عَمِلْتُ رفقة أبي الحسن على إطالة عمر مملكتنا الغريبة.

تعلَّمت الكثير من أستاذي أبي الحسن بن الجيّاب الذي كان يَحْدِبُ عليّ، ويُقَدِّمُنِي في المجالس الكبيرة، ويَحميني من المؤامرات الدَّنيئة التي تحدث في دواليب المملكة. لقد كان لي نِعْمَ السَّنَد، ووجدتُ فيه الأبَ والصِّهْرَ والأُستاذَ والشَّيخَ. ورغم إقبال الدنيا عليه، فإنّه كان زاهدًا فيها مُتَقَلِّلاً من المال والمَتَاع، لِعِلْمِهِ بِزَيْفِ هذه المَظاهر الدنيويّة.

ثم حَلَّ الوباءُ العظيم، والطّاعون الفاتِك الذي دخل إلينا من

إيطاليا، في رحلته الطويلة من بلاد المغول، فمات كثير من الناس في ممالك النصارى والممالك الإسلاميّة. كنت قد حَذَقْتُ صناعةَ الطبّ، فاستفَدْتُ من دراستي لهذا العلم في تشخيص المرض وتوصيف الدواء للمرضى، وعَمِلْتُ على حفظ أهل بيتي من وصول هذا الوباء الوَبِيل. لكن، لا ينفع حَذَرٌ مع القَدَر، وإن كان الحَذَرُ بَعْضَ القَدَر. لقد كان من بين الضحايا الذين أخذهم هذا الوباء، صهري أبو الحسن الذي كان يَعُودُ المرضى في أحياء غرناطة، ويَحْدِبُ عليهم، ويَبَرُّ بهم، فلَحِقَتْهُ أعراضُ المرض، ولحق بمن قَضى منهم سنة سبعمائة وتسع وأربعين. ومات خلق كثير من عامّة الناس وخاصَّتهم. ومِنْ بين مَنْ أخذَهُ الوباءُ شاعِرُ ألمريّةَ الكبير، ابنُ خاتمة. وقد تأثَّرْتُ لفقد الكثير من الأقران والأصحاب والشيوخ، فألَّفْتُ رسالةً في الموضوع أسميتُها «مُقْنِعَةُ السَّائل عن المرض الهائل» ورسالة أخرى بعنوان «تحصيل غرض الوافد في تفصيل المرض الوافد».

كنت قد نَبَّهْتُ أقراني في ديوان الإنشاء، فعيَّنني السلطان يوسف الأوّل خَلَفًا لأبي الحسن في رِئاسَة ديوان الكتّاب. ولم تمض فترة قصيرة حتى ثَنَّى لي ذلك بالوزارة. بعد حصول هذه النكبة، فَشَتْ نزعةٌ صوفيّة في الأندلس، ورَكَنَ الناس إلى الزهد في الدنيا، ونال السلطانَ حظٌّ من هذا، فلبس الصوف بدل الديباج، وعقد مجالس السماع، ودعا الطائفة البونيّة لتُلهِبَ الأرواحَ بأشعار الحلّاج، فنظمتُ له قصيدة أنشدتها بحضرته في ليلة من تلك الليالي:

هبَّ النسيمُ مُعَطَّر الآرَاجِ فَشَفَى لَوَاعِجَ قلبيَ المهتاجِ
وَافَى يُحدِّثُ عن أَحِبَّتِيَ الأُلَى أَصبَحتُ أَكْنِي عنهمُ وأُحَاجِي
فاشرَبْ على ذِكْرِ الحبيب وسَقِّنِي صَهْباءَ تُشرِقُ في الظَّلام الدَّاجِي
مِنْ خَمْرَةِ السِّرِّ المقَدَّسَةِ التي كَلِفَتْ بِطَاسَتِهَا يَدُ الحَلَّاجِ
وَأَرَتْ له الأَشْيَاءَ شيئًا وَاحِدًا فَغَدَا يُخَاطِبُ نَفْسَهُ ويُناجِي
ورأى ابْنُ أَدْهَمَ لمحةً مِنْ نُورِها تَلْتَاحُ بينَ مَخَارِمٍ وفِجَاجِ
فَغَدَا وَمِنْ صُوفِ الصَّفَاءِ شِعَارُهُ واعتَاضَهُ مِنْ لِبْسَةِ الدِّيباجِ
رَفَعُوا لها قَبَسًا بجانِبِ طُورِهِم فَعَشَوْتُ نحو سِراجِهِ الوَهَّاجِ
وبحثْتُ عنها خمرةً لَمَّا تَزَلْ سَببَ النَّجاةِ لطالبٍ أو رَاجِي
لمّا عَلِمْتُ مَكانَهَا وزَمَانَها أَعْمَلْتُ في لَيْلِ السُّرَى إِدْلاجِي
وأَتَيْتُ رَبَّ الدَّيْرِ في مِحْرَابِهِ فَبَثَثْتُ إِفْلاسِي إليه وحَاجِي
نَاديتُه مُترحِّمًا والليلُ قد رَجعَتْ كتائِبُهُ على الأَدْرَاجِ
ما لي سِواكَ فلا تُخَيِّبْ مَقْصِدِي ما خَابَ فِيكَ رَجاءُ عَبْدٍ رَاجِي
وافَيْتُ مِنْ أَرْضٍ بَعيدٍ خَطْوُها مِنْ بَعْدِ طُولِ تَخَبُّطٍ ولَجَاجِ
مهما ضَحَيْتُ فَظِلُّ حُبِّكَ مَلْجَإِي ومتى مَرِضْتُ ففي يَدَيْكَ عِلاجي
ومَدَدْتُ كَفَّ الفَقْرِ أَسْأَلُهُ فَيَا عِزَّ الغَنِيِّ وذِلَّةَ المحتاجِ
فرأى افتِقَاري في يديهِ فَجَادَ لي مِنْ جُودِهِ بالوَابِلِ الثَّجَّاجِ
وأَحَلَّني مِنْ دَيْرِهِ في هَضْبَةٍ تَنْحَطُّ عنها الشُّهْبُ في الأَبْرَاجِ

وجَلا عليَّ الرَّاحَ في أكواسِها فشربتُها صِرْفًا بغير مِزَاجِ
تخفى عن الإدراك إلّا أنّها يَهْدِي سَنَاهَا رَاحَةَ المُزَّاجِ
فَتَرَى زُجاجتَها بغير مُدامَةٍ وترى مُدامتَها بغير زُجاجِ
فاشرَبْ وَبُحْ باسمي جِهارًا لا تَخَفْ في الدَّير من نَصَبٍ ولا إحراجِ
عُوجَا على طَلَلِ الوُجُودِ وَبَلِّغَا عَنِّي السَّلامَ فَلاَتَ حِين مَعَاجِ
للهِ إخوانُ الصَّفَاءِ فَإنَّهُمْ سلكوا الطريقَ الواضِحَ المِنْهَاجِ
مِنْ كُلِّ ذِي طِمْرَيْنِ أَشْعَثَ أَغْبَرٍ عَبِثَتْ بِشَمْلَتِهِ يَدُ الإِنْهَاجِ
وَقَفُوا بِأَبْوَابِ اليَقِينِ وَفَتَّحُوا مَا كَانَ مِنْها قَبْلُ ذَا إرْتَاجِ
حتى إذا كادَتْ سِمَاتُ طَرِيقِهِمْ تَخْفَى بِكُلِّ مُمَوِّهٍ وَمُدَاجِي
نادتْ هَلُمُّوا جَدِّدُوا عَهْدَ الرِّضَا أيَّامَ مَولانا أبي الحَجَّاجِ
فاستقبلوا دَاعِي المَقَامِ كأنّما أَتَتِ المَقَامَ رَكائِبُ الحُجَّاجِ
أحيَا الإلٰهُ به رُسومَ طريقِهِمْ وحَمَاهُمُ من مُلْكِهِ بِسِيَاجِ
مَلِكٌ يحبُّ الصالحينَ ويقتدي في الدين من أنوارهمْ بسِراجِ
ويواصلُ الليلَ التَّمَامَ مُسهَّدًا للهِ بينَ مُراقِبٍ وَمُنَاجِي

كان في غرناطة ونواحيها مجموعةٌ من الرُّبُط التي تشتغل بالتربية الروحيّة والجهاد في سبيل الله، بل لقد وصلنا بعضُ الفقراء من فارس والهند، فكان السلطان يأنس بهؤلاء ويجلس إليهم ويقتدي بصالحيهم.

* * *

كنت أخرج إلى البيّازين لملاقاة أصدقائي القدامى الذين لم أنسهم رغم المسؤوليّات الكبيرة التي طُوِّقْتُها. ومن بينهم صاحبي بائع الأثواب الذي كنت التقيت في دكّانه بزوجتي أمل. ذهبت إليه في زيّ عادي حتى لا أُعْرَف، فلمّا رآني قام إليّ مُرحِّبًا فتعانقنا، ودعا بشراب من التوت المثلّج. ثم الْتَفَتُّ ورأيت شابًّا جالسًا في ركن من الدكّان الفسيح، فسألته عنه ظنًّا منّي أنّه أحد أبنائه، فقال لي: هذا الشابّ اسمه ابن زمرك ابن صديق لي حَدَّاد، توفّي والده منذ مدّة قريبة، فهو يأتي إليّ يُسمِعني من شعره، فَأُنْعِمُ عليه ببعض الدراهم لكي يتقوَّى على مواجهة أعباء الحياة.

فقلت: لقد سمعتُ أنّ ولدًا قتل والدَه الحَمَّار المُكَارِي الحدَّاد في سوق البيّازين، فهل هو أنت؟

فقال الشابّ: معاذ الله يا سيّدي، وإنّما هي حادثة. فقد دخل علينا الوالد مُثْخَنًا بالسكر، وهدَّد أُمّي وأخواتي بالقتل بساطور في يده، فاشتبكت معه محاولاً منعَه من ارتكاب جريمة، وبينما كنت أُدافعه، وقع السّاطور على رأسه فمات.

فقلت: لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ثم قلت له: اقترب يا ولدي.

فاقتربَ مُطرقًا برأسه إلى الأرض.

ثم أضفت: هل تُسمعنا شيئًا من شعرك يا ابن زمرك؟

فرأيت بريقًا في عينيه، لا يكون إلّا في أعين الطامحين، وقال: نعم سيّدي، ثم أنشد:

لـكَ الله مِنْ فَذِّ الـجلالـةِ أَوْحَـدِ   تُطاوِعُه الآمالُ في النَّهي والأَمْرِ

لكَ القلَمُ الأعلى الذي طال فَخْرُهُ   على المُرْهَفات البِيضِ والأَسَلِ السُّمْر

ثم لمّا أنشد بضعة أبيات من قصيدته، طربتُ لها طربًا، قلت له: أنت شاعر خفاجي المذهب، كَلِفٌ بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة.

فرح الشابّ فرحًا عارمًا، فسألته مختبرًا: هل قلتَ هذه الأبيات ارتجالاً؟

ارتبك ابن زمرك وأدرك أنّي فَطِنْتُ به، فقال: بل نظمتُها قبل هذا اللقاء، وقد كنت أعلم أنّك تزور صديقك في البيّازين، فأعددت هذه الأبيات لكي تسمعها. ولعلّك يا سيّدي تتوسّط لي في دخول ديوان الإنشاء.

قلت: الصدق أحد شروط النجاح، لكنّها أبيات بديعة، وهل تحسن الترسيل كما تحسن النثر؟ فأجاب كما يُجيب كلّ طامح جسور: نعم سيّدي، وأنا مستعدّ للاختبار.

فقلت: ستأتيني في عيد الفطر للتهنئة، وإذا رأيتُ منك نباهةً، كلَّمتُ السلطان بشأنك حتى تلتحق بديوان الإنشاء.

ثم وضعتُ كيسًا من الدراهم في يده، وقلت له: استعن به على أمورك حتى تأتيني. ودَّعتُ صديقي وخرجت.

مرَّت أشهر قليلة، وحلَّ عيد الفطر، وجاءني ابن زمرك كما طلبت منه. فلمّا دخل عليّ قال: أرجو أن يسمح لي مولاي بسماع باقي القصيدة التي أنشدته في دكّان البيّازين.

فأذنت له فأنشد من قصيدة طويلة حتى قال:

فيهنيكَ عيدُ الفِطر مَنْ أنتَ عيده ويثني بما أوليتَ مِنْ نِعَمٍ غُرٍّ
جَبَرْتَ مَهِيضًا مِنْ جَنَاحِي وَرِشْتَهُ وَسَهَّلْتَ لي مِنْ جَانِبِ الزمَنِ الوَعْرِ

فلمّا أنهى، علمتُ قدرَه، وقلت له: لقد طلبتُ منك أن تأتي يوم عيد الفطر للتهنئة، لكنّك أنشأت قصيدة في مديحي بدل أن تُنْشِئَهَا في السلطان، لذا آمرُكَ أن لا تذكرَ هذه القصيدة بحضرة السلطان. والآن سنذهب للسلام عليه، وهي مناسبة لكي أطلب منه دخولك إلى ديوان الإنشاء. فرح الفتى وكبَّ على يدي يقبِّلها، فنزعتها منه بشدّة.

فلمّا دخلنا على السلطان، قدَّمت له الفتى، وأثنيت عليه وذكرت له أنّي قد اختبرت مواهبه، وأنّه صالح لنا، عدا كوني بحاجة للمساعدة في ديوان الإنشاء، فأجابني السلطان لما طلبت.

* * *

كان ملك قشتالة قد عزم أن يطرد المسلمين نهائيًّا من الأندلس، فاستولى على بعض الحصون القريبة من غرناطة، ثم عاود خُطَّته الجهنّميّة بمنع وصول الإمدادات من المغرب لسلطتنا، فعسكر بجنوده وأسطوله حول جبل طارق، لكنّ الحامية المغربيّة استماتَتْ في الدفاع عن الصخرة استماتةً مجيدة، إلّا أنَّ الوهَنَ دَبَّ في النفوس، ونَفدَتِ الذخِيرة بسبب الحِصار الذي استمَرَّ سنة كاملة حتى عام سبعمائة وواحد وخمسين، حتى فَشَا الوَباءُ في جيش قشتالة فقضى كثير منهم، وأَوْدَى بحياة ملكِهِم ألفونسو، فرحل مَنْ

بقي منهم عن صخرة طارق، وتَنَفَّسَ المحاصَرون مِنَ الغُزاة المغاربة الصعَدَاء، وحمدنا الله على ألطافه بنا. ورغم العداوة المستحكمة بين الفريقين، فإنّ جيش المسلمين أبدى ضُروبًا من السماحة والفُتُوَّة، فسمح للسفينة التي تحمل نَعْشَ الملك المتوفّى بالعودة إلى إشبيليّة دون التعَرُّضِ لها، بل تمادى بعض قادة الغزاة المسلمين في التفَنّي على العَدُوِّ، فوضعوا شارةَ حُزن وحِدَادٍ تكريمًا لملك قشتالة، واحترامًا لملك عَدُوٍّ مات في معركة بين الجيشين.

وقد كان لموت ملك قشتالة أبلغُ الأثر، وأعظَمُ فرحة في الممالك الإسلاميّة من هذا الرجل الذي نَذَرَ نفسه لأن يَمْحُوَ كلمةَ التوحيد من الأندلس نهائيًا، فأخذه الله بهذا الوباء الذي كان يتحرَّزُ منه، ويحتاط له، أعظَمَ احتراز، وأبلغَ حِيطَة. وقد كلَّفني السلطان يوسف بكتابة رسالة إلى سلطان المغرب أبي الحسن المريني لتهنِئَتِهِ بالنصر، فكتبتُ له عن هذا العَدُوِّ الذي «انتهزَ الفرصةَ بانقطاع الأسباب وانْبِهَام الأبواب، والأمور التي لم تجر للمسلمين بالعُدْوَتَيْنِ على مَأْلُوفِ الحِساب، وتَكالُبِ التثْلِيثِ على التوْحِيد، وساءتِ الظنونُ في هذا القُطْرِ الوَحيد، المنقَطِعِ بين الأُمَّةِ الكافرة، والبُحور الزاخرة والمَرام البعيد. ثم تداركَتْ رَحمةُ الله الأندلس بعد ذلك، فَهُزِمَ العَدُوُّ ولم يَبْلُغْ مرامًا».

وقد بالغ أبو الحسن المريني بعد هذه الواقعة في تحصين جبل طارق وبناء أسواره ودفاعاته، وأنشأ به دارًا للصناعة، مخافةَ أن تتجَدَّدَ أطماعُ قشتالةَ مرّة أخرى.

وقد زارنا خلال هذه الأيّام رَحّالَةُ العالَم، ابن بطّوطة، وأَقَرَّ

بأنَّ بلاد الأندلس من أعظم بلاد الدنيا، وحكى ما شاهده في مختلف بِقَاعِ المعمور، لكنّه أَنِس إلى هذه المملكة اليتيمة، وقد كان يرغب في مُلاقاة السلطان فامتنع اللقاء بسبب مرض السلطان. وعاد ابن بطّوطة إلى المغرب لِيُخْبِر عن عجائب الأندلس وعلمائها وأدبائها وصُنَّاعها وقد ملأتُ الأرض شعرًا ونثرًا حول الأندلس وأيّامها ورياضها وجِنَانها وملوكها، فكنت صاحبَ القِدْحِ المُعَلَّى الذي لا يُبَارَى في حَلبَةِ الأدب والشعر.

توفّي السلطان الصالح أبو الحسن المريني بعد مدّة من إحراز النصر على جيش قشتالة، فكلَّفني السلطان يوسف بسِفَارَة للعَزاء عند خَلَفِ أبي الحسن وولده، السلطان أبي عِنَان. كانت هذه أوَّلَ مُهِمَّةٍ سِفَارِيَّةٍ لي خارجَ بلاد الأندلس في شهر ربيع الأوّل سنةَ سبعمائة واثنتين وخمسين.

ركبتُ من جبل طارق باتّجاه أقرب نقطة على العدوة الجنوبيّة لبحر الزقاق باتّجاه مدينة طنجة، وعلمت من هناك أنّ أبا عنان قد توجَّه مع نعش والده لدفنه في شالة. فاتَّجَهْتُ بشطّي (سفينة ذات صَارِيَيْن، Sajitta) من شمالي المغرب إلى مَرْسَى مدينة سلا جنوبًا. ولمّا اقتربت السفينة عاينت عن بعد صومعة الجامع الأعظم في سلا، ثم قصبة الرباط في الضفّة الجنوبيّة لنهر أبي رقراق الذي يفصل بين المدينتين. ثم راعتني ضخامة صومعة حسّان التي بناها الموحّدون حينما جعلوا من رباط الفتح منطلق جيوشهم لفتح الأندلس. دخلنا بالسفينة إلى الوادي الذي يَصُبُّ في البحر المحيط، واعترضتنا مَضَايِقُ رمليّة تَمَكَّنَ الرُّبَّانُ من تَفَادِيها بفضل

إرشادات قارب مريني كان يفتح لنا الطريق الآمن إلى شالة. تمكَّنّا بصعوبة من تجاوز هذه المضائق الرمليّة عند التقاء الوادي مع البحر. سرنا مسافة ميل فوصلنا إلى شالة التي تشرف على الوادي من رأس تلّة.

نزلتُ من السفينة فوجدت رجال السلطان أبي عنان في انتظاري، فسرت في إثرهم حتى وصلنا إلى مدخل قصبة شالة من بابها العظيم. وعند دخولي قرأت تاريخ بناء سور شالة وتجديد بنائها من قبل أبي الحسن، كما هو مُدَوَّنٌ بالخطّ الكوفي أعلى الباب. دخلت عليه، فألفيت أبا عنان في الزاوية التي على يسار الداخل إلى القصبة، أبيض اللون تعلوه صفرة قويّة. نحيف البدن، فقام إليّ فألفيته طويل القامة بحيث بَدَوْتُ قَزَمًا أمامَه مع أنّي متوسّط القامة، فرحّب بي لمّا رأى هيبتي من طوله. كان صوته جهوريًّا، وفي كلامه عَجَلة وتوقُّفٌ يَصْعُبُ فهمه. لحيته عظيمة تملأ صدرَه وتُرْعِبُ الواقف بين يديه، ويبدو أكبر منّي مع أنّه يصغرني بحوالى خمس عشرة سنة. سلَّمت عليه وقدَّمت له تعازي السلطان أبي الحجّاج، وعَمِلْتُ على مُواساته قَدْرَ ما أستطيع. كانت حالُه حال الصالحين لا حالَ الملوك حُزنًا على والده المعظّم. ثم طلب منّي أن أصطحبه حيث كان يَتهيَّأُ لِمُواراة والده بعد وصوله من فاس. وصلنا إلى قرب المسجدين الظريفين في أسفل القصبة إلى جهة الوادي، في أحدهما دفن السلطان يعقوب المريني. وحضرت مُواراة أبي الحسن على بعد الدار وشَطِّ المزار. وبعد أن أنهينا الدفن، التَزَمْتُ الترْبَةَ المباركة قُرْبَ القِبَاب الملوكيّة في الترحُّمِ وقراءة القرآن رُفقَةَ أبي عنان وأخويه أبي الفضل وأبي سالم

ورجالات دولته من الوزراء والحُجَّاب والكتّاب والقضاة. كان السلطان يقرأ في رَبْعَةٍ رفيعة بخطّ مليح وكبير الحجم، فلمّا أنهى قراءته، ذكر لي أنّها من خطّ والده أبي الحسن، فغالبَتْهُ عَبَراتُ الاعتبار. وبعد أن استردَّ بأسَه، ذكر لي أنّ والده كان قد وجَّه في حياته ثلاثة مصاحف كتبها بيده وحبَّسها على المسجد الحرام في مكّة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنوّرة، والمسجد الأقصى في بيت المقدس. كما أخبرني عن عنايته الكبيرة بالمصحف العثماني الإمام الذي كان في حوزته.

أخبرني أبو عنان بأنّ شالة قد أصبحت مَدفنًا لسلاطين المرينيّين وأمرائهم منذ أن دفن بها يعقوب بن عبد الحقّ المريني.

وخلال تلك الأيّام تولّى المادحون والمسمعون الإنشاد بمناسبة المولد النبوي. ثم لمّا انتهت أيّام العزاء، وتحبيس القراءة المتّصلة على والده، اهتمّ بأمر تثبيت ملكه، وأخبرني بقلقه من معاكسة أخويه أبي الفضل محمّد، وأبي سالم إبراهيم، له في الملك، فأشرت عليه باصطحابهما إلى الأندلس، ووعدته بأن يكونا تحت رعايتنا وضيافتنا. رحَّب السلطان بمقترحي لكنّه أكَّدَ عليّ في إبلاغ أبي الحجَّاج باستعمالهما في جهاد القشتاليّين، وعدم إمدادهما بالمال والرجال إذا اعتزما المطالبة بالملك، فوعدته بأن أُبْلِيَ البلاءَ الحَسَن في هذا المسعى. حمد لي أبو عنان هذا المسعى وتوطَّدتْ علاقتي مع البلاط المريني في أوّل سفارة لي. ومن سلا باشرتُ إركابَ الأخوين البحرَ على متن سفينتي، في ثاني يوم بعد توديعهما لأخيهما أبي عنان. خرجنا بالسفينة من المُعْتَرَض

الرملي بنجاح بفضل نُوتِيَّةِ القَارَب المريني الذي كان يرشدنا، ثم واجهتنا ريح رُخاء فنشرنا القلاع، وحملتنا باتّجاه بحر الزقاق. وخلال الرحلة، تعرّفت إلى الأخوين، فرأيت تَطَلُّعًا من أكبرهما، وهو أبو الفضل، إلى منازعة أخيه، ورأيت استكانة وصبرًا ورضى بما قسم الله من أبي سالم. أَنِسْتُ إلى هذا الأخير، رغم أنّي طَمُوحٌ مثل أبي الفضل، لكنّ تركيبي كان أسعد حالاً وأهنأ بالاً مع المسالم. وصلنا إلى مرسى مالقة، فأَعْمَلْنا الرِّكابَ رُفقَةَ أبي الفضل وأبي سالم حتى دخلتُ على أبي الحجّاج في قصر الحمراء. وكنت قد أرسلت له رسالةً أُخبِره بمقدمي، كما أَرسلتُ رسالةً أخرى إلى زوجتي أمل أُخبِرُها بِمَقْدَمي. فلمّا دخلتُ عليه أَقبَلَ عَليَّ وهنَّأني بنجاح سِفارتي، ثم رحَّب بالضَّيفين المغربيّين وأنزلهما مَنزلاً حسنًا. فلمّا انصرفا من عنده أخبرته بخبرهما وقلت له: يا سيّدي، إنّ السلطان أبا عنان قد استوصاك بأخويه خيرًا.

فقال السلطان: وسوف نقوم بواجب ضيافتهما كما ينبغي.

فقلت موضِّحًا أكثر: يا مولاي، إنّ أبا عنان أرسل لك أخويه لينشغلا عن طلب الملك في المغرب.

فقال السلطان: تلك سياسة مُتَّبَعَةٌ بين عُدْوَةِ الأندلس وعدوة المغرب. فكلّما بويع لسلطان جديد إلّا وعمل على إبعاد منافسيه بإحدى العدوتين.

أحسستُ بدهائي يبرز، فقلت: نعم سيّدي، لكنّنا يمكن أن نستفيد من هذه المسألة للضغط بها، في حال تَغيَّر الأحلاف.

نظر إليَّ السلطان نظرة مُطوَّلة وأَوْمَأَ برأسه لكي أُتابع فَقُلتُ:

لعلَّ الأمر لا يخفى عليكم يا سيّدي، من أنّ للمرينيّين أطماعًا في مملكتنا، كما أنّ حاميتهم معسكرة في جبل الفتح. وإنّنا باستضافة هذين الأميرين نمتلك رهانًا كاسبًا في الضغط على المرينيّين إذا وجَّهوا أطماعهم إلينا، فيمكننا استعمال هذا الرِّهان في إيقاف تلك الأطماع والاحتياط لأمر تدعيم المملكة.

تَفَكَّرَ السلطان قليلاً، ثم قال: لقد أصبحتَ داهيةً يا ابن الخطيب.

ابتسمتُ للسلطان وقلت: إنّ غيرتي على مملكتنا علَّمتني أنّ السياسي المحنَّك هو من يحتفظ برهاناته لوقت الشدّة.

فقال السلطان: وعلينا أن نَشغَل الأميرين بالحركة والجهاد ضدّ القشتاليّين للرفع من معنويّات جيش الغزاة المريني، ولنشغلهم عن النظر في أمور مملكتنا، وتكوين أحلاف مع كلّ مَوْتُورٍ من سياستنا

فقلت: نِعْمَ الرأيُ يا مولاي، وتلك كانت وَصيَّةَ أبي عنان. ولا أَقْبَحَ للأُمَراء من الدَّعة والخُمول والفراغ، إذ تُسَوِّلُ لهم أنفسهم التآمر وإعمال الدَّسائس. لكن أرى أن لا ترسلهما معًا للوجهة نفسها حتى نستطيع مُداواة أحدهما بالآخر، متى نَشَبَ أَمْرٌ يستوجِبُ تدَخُّلَنا. وأرى أن تُرسِلَ أبا الفضل لينشغل بالجهاد في الثغور، وتُبقي أبا سالم قريبًا منّا. فإنّي خَبِرْتُ نفسيَّتهما خلال رحلة العودة، وبان لي أنّ أبا الفضل طامع في الملك، وخارج على أبي عنان لا محالة. أمّا أبو سالم فإنّه رجل حكيم، وراض بما قسم الله لعباده، ولعلّه يكون لنا نفعًا في المستقبل.

فقال السلطان: ما أحوجنا إلى رجال من طينتك، يدركون قيمة الرجال بالمعاشرة، ويقفون على طموحاتهم المختلفة. اِذْهَب الآن لزيارة أهلك، فإنّ لهم بك شوقًا، وسنرى في أمر الأميرين لاحقًا حسب ما أَوْصَيْتَ به.

بعد أن أَدَّيْتُ حقَّ الخدمة استأذنتُ في الانصراف، وذهبتُ إلى بيتي فوجدتُ ريحانتي في انتظاري، فعانقتُها عِناقًا حارًّا وانتَشَيْنا باللقاء بعد فترة الغياب، وقبّلتها مُستوحشًا هذا الشّذا الآسِر. كنت أُحِبُّ زوجتي حُبًّا كبيرًا وأَشتاق إليها كثيرًا لم أرغب في الزواج عليها لأنّها كانت تملأ عليَّ حياتي بلُطفها وصَفائها وعِلمها وصَلاحها وأدبها كان لي حمَّام خاصّ عَمِلَتْ أمل على تهيئته وإِحْمَائِهِ قبل وُصولي، فدخلتُ برفقتها ونَعِمْتُ هناك بعد مُنْقَلَبِي من السفر. وتمدَّدنا على أرضيّة الحمّام الساخنة فَتَعَرَّقَتْ أجسادُنا وكنت في شوق لِلِقَاء أمل، فأسندتُ رأسي على فخذها الناعمة البَضّة، وأخذَتْ تنظر إليَّ بحنان وحبّ، وتُخَلِّلُ شَعْرَ رأسي بأناملها الرقيقة، فَشَعَرْتُ براحة كبيرة. ثم قبّلتني على شفتيّ فأحسستُ بدفئهما، ثم تعانقنا عِناق الألف واللام في سرمديّة دائمة، فأحسست بحرارة زائدة، عالَجَتْها أمل بصبِّ مَاءٍ فَاتِرٍ على أجسادنا، بين الفينة والأخرى، تأخذه بطاسَةٍ فضّيّة، تَغْرِفُ بها من القُبِّ (سطل من خشب). وبعد أن دَلَكَتْ ظهري ودلَكْتُهَا، أَفَضْنَا علينا الماء، فزال ظاهر الجلد الميت. ثم استلْقَيْتُ أرضًا على لوح من رخام، ودلكتني أمل بصابون أسود يُصنع في بلدنا من نَوَى التمر المدقوق، ونوى الزيتون المدقوق، وزيت الزيتون والماء، ويغلى حتى ينعقد، فيعطي هذا الصابون البنّي اللون، المُلَيِّن

للبَشَرَة، والمُزِيل للجلد الميت. ثم قمت بدوري أدلك ظاهر جلدها البضّ الناعم، وانتشيتُ بهذه الرقّة والقرب في غفلة من الزمان. وبعد أن أنهينا، قمت إلى حوض الماء فملأت القُبَّ ماءً، ثم أَفَضْتُهُ على أمل، ثم عليّ، وكرَّرتُ ذلك مرّات. وفي الأخير، غسلَتْ لي أمل شَعْرَ رأسي بصابون مُعَطَّرٍ بالوَرد والياسمين، ومَرَّرَتْ منه على ظاهر جسدي، فأحسست بأنّ مسامّ جلدي قد تنفَّسَتْ وانفتَحَتْ من جديد. كان شعورًا جميلاً، وأحسستُ بلذّة عظيمة. وفَعَلْتُ بأمل ما فَعَلَتْ بي، ثم أفضنا علينا الماء، وخرجنا إلى قاعة الاستراحة، ولففنا على أجسادنا أثوابًا قطنيّة بيضاء. وبعد أن استرحنا، واعتدَلَتْ حرارة أجسامنا من جديد، نادت أمل على الخادمة، فجاءتنا بشراب ساخن محلّى بمربّى. خرجتُ من الحمّام مُهنَّأَ البال، ولَثَمْتُ أمل على شفتيها فابتسمَتْ، ثم عانقتني وقبّلتني بِشَغَفٍ أَثِير.

مكتبة الرمحي أحمد

وفي تلك الليلة، أتيتُ أمل راجيًا أن يرزقنا الله الولد، فأمضينا الليلة في اللثم والعناق والوصال، وارتفقْتُهَا بلطف حتى ساعة متأخّرة، ثم كان ما كان ممّا لا يستدعي البيان. وجرى منّي إنسانُ الماء، وانْسَلَّ على حقارته يَشُقُّ طريقه. وأحسسنا أنّ البِشارة بالولد كانت في هذه الليلة.

وما هو إلّا شهر حتى انقطع عن أمل ما اعتادت عليه كلّ شهر، فهبَّتْ إليّ مُبشِّرةً، فعانقتُها في لطف، وقبّلتُها في هذيان، ورُحْتُ أتخيَّل مَسير تلك النّطفة من صُلبي إلى رحمها

مرَّتِ الأشهر سِراعًا، وكنتُ دائمَ الرعاية والصون لأمل، سائلاً

عن حالها، مستفسرًا عن حَمْلِها، آمِرًا بالعناية بها، وتجنِيبِهَا كلَّ أسباب القلق والتنغيص حتى حان أوانُ وضعِها، فجاءتني بالولد، وكان ذلك من دواعي سُرورِنا وبهجَتنا وسعادتنا. أحسستُ كأنّي مَلفوفٌ في خِرقَة من قُطن أبيض، كما نقول في بلدنا، كناية على يُمْن الطالع. فهذا الولد الذي سيُحيي رَسْمَ بيت ابن الخطيب. أمّا أمل فكانت في غاية الفرح والسرور رغم عوارض الطلق التي أذهبتْ لِحِينٍ بعضَ نَضارتها، لكنّها كانت تُشِعُّ بجمال من طبيعة أخرى لم أعهدها من قبل، على الرّغم من عدم تَكلُّفها للزينة خلال شهور حَملها ووضعها. لكنّه نور الحياة الذي كانت تحمله في أحشائها.

فلمّا كان يوم السابع أقمتُ العَقيقة، وملأتُ المنية والنواحي أفراحًا بِمَقْدَمِ الولد السعيد الذي أسميتُه عبدَ الله، على اسم والدي رحمة الله عليه، إلى ما هنالك من تلاوةٍ للقرآن وأذكار وسماع ومدائح نبويّة هزَّتْ تلك النواحي بالطرب المحلِّق في سماء المعالي، من أصوات صُوفِيَّةِ الأربطة والمنقطعين إلى الله في ربط غرناطة وأحوازها، مثل رابطة اللجام، ورابطة لرييط، ورابطة العُقاب. وازدهى الحضور وانْتَشَوْا بالحُبور، وكانت أيّامًا مخلَّدة في غرناطة. وأفاض عليّ السلطان سابغَ بِرِّه، وهنَّأني بالزيادة الميمونة، فانهالَتْ على بيتي سحائبُ كرمه. أمّا أمل فكانت جوهرتي التي كنت مشغوفًا بحبّها إلى حَدِّ الجنون. فقد رزقني الله في هذه المرأة الصالحة خيرًا كثيرًا، واجتمع فيها الجمال والأدبُ والصلاح والحسب. وقلّما يظفر المرء بواحد منها، فكيف وقد تضافرتْ كلّها في أمل؟ فما أسعدني بها!

* * *

دبَّ الولد قليلاً ودرج، ورزقني الله غيره، وامتلأتُ بشعور عجيب زاحم تركيبي واستقرّ في ذاتي بحصول الذرّيّة، إنّه شعور الأبوّة الذي ينقل الإنسان من الإحساس بالوحدانيّة إلى التعدّد، بحيث يشعر المرء بتجديد مشروع أُبُوَّتِه في ابنه. هذا الإحساس بهذا الآخر الذي هو بعض الأنا. إنّ الابن ليس فقط صنيعة والده، كما يصنع المرء قصيدة أو عملاً ما، كما أنّه ليس مِلْكًا له. فالمِلْكُ أو السلطة لا تفسِّر علاقةَ الأبوّة والبنوّة. كما أنّ علاقة السَّبَب أو المِلكيّة لا تمكِّنان من فهم معنى الخصوبة والإنجاب. وهذا الشعور بالأبوّة ليس كسائر أنواع الشعور الأخرى التي تحصل للإنسان كالبهجة والفرح والحزن والغضب وغيرها، إنّه شيء آخر يُعيد تعريف مجال المرء مع ذاته والآخر، ويخلخل هذه العلاقة، بحيث يصبح هذا الطارِئُ الجديد بعضًا من ذات الإنسان. لهذا كانت الأُبُوَّة أمرًا عجيبًا في حياة مَنْ حصل له ذوقُها

دَرَجَتِ الأحداثُ في مملكتِنا وخارجِها، وعمل أبو الحجّاج بما أَوْصَيْتُ به في شأن أبي الفضل وأبي سالم. وتوطَّدَتْ علاقتي بأبي سالم كثيرًا، فصار من أصحابي، بعد أن حضرتُ عقيقةَ ولده أحمد. كان الولدُ آدمَ اللون من جهة أُمِّهِ زهرة، العربيّة القحطانيّة. فلمّا أردتُ تقبيلَ الصبي تمنَّع وبكى ومَسَكَ بِخِنَاقِي حتى آلمني، فابتسمتُ مُدارِيًا، لكنّي تَشاءمتُ مِنْ فِعْلِهِ مَعِي. ثم مازحني والدُه أبو سالم، فَنسيتُ الأمرَ من وقتي. وكنت قد داخلتُ أبا سالم في مسألة المُلْك حتى أَعْرِفَ منه ما ينبغي، وأَصُدَّهُ عن بَوارِقِ الطمُوح التي تُرْدِي بصاحبها إنْ أَنْصَتَ إليها مُتعجِّلاً بلا حكمة وتدبير فكان يُسِرُّ إليَّ بمكْنُون أفكاره ويُطلِعُني على خبايا أسراره، ونَصحتُه

مِرارًا، ويَعلمُ الله أنّي حذَّرتُه من أطماع أخيه في الملك، فانحاش لرأيي، ولم يستجب لداعي الفتنة النائمة. وكان حال المغرب والأندلس يستدعي الحزمَ، وقَطْعَ الفتنة من رأسها، وابتعادًا من أن تُودِيَ بصاحبها، وتُوقِعَهُ في مهاوي الردى.

ثم كان ما كان ممّا استوجب أن يُكاتبنا به السلطان أبو عنان حول أخيه أبي الفضل بعد أن نَمَتْ إليه أخبار أطماعه، ويَطْلُبَ إرساله إلى فاس. فلمّا وصل كتابه، استدعاني أبو الحجّاج للاستشارة في الموضوع، فأشرت عليه بِعَدَم إِسْلام أبي الفَضْل لأخيه حتى لا يُقَالَ عن غرناطة إنّها لا تُجِيرُ مَنْ أوى إلَيها. كان أبو الحجّاج مقتنعًا بالرَّأْيِ نفسه فَأَمَرَ بإِخْطَارِ أبي عنان بما انتهى إليه رأيُه، وتحفُّظِه على إرسال أبي الفضل، وعَدَمِ إِخْفَارِ ذِمَّةِ مَنْ أوَى إليه مِنَ المجاهدين، مع الالتزام الصريح بعدم مساعدته في مُناوَأَةِ سلطان المغرب. لم يَطُلِ الجوابُ كثيرًا، حتى وصلنا كتابٌ جوابي عنيف من أبي عنان. عندها اجتمعتُ مرّة أخرى بالسلطان، وأَشرتُ عليه بالسماحِ لأبي الفضل بالذهاب إلى مَلِكِ قشتالة، بيدرو الأوّل، والتَّخَلُّص من هذه المشكلة. ارتاح أبو الحجَّاج لمشورتي، وطلب منّي أن أستدعي أبا الفضل لمباحثته في الأمر

استدعيتُ أبا الفضل إلى بيتي لوليمة خاصّة، فلمّا وصل رحَّبتُ به بحفاوة بالغة، وعانقته مُطَوَّلاً حتى أَنِس إليّ، ثم سألتُه عن أحواله وشكرتُه على جهاده ضِدَّ قشتالة. ثم طَعِمْنَا مِنْ خِيَارِ المأكولات. ولمّا أخذ منّا الشّبَعُ مأخَذَهُ، أَمَرْتُ بِرَفْعِ الخِوَان. جلست إليه في بُرْطَالِ البيت أمام نافورة تَصْدَحُ في اعتدال، بمائها

الرقراق، على أرضيّة كُسِيَتْ بِزِلِّيج «الشيخ وعبده»، وهو زلّيج يَتَعَاقَبُ في انتظام بين زلّيجة بيضاء وأخرى سوداء في تتابع عجيب، فيبدو وكأنّه عبد يسير إِثْرَ سَيِّدِه. فلمّا أحسستُ بانشراح الرجل، قلت له: كيف هي أخبار السلطان أبي عنان؟

فأجاب بما يفيد حنَقَه عليه. ثم قلت له: هل ترغب في العودة إلى المغرب؟

فقال: تلك هي أمنيتي، ولكنّي أعلم أنّه يطلبني بعدما سمع أنّي أُرَتِّبُ لذلك.

فقلت له: أنت تعلم أنّك بجوارنا، وضيف عزيز علينا، وقد أبليتَ في الجهاد بلاء حسنًا، وسيرتُك محمودة، لكنّنا حلفاء مع سلاطين بني مرين ضدّ أعدائنا القشتاليّين. ونحن نأبى أن نُسلِّمَكَ لأخيك. كما أنّنا على الحِيَادِ فيما يَخُصُّ أبناءَ البيت المريني. فهل ترى رأيًا في كيفيّة الخروج من هذه الورطة؟

فقال: لعلّي أُسافِر إلى بلد آخر.

فقلت مُغْلِقًا أمامَه جميعَ الاحتمالات، سوى واحدٍ منها لم أذكره قَصْدًا: أنت تعلم أنّه ليس لك إلّا بنو عبد الواد في المغرب الأوسط، لكنّي لا أَضمَنُ لك النجاح لعدم قُدرَتهم على مواجهة أخيك أبي عنان.

فقال مستنتجًا، حسَبَ ما خطَّطْتُ له: وما رأيُكَ في بيدرو الأوّل، ملك قشتالة؟

أَبْدَيْتُ ظاهريًا مُفَاجَأتي من هذا المقترح، لكنّني كنت مَسرورًا

في باطني، فقلت: إنّه عَدُوٌّ لنا وعَدُوٌّ لأخيك، وسفرُك إليه يقع تحت مسؤوليّتك، وبِدُونِ رِضَانَا، لكنّنا لن نمنعك إذا قرَّرت السفر إليه.

فقال: إذن، ليس لأبي الحجّاج اعتراض على سفري إلى قشتالة؟

فقلت: إنّ هذا الحديث الدائر بيننا لم يَطَّلِعْ عليه بَعْدُ أبو الحجّاج، ولعلَّ مِنْ مَصلحتك ألّا يطَّلِع عليه إلّا بعد مغادَرَتِك.

فقال: إنّي قرَّرتُ الذهاب إلى بيدرو الأوّل، ولعلّه يُمِدُّنِي بالسلاح والرجال للمطالبة بحقِّي في الملك.

فقلت، وقد وصلتُ إلى ما كنتُ دبَّرْتُ له منذ البداية: هذا قرارُك، ونحن لا نمنَعُك كما لا نؤيِّدُك في الذهاب إليه، فأنت حُرٌّ في السفر إلى حيث تريد. ونحن سنبقى على الحِياد مع حلفائنا المرينيّين.

فقال: إذن، سأتصرَّفُ وَفْقَ ما هو الأصلح لي.

ثم استأذن في الانصراف وتوادعنا.

بعد انصرافه، خرجتُ مسرعًا لمقابلة السلطان على عَجَل، فأخبرته بما انتهى إليه الأمر مع أبي الفضل، وبيَّنتُ له كيف أنّنا تخلَّصنا من هذه المشكلة بإبعاد أبي الفضل عن غرناطة. شكرني السلطان على حسن تدبيري، وأمرني بترصُّد ما يصنع حتى يخرج من بين ظهرانينا.

لم تمض أيّام حتى خرج أبو الفضل إلى بلاط قشتالة فاستقبله

مَلِكُهَا بمودَّة وتِرْحَاب، ثم جهَّزَه بحملة بحريّة إلى المغرب. وكان ملك قشتالة يهدف إلى صَدِّ أبي عنان عن إمدادنا بالسلاح والرجال حتى يَسْهُلَ عليه مهاجمتُنا، لكنّني كتبتُ بأمر أبي الحجّاج، رسالة إلى أبي عنان أخبِرُه فيها بخروج أبي الفضل من غرناطة والتحاقه بقشتالة بعدما رفضنا مساعدته، ثم اعتزامِه الوصولَ إلى السوس الأقصى مع جنود قشتاليّين لاحتلال بعض المواقع في جنوب المغرب، وإشغال أبي عنان عن إمدادنا ومساعدتنا وبيَّنت للسلطان أَوْجُهَ هذه المؤامرة القشتاليّة، وعدم ضلوعنا فيها لأنّها ضدّ مصالحنا، وكيف أنّ هدفَ القشتاليّين منها إلهاءُ أبي عنان عن الأندلس، وفَسْحُ المجال لاستِفْرَادِ الممالك النصرانيّة بالمسلمين في مملكة غرناطة، واقتلاعهم من بلادهم.

ولم تمض أيّام قليلة حتى جهَّز أبو عنان حمْلَةً على السوس وهاجم القشتاليّين هناك، وقبض على أخيه، واقتِيدَ إلى فاس ثم قُتِل خنقًا ثم أرسل التعزيزات إلى جبل طارق وزاد في تحصيناته. وقد أرسلتُ رسائل اعتذار باسم أبي الحجّاج، يعتذر فيها عمَّا حَصَل، ويبرِّئُ نفسَه من الضلوع في هذه المؤامرة، ويُؤَكِّد على أَواصِر الأُخوَّة والتحَالُف بين فاس وغرناطة.

طبع النار

في هذه السنة نفسها من عام سبعمائة وخمسة وخمسين التي وَقَعَتْ فيها هذه الواقعة، حَلَّ عيد الفطر، بعد أن قضينا شهر رمضان في صَفَاءٍ وذِكْرٍ وتَعبُّدٍ وابتِهَالٍ. فلمّا كان فاتح شوال، خرجتُ مع السلطان لصلاة العيد في وقت الضحى. كانت الفرقة الموسيقيّة السلطانيّة تعزف طبع غريبة الحسين، وهو من الألحان الناريّة الحارّة اليابسة. ونغماتها لها تأثير وحنين. وقد كانت هذه النغمَةُ مُقَرَّرَةً عند خروج السلطان إلى المُصَلَّى في عيد الفطر، مُرَاعَاةً للمناسبة حيث إنّ جَارية اسمها غَريبة كانت مملوكة للموسيقي الحسين بن الغَوَّاص، فَسُمِّيَ الطبع باسمها مُضافًا إلى اسم سيّدها. وقد كانت ماهرة في العزف والآداب، واستخرجت هذا الطبع صبيحة عيد الفطر عند خروج الأمير إلى المصلّى، فاستمرّ هذا التقليد مُتَّبَعًا

قطعنا السبيكة ودخلنا من باب الخندق ومررنا على ربض المنصورة ثم ربض مورور، وسرنا بمحاذاة نهر هدارة حتى حمَّام

التاج، وقطعنا القنطرة التي تحمل اسم الحمَّام نفسه. وسرنا في الموكب حتى مررنا على المدرسة فاجتمع من رُوَّادِها إلى الموكب وساروا خلفَنا. ثم دخلنا الجامعَ الكبير الذي لم يكن به مَقصورة خاصّةٌ بالسلطانِ ورجالِ الدولة. فلمّا وصلنا أمامَ المحراب، نهض المسمِّعُ يَرْفَعُ صوتَه قائلاً: «حَضَرَتِ الصلاةُ يا عبادَ الله، وكرَّرها ثلاثًا». ثم صَلّى بنا الإمام وكبَّر سبعًا مع عَدِّ تكبيرة الإحرام، ثم قرأ بأمّ الكتاب، وأعقبَها بسورة سبّح اسم ربّك الأعلى، وركعنا ثم سجدنا. فلمّا كانت الركعة الثانية أتى الإمام بخمس تكبيرات عدا تكبيرة القيام، ثم الفاتحة وسورة والشمس وضحاها. فلمّا سجد سجدنا خلفه، وسمعنا حَشْرَجَةً ولَغَطًا، فرفعنا من السجود فرأيت رجلاً عَدَا على السلطان فطعنَه بخنجر، في غَفْلَةٍ من الحُرَّاس والمُصَلِّينَ الذين كانوا في سُجود، عن فِعْلَةِ هذا الغادر الآثم. قُطِعَتِ الصلاة وكَثُرَتِ الجلَبة وسُلَّتِ السيوف، وقُبِضَ على الرجل، وبدا وكأنّه مَمْرُورٌ (مجنون)، واستُنْطِقَ، فَتَكلَّم كلامَ مَخْبُولٍ. ثم حمَلْنا السلطانَ على رؤوسنا إلى الحمراء، وخرجنا من طريقٍ ثانٍ على سُنَّةِ العيد، على الرّغم من فتنة الحادث الرهيب، فقطعنا وادي هدارة من قنطرة العادل قرب الفندق الجديد، ثم اتّجهنا شرقًا نحو جامع غمازة، ودخلنا من باب الفخّارين، وخرج اليهود يبكون ويصيحون من حيِّهم لمّا سمعوا بمقتل السلطان، ونساؤهم يلطمن الخدود. أمّا أحبارهم فرفعوا كتبهم وصَلُّوا ترحُّمًا على السلطان. ثم دخلنا من باب الشريعة. وما كدنا نصل به إلى قصره حتى فاضَتْ روحُه، رحمة الله عليه. أمّا الممرور فقد أُخرِجَ للناس، فَمُزِّقَ لحينه وأُحرِقَ بالنار. وفي غمرة الأحداث، جاءني ابن زمرك

كما طلبتُ منه، فاستمهلته ريثما أَنتهي ممّا حصل. بقيتُ بقرب السلطان وأبنائه، ودَفنَّاه عَشيَّة ذلك اليوم في مقبرة القصر، لَصْقَ أبيه، وبايعنا ولده الأكبر محمّدًا، وكان في سِنِّ المراهقة، فورَ الانتهاء من الدفْنِ حتى نَسُدَّ الطريق على الأطماع.

* * *

وبعد ثلاثة أسابيع من وفاة أبي الحجّاج، بويع له مرّة أخرى وفق المراسيم المرعيّة. وحضرت الوفود من كلّ أطراف المملكة، ومن المغرب. وكَتَبْتُ له نَصَّ البيعة العصماء. وقد افتتحتُها على عادة الكُتَّاب بالحمدلة والتمجيد وتوابعهما، ثم تخلّصت إلى ذكر الدولة النصريّة في هذا الجانب الغربي الأقصى، ثم تخلّصت إلى ذكر السلطان الشهيد أبي الحجّاج، فقلت «ولمّا اختار الله ما عنده، وبلغ الأجل الذي قدَّره سبحانَه لحياته وحده، وقبضه إليه مطمئنًّا، مستغفرًا من ذنبه، في الحالة التي أقرب ما يكون العبد فيها من ربّه كأنّما تَأَهَّبَ للشهادة، فاختار زمانها ومكانها، وطهَّر بالصوْمِ نفسَه، التي كَرَّمَ الله شأنها، وطيَّبَ ريحَها وريحانها، فوقفت إزاءَ أرباب الشورى التي تصحّ الإمامة باتّفاقها. من أعلام العلم بقاعدة غرناطة، حرسها الله التي غيرُها لها تبع. وخلَّص الثقات، ووجوه الطبقات على مبايعة وارث ملكه، بحقّه الحائز في ميدان الكمال، وإحراز ما للإمامة من الشروط والخِلال. كبير ولده. ووارث مُلكه. مولانا قمر العَليا، ودرّة الخلفا. السلطان الفاضل والإمام العادل. أمير المسلمين وقرّة عين المؤمنين، أبو عبد الله، وصَلَ الله أسبابَ سعده. فبادروا وانثالوا وتبختروا في ملابس الأمن واختالوا، وهَبُّوا إلى بيعته.

على ما بويع عليه رسول الله ﷺ، ومن له من الصحابة والآل، وعلى السمع والطاعة، وملازمة الجماعة، فأيديهم بالسلم والحرب رَدٌّ ليده، وطاعتهم إليه خالصة في يومه وغَدِه، وأهواؤهم متّفقة حالَي الشدّة والرخَاء، وعهودهم محفوظة على تَداول السرَّاء والضرَّاء، أشهدوا عليها الله، وكفى به شهيدًا. اللهمّ إنّ قُطْرَنَا من مَادَّةِ الإسلام بعيد، وقد أحدقَ بها بحرٌ زاخِر، وعدُوٌّ شَديد. اللهمّ مَنْ بايعناه في هذا العَقد، فأسعِدْنا بمبايعته وطاعته، وكُنْ له حيث لا يكون لنفسه، بعد استنفاد جُهْدِهِ في التحَفُّظ واستطاعته، وكُفَّ عنَّا كَفَّ عَدُوِّكَ وعَدُوِّه، كلّما هَبَّتْ به رياح طاعته. .».

«وكتب الملأ المذكورون أسماءَهم بخطوط أيديهم في هذا الكتاب، شاهدة عليهم بما التزموه دينًا ودنيا، وسلكوا منه سبيلاً مبيّنًا، في الثاني والعشرين لشوّال من عام خمسة وخمسين وسبعماية».

* * *

بعد هذه الوفاة المباغتة، شعرتُ بغربة كبيرة وخوف كبير على مملكتنا، فأردتُ تدوينَ تاريخها، وشرعتُ في كتاب **الإحاطة في أخبار غرناطة**.

لزمتُ الحمراء التي كانت تَهَبُنِي ما كنتُ أَبحثُ عنه من راحة، وحينما يشتدُّ ضغط العمل عليّ، أستفرد مع ذاتي للتفكير والتأمّل، في جنّة العريف. فتراني أَخْطُرُ بين أشجارها، مُتمعّنًا في نباتاتها العجيبة، ثم أجلسُ في قُبَّة من قبابها، أسمعُ حَفِيفَ أوراق الشجر، وشَذْوَ الطيور. كانت الحمراء مثل وَاحَةٍ يَهِفُّ إليها الإنسان، ويَفِيءُ إلى سكونها وظلالها ومائها وكان مكتبي قريبًا في الحمراء، قريبًا من جنّة العريف، بحيث أخرجُ للترويح عن النفس من ضغط العمل، وأسلكُ من المَمَرِّ المغَطَّى، المبني فوق الخندق الذي يفصل القصر عن جنّة العريف. كان سلوكُ هذا الممرّ يُشعِرُكَ بأنّك جئت من عالم ودخلت في آخر. كنت ألزَمُ قُبَّةً صغيرة وسط أشجار السَّرو والتين والرمّان والريحان، أَخْلُدُ للتفكير تارة، والكتابة تارة

أخرى، فلا يشعر بوجودي أحد. ومن أعجب الأشياء التي كانت تُثيرُ فُضولي مَمَاشي الجنّة المسَوَّرَة بالريحان بحيث تَتِيهُ في ممرّاتها حتى تَضَلَّ طريقَك. وكان السلطان يُحِبُّ هذه المتاهة التي كان يُطلِقُ فيها جاريةً من جواريه الحِسان حتى تَضَلَّ المسكينةُ طريقَ الخروج، ويأخذَها الدوار والفزع، فتنتحب، حينها يظهر لها السلطان ويضمّها إليه حتى تستكين.

وقد رغب السلطان في توسعة الجنّة وإجراء بعض الأشغال فكلَّفني بتوسعة المتاهة وتعقيدها. وكان بقرب القُبَّة التي كنت أجلس فيها تلَّة صغيرة عَدَتْ عليها عدّة أنواع من النباتات، تعيق الجالس في الجنّة من رؤية عامّة للمدينة. كان غرضي أن أُزيلَ تلك التلّة لينفسحَ النظر أمام الجالس في القبّة. وكان على رأس التلّة شجرةُ سَرْوٍ صغيرة، وفي أسفل التلّة شجرةُ سَرْوٍ عظيمة، ثم شجرتان أخريان في الأطراف. كنت أتعجّب من تلك الأشجار التي غُرستْ بتلك الصفة التي تشبه الصليب. أشرفتُ على الأشغال بنفسي، وأمرتُ العمَّال بحفر تلك التلّة ونقل ترابها وأحجارها. وعادة ما كنت أجلس في قبّة الجنّة، بمرأى ومسمع من أولئك العمّال. ولمّا شارفَتِ الأشغالُ على الانتهاء، وتسوَّتِ التلّة تمامًا مع أرضيّة الجنّة، جاءني ذات يوم أَحَدُ العمّال مُهرولاً، فقلت له: ما وراءَك يا عَريف؟

فقال بعربيّة متعثّرة مع بعض كلمات قشتاليّة، فهمت منها: تعال معي يا سيّدي، فقد عثرنا على مدخل أرضي عند شجرة السرو، قرب سور الحديقة الخارجي.

نهضتُ مسرعًا حتى وصلتُ إلى المكان الذي دلَّني عليه، فأمرتُ العَريف بأن يُزيحَ الأتربة عن الباب الأرضي. ولمّا أُزيلت، أمرته بفتح الباب، ففتحه. وقبل أن أدخل، ناديت على بعض رجالي الذين أثق فيهم، وأمرتهم بحراسة المدخل. ورأيت أدراجًا تنزل إلى الأسفل، فأمرتُ بمصباح، ووضعتُ طرف ثوبي على رأسي ووجهي ثم دخلت بمفردي داخل السرداب الأرضي، بعدما طلبت من رجالي إبعاد العريف مع رجاله خارج السرداب. نزلتُ الأدراجَ حتى وصلتُ إلى أرضيّة مستوية، ووجَّهتُ المصباحَ إلى الجدران، فرأيتُ قاعةً كبيرة مُزَيَّنَةً برسوم مسيحيّة. ثم توغَّلتُ داخل القاعة، فرأيتُ حجرات صغيرة تضمُّ عِدَّةَ صناديق. هالني المنظر، وشعرت بالخوف، لكنّ طبيعتي العقربيّة كانت تدفعني إلى استكناه هذا المكان. وكأنّ الظلام يَستَفِزُّ فُضولي رغم المخاطرة، لكنّها كانت طبيعتي التي تَنْجَرُّ دائمًا إلى مُغازَلَةِ الخوف في تلك الحدود التي يقف عندها الإنسان في مواجهة نفسه. كنت أشعر بِرُعْبٍ كبير، لكنّني، في الوقت ذاته، كنت أَتُوقُ إلى معرفة أسرار هذا المكان، حتى ولو دَفعتُ بنفسي إلى حَتْفِهَا هي لعبةٌ لا يدركُها إلّا آحادُ الناس ممّن يحبُّونَ الحياة إلى درجة أن يُغازلوا الموت، في حدود ما تحتمل الأنفس. اقتربتُ من أحد تلك الصناديق، ووجَّهتُ ضوء المصباح نحوه، فرأيتُ العناكبَ قد حاكت خيوطَها عليه. مسحتُ بيدي عن واجهة الصندوق حتى عاينتُ حروفًا عَجَمِيَّة. قرأت بصعوبة كبيرة، وفهمت أنّ الناوُوس لأحد كبراء النصرانيّة. استعذت بالله، ثم فتحت الصندوق، فرأيت على صدر الهيكل العظمي المطروح في الصندوق، صليبًا. تمعَّنت جيِّدًا في هذا

الميّت، ثم أغلقت الصندوق. جُلْتُ جولة في القاعة، فرأيت أنّ بها مجموعة أخرى من الصناديق. ثم تقدَّمت إلى جوف القاعة، ورأيت خُرْصَةً حديديّة مَغروسة في الجدار. مَسكتُ بها فوجدتها محكمة الإثبات، حاولت قرعَ لَبِنَاتِ الحائط عدّة مرّات، فكان رجع القرع صامتًا. وأخيرًا قَرعْتُ اللَّبِنَةَ خلف الخُرصَة، فكانت جَوْفَاء. حاولت تحريكَ الخرصة الحديديّة عدَّة مرّات، وفجأة حرَّكتُها رُبْعَ دائرة، فانفتح في زاوية القاعة باب حجري. أُصِبْتُ بذعر شديد، لكنّي أضأْتُ المكان، فرأيتُ سِردابًا طويلاً توقَّفْتُ وفكَّرتُ قليلاً، ثم قرَّرتُ أن أَرجِعَ أدراجي. سَحَبْتُ الخُرصةَ مرّة أخرى ربع دائرة في الاتّجاه المعاكس، فانغلقَ البابُ كأنَّه لم يكن. خرجتُ مُسرِعًا من القاعة. ثم أَمَرْتُ العَريف ورجاله، الذين كانوا من نصارى غرناطة، أن يُغلقوا الباب، وأن لا يَتركوا أحدًا يدخله. وذكرت له ولرجاله أنّ الحجرة مقبرة يجب حفظ حرمة الراقدين فيها. تمتم النصراني بضع كلمات قشتاليّة تُنبِئُ عن ذُعره، ورسم إشارة الصليب على صدره. ثم أخبر باقي العمّال، ففعلوا مثل ما فعل كبيرهم. كان هؤلاء العمّال من طائفة نصرانيّة تعمل في أشغال البناء.

كنت أَزْمَعْتُ في قَرارة نفسي أن أعودَ إلى هذا المكان لأكتشفَ أسرارَه بمفردي. وفي الأيّام التي تَلَتْ، أنهى العمّال أشغالَهم، بعدما صَنَعْتُ قفلاً لباب الحجرة الأرضيّة، وأمرتُ البستاني بغرس نبات اللبلاب المتسلّق حتى يُغَطِّي مدخل السرداب. وبعدما اطْمَأنَنْتُ على الأمر، عدت إلى جنّة العريف في بداية فصل الربيع، مغتنِمًا غياب السلطان عن قصره إلى أن يَحُلَّ فصل

الصيف. جلستُ في القبّة كعادتي، فلمّا تَأكَّدتُ من خُلُوِّ المكان، قَصدتُ موضعَ شجرة السرو. ثم مَشَيْتُ بمحاذاة الجدار الخارجي بين النباتات والأشجار التي تمنع رؤية الجزء الأسفل من الجدار إلى حدود قامة إنسان. وبينما أنا أتجوّل وأُزيل النباتات الملتفّة إذا بي أقع على باب صغير في الجدار لا يفطن إلى وجوده أحد، يبعد حوالى عشرة أذرع عن شجرة السرو. كان لهذا الباب الصغير المُتَواري خلف الأغصان الصغيرة والأوراق المتهَدِّلة، قفلٌ صغير عبارة عن ذراع حديدي يدخل في ثقب في الجدار، من الداخل. فتحته، فإذا بي أمام نباتات وأشجار ملتفّة من الجهة الأخرى، جهدت في إزاحتها حتى خرجت إلى الجهة الأخرى، وهنا وجدت نفسي في ما يشبه غابة تلّيّة تجاور جنّة العريف. قفز إلى ذهني أنّ الباب مَنْفَذٌ سِرّيٌّ للخروج من جنّة العريف بدون المرور من قصر الحمراء، يرتبط مع الحجرة الأرضيّة السرّيّة. رجعت أدراجي وكانت عروش اللبلاب المتساقطة قد زحفت على باب الحجرة فأَخْفَتْهُ تمامًا بحثْتُ عن القفل حتى وجدتُه، وأدخلتُ المفتاح فيه فانفتح. ثم أشرعت مصراعًا ودخلت، بعدما أقفلتُ المصراع مجدَّدًا، وأخذت القفل معي. كان المكان مظلمًا، فأنرتُ المصباح وتقدَّمتُ حتى وصلتُ إلى الخرصة فأدرتُها فانفتحَ لي باب في زاوية الجدار الجوفي. كانت خطواتي مُتَعَثِّرَةً، وقلبي يَرْجُف من شدّة الهَلَع، لكنّي كنت مدفوعًا بطاقة الفضول، وكأنّي عَقْرَب يَنْسَلُّ إلى داخل جحره. كان الممرُّ ضيّقًا، وخيوط العنكبوت ملتفّة، متساقطة من سقف المَمَرِّ. أزحتُها وتقدَّمت في الممرّ الذي كان يلتوي كالمتاهة ثم ينزل حتى وصلتُ إلى جدار مَسدود. عاينتُ لبنات

الجدار مرّة أخرى، لأنّي كنت أتوقّعُ أنّ هذا الممَرَّ لم يُصنعْ إلّا ليُفضِي إلى مكان آخر، رغم وجود هذا الجدار المسدود. طرقتُ اللبنات واحدة تلو الأخرى، فلم أسمعْ صوتًا مُريبًا. أضأتُ المصباح في زوايا الجدار، فلم أعثر على شيء. تراجعتُ قليلاً فأحسستُ بشيء بارد ظننته ثعبانًا يتسلَّقُ ساقي. قفزتُ فجأة من الخوف لأنزعَ عن ساقي الجسم الغريب، فإذا بي أسقط على البلاطة التي انحشرَتْ إلى باطن الأرض بمقدار شبر، من جرَّاءِ ثقل جسمي. والواقع أنّ الفراغ بين البلاطتين كان يدفع قناة ريحيّة دقيقة أوهمتني أنّها حركة ثعبان يتسلّق ساقي. وجرّاء هذه الحركة، انزاح، فجأة، الجدار المسدود بالكامل إلى جهة اليسار، وانفتح أمامي الطريق.

دخلت، فإذا بي في قاعة صغيرة تشبه القبّة، كُسِيَتْ حيطانها برسومات مسيحيّة، تمثّل السيّد المسيح وأمَّه عليهما السلام، وفصولاً من حياتهما، إضافة إلى صور أخرى لشخصيّات مسيحيّة، وملائكة بأجنحة، ورسوم لخرفان وغيرها وفي جنبات المذبح أربعة مقاعد. ثم رأيت في جوف القاعة، خلف مذبح القاعة، صورة رجل أظنّه السيّد المسيح، وفوق رأسه شريط كُتبت عليه الأحرف الأولى (INRI) من عبارة لاتينيّة (Iesus Nazarenus Rex Iudaeorum) تعني يسوع النصراني، ملك اليهود، كما سبق أن أخبرني عن مثل هذه العبارة قسّ كنيسة غرناطة. وكان يسوع يحمل رمّانة في كفّه، وعند قدميه امرأة جميلة حامل تمسح رجليه. ثم رأيت بجانبها صورة أخرى للسيّدة العذراء داخل دائرة، تحمل وليدًا عاريًا يلعب برمّانة متكسِّرة، ويحيط بهما أطفال صغار. ثم

تيليجرام @ktabpdf

تقدَّمت لمعاينة هذه الصور الغريبة، ووجَّهت المصباح صوبها، فرأيت أنّ الرمَّانة التي كان يحملها السيّد المسيح، تَحتوي داخلها صورَ عدّة أشخاص، كلّ واحد منهم في شكل صليب. وفي هذه اللحظة تَذَكَّرت إحدى أشجار الرمّان المعمِّرة في جنّة العريف. وكانت هذه الشجرة أثيرة لدى السلطان أبي الحجّاج المقتول. كان بالقاعة مصباح جداري داخل مشكاة، حاولت أن أُوقِدَه، لكن يبدو أنّه وُضِعَ للزينة فقط، وبينما كنت أعالجه انزلق من يدي، ففوجئت بانفتاح دَرَجٍ ضيِّقٍ صاعد، انفتح داخل المشكاة التي كانت تحتوي على المصباح. تعجّبت من هذا، وصعدت الدرج لكنّي اصطدمت ببلاطة معترضة من سقف الدرج. لم يكن في المكان ما يوحي بإمكانيّة انفتاحها رغم محاولاتي المتكرّرة. أحسست بأنفاسي تختنق، وبضيق في هذا المكان، فعدت أدراجي، مُسَلِّمًا في أنّ الدرج ربّما يكون منتهى هذه القاعة، وآخِر أسرارها. خرجت من السرداب، وتنفَّستُ الصعداء بعد أن عدت أدراجي إلى الحديقة.

وفي تلك الليلة أصابني أرق شديد، فأزعجت زوجتي أمل التي لاحظت تقلّبي في الفراش. فلمّا كان منتصف الليل انتبهَتْ فرأتني لم يغمض لي جفن فقالت: يا أبا عبد الله، ألا تنام قليلاً؟

فقلت لها بلسان الحكماء: وكيف ينام من كان يعيش في غرناطة؟

فقالت: ولم ذلك؟

فقلت محاولاً التستّر على أَرَقِي المزمن: إنّ غرناطة يا أمل تمنع عاشقها من النوم.

مكتبة الرمحي أحمد

فقالت: أَوَتعشقها إلى هذا الحدّ، يا أبا عبد الله؟

فأجبتها: وكيف لا أعشقها، وهي آخر مدينة في الدنيا تحفظ كرامة الإنسان. أما ترين أفعال القشتاليّين من حولنا، وقد قضوا على شكل حياتنا وتسامحنا؟ كيف ينام عاشق في ليل غرناطة البهيج؟ كيف ينام من كان الليل عنده نهارًا للفكر؟ وهل ترك لنا القشتاليّون فرصة للنوم يا أمل؟

فقالت: لقد أصبحت ذا عمرين يا أبا عبد الله؟

فقلت: لقد أَصَبْتِ اللَّقَبَ يا أمل، فلم تعد عيناي تطعمان النوم، وكأنّي أعيشُ عُمْرَ النهار، وأعيش عُمْرَ الليل. لكنّي أريد أن أغتنم مُشاركتَكِ لي في أَرَقِي لأحدِّثَكِ عن أمر غريب حصل في جنّة العريف.

فقالت، وقد انتابها الفضول: عن أيّ شيء غريب تتحدّث؟

فأخبرتها بقصّتي مع الأشغال، واكتشاف السرداب، فتعجَّبَتْ ثم قالت لي: لا بدّ أن نعرف حقيقة هذا الأمر.

فقلت: ولهذا، أقترح عليكِ أن تذهبي من الغد لزيارة زوجة السلطان المقتول أبي الحجّاج يوسف، لتقديم العزاء.

فقالت: لعلّي أكون قد تأخّرت في ذلك.

فقلت: تَعلَّلِي بأنّك كنت مريضة، ثم حاولي أن تدخلي إلى القصر الصيفي في جنّة العريف حيث يَقطن السلطان مع نسائه. فإذا بَلَغْتِ هناك، فاستفهمي منها عن كلّ شيء يقودنا إلى سِرِّ السرداب.

فقالت: سأُجَهِّزُ نفسي في الصباح. ثم قبَّلتني، وطلبت منّي أن أنام.

* * *

وفي الصباح، خرجَتْ أمل لزيارة أمّ السلطان محمّد. كانت تعرف قصر الحمراء أيّامَ كانت تسكنُ في بيت والدها أبي الحسن ابن الجيّاب الوزير. كنّا في بداية فصل الربيع، وكان الطقس حارًّا فقرَّر السلطان التعجيلَ بالانتقال للسكنى في جنّة العريف قبل مَقْدَمِ فصل الصيف. استأذَنَتْ أمل في الدخول على زوجة السلطانَ المقتول، أمّ السلطان الحالي، فأذنت لها وقدَّمت لها العزاء، وجلسَتْ تُواسيها على فقد زوجها طلبَتِ الأميرة من أمل أن تُصاحبها للجلوس في مَنظرة القصر للإشراف على جنّة العريف. وفي طريقهما، التقتا بجارية روميّة حسناء ابتعَدَتْ عن طريقهما بسرعة، بعد أن نظرَتْ إلى أمّ السلطان نظرة غريبة، لم تَغْفُل عنها أمل. كما لاحظت أنّها كانت تَلبس ثوبًا أحمر اللون، وتُطَوِّقُ جيدها بعِقْدٍ ينتهي بشكل رُمَّانة على موضع اللَّبَّة.

سألَتْ أملُ صديقتَها الأميرةَ عن الجارية. فأجابت: إنّها من محظيَّات زوجي رحمة الله عليه. وهي بنت أحد ملوك النصارى، أُسِرَتْ في إحدى المعارك، فضمَّها أبو الحجّاج إلى حَريمه، وأَنْجَبَ منها واصلَت المرأتان المشيَ حتى وصلتا إلى المنظرة، فجلستا تتحادثان. لكنّ أمل كانت مشغولة بمراقبة الحديقة، فلمّا حلَّت ساعةُ الضحى، رَأَتِ الجاريةَ النصرانيّة تَتجوَّل في مماشي الجنّة، ثم رأتها تَقِفُ عند شجرة رُمَّان عظيمة، تُعَايِنُ ثمارَها التي

بدأَتْ تُزْهِر. وبعد أن تأكّدتْ من خُلُوِّ المكان، اختفَت المرأة فجأة خلف الشجرة. بقيَتْ أمل تراقبُ المكان متوقِّعةً خروجَها من خلف الشجرة، لكنّ ذلك لم يَحْدُثْ. وبعد فترة، رأَتْ أربعةَ حُرَّاسٍ ممّن يعملون في القصر يختفون خلف الشجرة نفسها، الواحد تلو الآخر. كتمَتْ أملُ الأمر عن أُمِّ السلطان، ثم قالت: كم هي جميلة تلك الشجرة؟ وأشارت إلى الرمّانة المذكورة.

فقالت الأميرة: إنّها شجرة مُعمِّرة جدًّا وإنّ مَحْظِيَّة زوجي الروميّة متعلّقَةٌ بها أشَدَّ التَّعلُّق، حتى إنّها طلبَتْ من أبي الحجّاج أن لا يَقْرَبَهَا أحد، وأن يُفرِدَها للعناية بها، وتخصيص وَقْفٍ خاصّ بها. وهي حريصة على عدم السَّماح لأيٍّ كان بالاقتراب منها، وجعلَتْ لها حرّاسًا من القصر يتناوبون على حراستها. كما عيَّنَتْ لها بستانيًّا، يخضعُ لأوامرها مباشرة.

فقالت أمل: ولماذا كلُّ هذه العناية بهذه الشجرة؟

فأجابت الأميرة: يبدو أنّها متولِّهَةٌ بثَمَرِ الرمّان. وقد أخبرتني أنّ والدتَها الروميّة أصابها الشرَهُ بالرمّان في فترة الوَحَم لمّا كانت حاملاً بابنتها. وقد أُشربَت حُبَّ شجرِ الرمّان وفاكهَتِه منذ صغرها.

لم تُطلِعْ أمل صديقتَها الأميرة على ما رأت من اختفاء المحظيّة الروميّة خلف الشجرة، وأكملَتْ حديثها مع صديقتها في أمور متعدّدة. فلمّا انتصف النهار، رأتْ أملُ المحظيّةَ تخرجُ من خلف الشجرة، ثم يخرج في إثرها الحرّاس. استأذنتِ الأميرةَ في الانصراف ثم خرجَتْ. وفي طريقها صادفَتِ المحظيّة، فسلَّمت

عليها فردَّت عليها المحظيّةُ السلام.

* * *

عادت أمل إلى البيت، وأخبرتني بما رأت، فقرَّرتُ أن أقف على حقيقة هذا السرِّ. وفي يوم الغد، امتَشَقْتُ سيفي على غير عادتي، وخرجتُ قاصدًا جنّةَ العريف في وقت مُبَكِّر، واقتربتُ مختبئًا بين الأشجار حتى لا يَلحظني أحد. وبينما كنت أتقدَّم في حذر وهدوء، رأيتُ حارسًا يخطُرُ قريبًا من الشجرة. ثم آخَر، وآخَرَيْنِ عند باب القصر. وفي سرِّيّة تامّة لم يَفْطنْ بها الحرس، دخلت إلى السِّرداب، ثم إلى القاعة وكَمَنْتُ في أحد أركانها بحيث لا يراني أحد. بَقِيتُ مُسَمَّرًا مُدَّةَ ساعة تقريبًا، فإذا بي أسمعُ دَرْدَبَةً، كأنّ حجَرًا قد زال عن موضعه. وما هي إلّا لحظات حتى رأيتُ نورًا خافِتًا يُضيءُ المكان. ثم رأيتُ امرأة تلبس قُفْطانًا أحمر اللون، تتقدَّمُ نحو المَذْبَح. وبعد فترة قصيرة دخل الحرّاس الأربعة الذين رأيتُهم من قبل. وبعدما وضعوا أسلحتَهم أرضًا، جلسوا على المقاعد الأربعة في القاعة. ثم أخرجَتِ المرأة كتابًا، وكأسًا وطاسةً فضّيّة من دُرْجٍ أسفلَ المذبح. رأيت المرأة تفتح الكتاب، وتقرأ بصوت رخيم باللسان اللاتيني. لم أفهمْ منطوقَ الكلام، لكنّي كنت أُدرك أنّها تقرأ من الإنجيل، أو يبدو لي هكذا الأمر. وبعد أن أنهت قراءَتها جَثَتْ على ركبتيها باتّجاه أيقونة السيّد المسيح وأُمِّهِ عليهما السلام، ثم رسمَتْ علامةَ الصليب وتقدَّمَتْ أمام المذبح، فقام الحرّاس نحوها، فَسَقَتْهُمْ من الكأس، وأخرجَتْ لهم رُقَاقَةً صغيرة من العجين وضعَتْهَا في أفواههم. ثم قبَّلوا يدَها بحرارة وخُضوع، وعاهدوها على الوفاء حتى الموت. ولمّا أَنْهَوا

القُدّاس، تقدَّمَتِ المرأةُ وكلَّمَتْهُم بلسان قشتالي مع بعض كلمات عربيّة، فَهِمْتُ منها أنّها تسألُ عن أسرةِ واحدٍ منهم، لكنّي لم أُدْرِكْ لماذا لم يَكُنْ حَاضِرًا في القدّاس. ثم سمعتُهُم يُخبرونَها بأنّهم قَدَّموا لأسرة صاحبهم العَون. وفي تلك الأثناء طلبَتْ منهم أن يَستدرِجوا الوزير إلى السِّرداب. راعني ما سمعتُ، وفَهمتُ أنّها كانت تَقصِدني، وعَلِمْتُ أنّ الأمر مُدبَّرٌ للإيقاع بي.

ثم تابعَتْ حديثَها الذي كنتُ أفهمُ منه أنّها طلبَتْ من رجالها توظيفَ أَحَدِ أتباعِهِم من غرناطة لمهمَّةٍ سِرِّيّة أخرى. وخلال الحديث فهمتُ أنّها كانت وراءَ قتلِ أبي الحجّاج، وأنّ الممرورَ الذي قَتَلَ السلطان لم يكن مجنونًا، وإنّما هو واحدٌ من نظام الرمّانة، الذي تردَّدَ ذكرُه مرارًا في الحديث. وسمعتُها تُوبِّخُ رجالَها لأنّهم لم يُفْلِحُوا في استدراج الوزيرِ إلى القاعة، ففهمتُ أنّها كانت تَقْصِدُني، وتجمَّد الدم في عُروقي لَدى سماعي لخيوط هذه المؤامرة. فأجابها كبيرُ الحرس بأنّهم حاولوا استدراجي إلى داخل السرداب، وطلبوا من عَريف العُمَّال بأن يُخْبِر الوزير بوُجود حُجرة أَرضيّة، لكنَّ الوَزير أَمَرَ حُرَّاسَه بالوُقوف عند المدخل لحِراسته. وخَوفًا من انكشاف الأَمر آنذاك، فإنّهم لم يقتلوني. ثم أخبروها بأنّه بعدما صنع قفلاً لباب السرداب، فإنّهم يتحيّنون الفرصة للانقضاض عليه متى علموا بدخوله إلى السرداب الأرضي.

لم أكن أُصَدِّقُ ما أسمَع، لأنّه لولا العِناية الربّانيّة لقتلوني داخل السرداب بدون أن يعلم بذلك أحد، لكنّ الله أرشدني إلى دعوة رجالي في الوقت المناسب، حيث لم أَكُنْ أَثِقُ في هؤلاء

القشتاليّين الذين كنّا نُشَغِّلُهُمْ. وقد صدقَ ظنّي فيهم الآن.

ثم أخرجَتِ المرأةُ رسالةً من زعيم نظام فرسان شانت يعقوب، كانت قد وصلَتْها ذلك الصباح فَتَلَتْهَا على رجالها ومُلَخَّصُها بعد السلام والبركة من الرَّبِّ على الأميرة وأتباعِها، يُوَجَّهُ الأمرُ بقتل السلطان محمّد ووزيره ابن الخطيب، حتى تَعُمَّ الفوضى، ويسهل مَحْوُ مملكة غرناطة إلى الأبد، وتنصيبُ ابن الأميرة المحظيّة، ملِكًا على المملكة المسيحيّة الجديدة.

كنت أَرْجُفُ ممّا أسمع، لكنّي التزمتُ الصمْتَ حتى لا يَفطنَ الحرّاس لوجودي. ثم انتابَتْنِي الرغْبَةُ في العُطَاس من تأثير الأجواء الرَّطبة في هذا القَبْو، فَعَطَسْتُ محاولاً كَتْمَ أنفاسي، لكنّ الحرس انتبهوا إلى جهة الصوت، وصرخت الجارية تأمرهم بقتلي. أخرجتُ سيفي وأَجْهَزْتُ على أقربِهم إليَّ، ثم أعملتُ الفرارَ. التفَتُّ خلفي، فرأيتُ الباقين يُسرعون إلى أسلحتهم، لكنّي كنتُ قد أَدَرْتُ الخُرصَةَ، وفتحتُ البابَ لجهة السرداب الأوّل، ثم أغلقتُ الخرصةَ مرّة أخرى خلفي، فانغلقَ الباب، وخرجتُ مُسرعًا. وما هي إلى لحظات حتى كنتُ خارجَ السرداب. ناديتُ على بعض رجالي الثِّقَات الذين كانوا بالمكان، ثم وقفنا مُتَرَصِّدِين لأتباع نظام الرمّانة. تقدَّم أحدُ المجرمين وأَطَلَّ برأسه، فتلَقَّفَهُ سيفُ أحدِ رجالي، فطارَ الرأسُ منفصلاً عن الجسد. ثم تقدَّمَ الآخران، فتعاوَرَتْهُمَا السُّيُوفُ، ودارت معركة، حُسِمَتْ لصالحنا، وقُتِلَ الخائنان. دخلتُ مرّة أخرى بمفردي إلى السرداب، ثم القاعة، فوجدتُ أنّ الأميرة الخائنة قد اختفَتْ، فعلِمْتُ أنّها تمَكَّنَتْ مِنْ فتح

البَلاطَة السرِّيّة، وأصبحَتْ في الحديقة حيث شجرة الرمّان. عدتُ أدراجي مسرعًا مع رجالي، بدل أن أُضَيِّعَ الوقتَ هناك في البحث عن طريقة للخروج، وأمرتُ أحدَ رجالي بحراسة المدخل. وبعد أن خرجتُ من السرْدَاب، توجَّهتُ إلى القصر الصيفي. ثم استأذَنْتُ في الدخول على السلطان، بعد أن أمرتُ رجالي بحراسة حَريمِ النساء في القصر.

أَذِنَ لي السلطان بالدخول، فأخبرتُه بالقصّة كاملة، فانزعَجَ أَيَّمَا انزعاج، وحَزِنَ على اغتيال والده بتدبير هذه الخائنة. ثم قمنا إلى الحريم، ودخل السلطان إلى حيث تَقْبَعُ المحظيّة. فلمّا دخلنا دُورَهَا، ألفيناها تَستَعِدُّ للفرار مع خادمتِها الوفيّة، وصاحب بريدها. أمسكَ بها الحَرَسُ السلطاني. وبعد أن رجعنا لمجلس السلطان، بدأتُ في استنطاقها، فأقرَّتْ بجرائمها من دون محاولة منها للتستُّر أو إخفاء الحقيقة، ثم قالت لي: لولا أنّك نجوتَ يا ابن الخطيب، لكان لي شأن آخر معك.

طلبتُ من الرجال تفتيشَ أمتعتها، فوجدنا الرسالة التي بعثها زعيم نظام فرسان شانت يعقوب، وفيها الدليل على تآمرها على مملكتنا. ثم سألتُها عن ابنها، فقالت: لقد كنتُ أنوي أن أُنَصِّبَهُ على عرش غرناطة، بدون أن أضطرَّ إلى قتل أبي الحجّاج، لكنَّ السلطانَ رفض طلبي، وعيَّن ابنه الثاني محمّد وليًّا للعهد. فلمّا فقدتُ الأمل في تنصيب ولدي ملكًا على مملكة غرناطة، قرَّرتُ قتلَ أبي الحجّاج. ولولا اكتشاف سرّي، لكنتما من الهالكين، ونَصَّبْتُ ابني مرّة أخرى. ثم سألتُها: ولماذا كنتِ ترغبينَ في

تنصيبِ ابنِكِ وليًّا للعهد؟

فقالت: لأنّه يحملُ الدمَ الملكي، فأنا بنتُ ملك، ويجري في أعراقي دَمُ المسيح عليه السلام.

فقلت: كيف هذا؟

فقالت: تلك قصّة طويلة، ومُلخَّصُها أنّ للسيّد المسيح، عليه السلام، ذُرّيّةً من مريم المجدليّة، هي التي رأيتَ صورتَها في قاعة الصلاة، تحت الأرض.

فقلت: إنّها المرأة التي كانت تمسح رجليه.

فقالت: نعم، إنّها زوجتُه التي أنجب منها. وقد حافظ نظام الرمّانة على تلك الذرّيّة قرنًا بعد قرن إلى يومنا هذا.

فقلت لها: وما علاقة ذلك بالرمّانة؟

فقالت: باختصار شديد، الرمّانة رمز للكنيسة الحاضنة لجميع أبنائها. كما أنّ حبّات الرمّانة تشير إلى تلك الذرّيّة المقدّسة من السيّد المسيح.

وسألتها: وما علاقة نظام الرمّانة هذا بمملكتنا؟

فأجابت: يا أيّها الوزير، أَوَلا تعلم أنّ غرناطة تعني الرمّانةَ بلساننا؟

فقلت: قد أكونُ سمعتُ هذا من قبل، لكن لم أربط بين الأمرين.

فقالت: إنّ المدينة لم تحمل هذا الاسم إلّا لأنّ النظام تأسّس

أوّلاً في هذه المدينة، والسردابُ السرّي أحدُ الأدلّة على ما أقول. ولولا حكم المسلمين للأندلس لكان نظام الرمّانة قد امتَدَّ من هنا إلى سائر الممالك النصرانيّة. وقد كان الهدف من إنجابي من السلطان أبي الحجّاج هو تنصيبُ مِلِك من صلبي يُعِيدُ النظام إلى قوّته، ويُلحِقُ هذه المملكة بسائر الممالك النصرانيّة.

فقلت على لسان المعتَبِر: قد كادت غرناطة الرمّانة أن تَغُرَّنَا لولا أنّ الحكم فيها كان ختامًا **للطهر والهداية**. فأوّلها غُرُورٌ لولا أنّ آخِرَها استِمْدَادٌ من «طٰه» وطَهُورٌ (**غرنا ـ طٰه**). ثم أَخَذْتُ رُمَّانَةً مِنْ آنِيَةٍ في المجلس، وأنشدتُ:

رُمَّانَةٌ رَاقَ مِنْهَا مَنْظَرٌ عَجَبٌ   تُرِيكَ صُورَتَهَا إِبْدَاعَ بَارِيهَا
كَأَنَّمَا حَبُّهَا دُرٌّ وَظَاهِرُهَا   حُقٌّ، وَمِنْ شَحْمِهَا قُطْنٌ يُوَارِيهَا

وسألتها مرّة أخرى: هل كان الرجل الذي قتل أبا الحجّاج من عصابتكم؟

فأجابت: نعم، لقد أمرناه أن يَدَّعِيَ الجنون حتى لا يُفشي سِرَّنا، وأقسم على الصليب المقدّس بتنفيذ المهمّة وحفظ الأسرار. وكنتُ قد أزمعتُ أن أُوَظِّفَ رجلاً آخر لقتلِكُمَا معًا، حتى كشفتَ هذا السرّ في هذا اليوم.

ثم سألتُها سؤالاً أخيرًا عن كيفيّة الدخول إلى القَبْو، فأخبرتني بدون تَسَتُّر، أنّ ذراعًا قائمًا على جدار قائم في نهاية المَمْشَى المُحَاذي لشجرة الرمَّان الكبيرة، هو الذي يَفتحُ البلاطَةَ المعترِضَةَ من الخارج. كما أنّ ذراعًا مماثلاً يوجد أسفلَ المذبح في داخل

القاعة، هو الذي يفتحُ البلاطةَ الكبيرة من الداخِل.

فلمّا سمعنا اعترافَها، أمر السلطانُ بقتلِها مع خادمتها وغُلامها ثم استأذَنْتُ السلطانَ في أن أستبدل بجميع النَّصارى العاملين في القصر عُمَّالاً مُسلِمِينَ بعد التأَكُّد من ولائهم.

وافقني السلطان، فأشرفتُ على هذه العمليّة، ووضعتُ رجالاً يَحْظَوْنَ بِثِقَتِي في كُلِّ الوَظائِفِ في القصر.

أمّا السِّرْدابُ الأرضي والقَبْوُ، فقد قرَّرتُ استخدامَهما لوقت الحاجة إليهما.

وفي ظِلِّ تآمر قشتالة على مملكتنا، طلبَ منّي السلطانُ السِّفارةَ عنه إلى فاس لدى أبي عنان، فأجبتُه إلى ما استشارني بشأنه لطلب المَعُونَة من سلطان المغرب على أعدائنا القشتاليّين. رجعتُ إلى البيت واستقبلَتْنِي أملُ متلَهِّفَةً لِتَلَقِّي آخِر الأخبار، فأعلمتُها بالقِصَّةِ كاملة، فَحَمِدَتِ اللهَ الذي أنجاني من كيد تلك المَوْتُورَة. ثم أخبرتُها بما أوكلني به السلطان من السِّفارة، فَحَزِنَتْ لِشِدَّةِ تَعلُّقها بي، لكنّي أخذتُ بخاطرها وتَلَطَّفتُ معها حتى اطمأَنَّتْ.

وبعد أيّام قليلة، خرجتُ من غرناطة رفقةَ وَفْدٍ أندلسي رفيع، باتّجاه المغرب. وفي الطريق، نظمتُ قصيدة في حَقِّ السلطان أبي عنان. وصلنا إلى فاس بَعْدَ عِدَّةِ أيّام من السَّفر، وبعد أن نزلنا في دُورِ الضيافة، استقبلنا السلطان، فاستأذنتُه قبل جُلوسي في إلقاء قصيدتي، فأذن لي، فأنشدته:

خَلِيفَةَ اللهِ ساعَدَ القَدَرُ عُلاكَ ما لاحَ في الدُّجَى قَمَرُ

وَدَافَعَتْ عَنْكَ كَفُّ قُدْرَتِهِ مَا لَيْسَ يَسْطِيعُ دَفْعَهُ البَشَرُ
لَيْسَ لَنَا مَلْجَأٌ نُؤَمِّلُهُ سِوَاكَ أَنْتَ الثِّمَالُ والوَزَرُ[1]
وَجْهُكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرُ دُجًى لَنَا وَفِي المَحْلِ كَفُّكَ المَطَرُ
والنَّاسُ طُرًّا بِأَرْضِ أَنْدَلُسٍ لَوْلاَكَ مَا أَوْطَنُوا وَلاَ عَمَرُوا
وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّهُ وَطَنٌ فِي غَيْرِ عَلْيَاكَ مَا لَهُ وَطَرُ
وَمَنْ بِهِ مُذْ وَصَلْتَ حَبْلَهُمُ مَا جَحَدُوا نِعْمَةً وَلاَ كَفَرُوا
وَقَدْ أَهَمَّتْهُمُ نُفُوسُهُمُ فَوَجَّهُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا

فلمّا أنهيتها، اهتزَّ أبو عنان طربًا، وأذِنَ لي في الجلوس، لكنّه أردفَ قبل أن أجلِسَ: لا تَرْجِعُ إلّا بجميع مَطالِبك.

وكان يومًا مشهودًا، إذ لم يَسبِقْ لسفير قَبْلِي قضى سفارَته قبل أن يجلس أو يُسلِّمَ على السلطان. ولم نخرج من عنده إلّا وقد غمَرَنَا بوافر العطايا، وَوَعَدَنَا بالمعونة على قشتالة بعد أن أطلَعْتُهُ على تَحَرُّشَاتِهَا المتَكَرِّرَة وانقلاباتِها الدَّنِيئَة علينا

ثم دعاني إلى مجلس خاصّ لمنادمته. فلمّا خَلَوْتُ به، كانت إحدى جواريه تُوَقِّعُ على عود، وتغنّي بصوت شجي بعض الطبوع الموسيقيّة من المزموم وغريبة الحسين والمشرقي الصغير وحمدان.

---

(١) هذا البيت والذي بعده، يَنْظُرُ إلى بيت الإمام عليّ بن أبي طالب، في مدح النبي عليه الصلاة والسلام:

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوجهه ثِمَالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

الثِّمال الملجأ، الوَزَر: الجبل الذي يُلجأ إليه.

وأثناء عزفها وغنائها رأيتُ وجه السلطان يَتَصبَّبُ عرَقًا، وتعلوه صُفْرَةً قويّة، كانت تزداد كلَّما واصَلَتِ الجاريةُ العزفَ والغِناء، فأمَرْتُها بالتوَقُّفِ حالاً استغربَ السلطان من تَصَرُّفِي وأنا بمجلسه وتحتَ أمره ونَهْيِهِ، فنظر إليّ نظرةً مُنْكَرَةً، فقلت له معتذرًا: يا مولاي، أرجو أن تُسامِحَني، لكنّي أرى أنّ غناءَ الجارية وعَزْفَها لا يصلحان لك.

فسألني مُستَنْكِرًا: ولماذا يا تُرَى؟ وهل تَعرِفُ ما يَصْلُحُ لي ممّا لا يَصْلُحُ، وأنت بين يدي؟

فأجبته: يا مولاي، إنّ الجاريةَ كانت تُغَنِّي في طبوع لا تُناسب مِزاجَك لأنّها طبوعٌ ناريّة حارّة يابسة. وقد عَلَتْكَ صفرة ويبوسة أثناء العزف والغناء، فأمرتها بالتوقّف، خوفًا عليك، وحفاظًا على صحّتك.

سكت السلطان، وبدا وكأنّه شعر فجأة بصحّة ما قلته ممّا كان يُحِسُّ به، فسألني: وما هو السبب في ذلك؟

فأجبته: يا مولاي، إنّك بلا شكّ تعاني من داء الكبد، وله تأثير في الصفراء. ومن أعراض المصابين بهذا الداء ظهورُ الصفرة على الوجه وظاهر البشرة. وهذه الطبوع الموسيقيّة الناريّة التي كانت تؤدّى ممّا يهيّج الصفراء.

فسألني: وبماذا تنصح؟

فأجبته: سأطلب من الجارية أوّلاً أن تُغَيِّرَ الغناءَ والعزفَ في الطبوع المائيّة الباردة الرطبة التي تناسب طبع البَلْغَم، والمضادّة

لطبع الصفراء حتى يعتدل المزاج. ثم وصفتُ له الدواء المناسب، ووعدتُه بإرسال الطبيب إبراهيم ابن زرزر اليهودي من غرناطة ليُشْرِفَ على علاجه من تلك الصفرة.

فقال: فلتطلب إذن من الجارية أن تغنّي الطبوع المطلوبة.

فقلت للجارية أن تغنّي في طبوع باردة رطبة، مثل الزيدان والأصبهان والعشّاق والحجاز المشرقي والحجاز الكبير والحصار والزوركند.

امتثلت الجارية، وعدَّلت عودَها وسوَّتْ أوتارها، ثم شرعَتْ في الغناء، فأخذَ الشحوب ينقَشِع عن وجه السلطان، وبدا عليه الاطمئنان والطرب.

ازداد إعجاب أبي عنان بي، وشكرني شكرًا مضاعفًا على نصيحتي له، وأسبغ عليَّ نِعَمَهُ، ثم استأذنتُه في الانصراف، فأذن، وأكَّدَ عليّ في إرسال الطبيب ابن زرزر إلى فاس.

عُدْتُ مع الوَفْدِ المرافق لي، وحقَّقْتُ انتصارًا كبيرًا، فقرَّبني السلطان محمّد، وأطلق يدي في أمور الدولة، فَصِرْتُ الآمر والناهي، مع الحاجب رضوان، الذي كان يُجِلُّنِي ويقدِّرني. لكنّ هذه الحُظوة أَوغَرَتْ صدورَ آخرينَ بالحسد، فَسَعَوْا في الخفاء ضدَّ هذا الحِلف الجديد بين الحاجب والوزير، اللذين كانا يتصرّفان في أمور المملكة ويُقرِّران في السياسة العامّة، نظرًا لحداثة سِنِّ السلطان. ومن بين هؤلاء الذين أوغر صدورهم هذا النجاح، ابن عمّ السلطان، محمّد بن إسماعيل الرئيس، الذي سبق أن أُبعِد عن تدبير أمور المملكة بعد أن أصبحتُ مع الحاجب رضوان من كبار

رجالات الدولة. لم أُحَاوِل الدخول في عَدَاءٍ مباشر معه نظرًا لقرابته من السلطان، لكنّي كُنْتُ أَرْقُبُ حَرَكَاتِه، وحَدَبَهُ على صهره إسماعيل، أحدِ أبناء السلطان المغتال أبي الحجّاج، لكنّي لم أَتَدَخَّل في شؤون البيت النصري، رغم أنّي ساهمتُ في تولية محمّد الخامس. ومن أسباب هذه العَداوة أنّ أبا الحجّاج كان قد رشَّح ابنه إسماعيل ثم عَدَلَ عن ذلك لولده الآخر محمّد. وكنّا ندعُمُ، أنا والحاجب رضوان، ترشيحَ محمّد، بسبب ضُعْفِ إسماعيل وتَخَنُّثِهِ. فلمّا اعتلى محمّد الخامس على رأس مملكتنا، أَبْعَدَ ابنَ عمِّه محمّد ابن إسماعيل، وحجب أخاه إسماعيل في بعض القصور مع أمّ أخيه وأخواته، وسمح لهم بالتصرّف في المال الكبير الذي تركه أبوهم السلطان أبو الحجّاج. وقد وجد محمّد بن إسماعيل الموتور من يسانده للثأْرِ من إبعاده، فتحالف مع زوجة السلطان أبي الحجّاج، والدة إسماعيل. أمرتُ رجالي بمراقبة حركات هذا الحزب الموتور، لكنّي كنتُ أُراعي حُرمةَ زوجةِ أبي الحجّاج لأياديه البيضاء عليّ. أمّا الحاجب رضوان، فإنّه لم يكن يعبأ بهذه العداوة، وكان اليَدَ التي نفَّذَ بها محمّد الخامس قرارَ حجب إسماعيل وأمِّه وإخوته في أحد قصور غرناطة، فنَقَمُوا عليه. كما أنّ ابن عمّ السلطان، محمّد بن إسماعيل، كان يَكرهُ الحاجبَ لأنّه كان يُمَنِّي نفسه بالحصول على هذا المنصِب، إلّا أنّ محمّدًا الخامس كان يعلمُ قربَه من زوجة أبي الحجّاج، ودعمَه لأخيه إسماعيل بسبب مصاهرته معه، إذ إنّ محمّد بن إسماعيل كان قد تزوّج أختَ إسماعيل، فكان يميل إلى صهره، وقد عمل في عهد أبي الحجّاج على ترشيحه لولاية العهد، لكنّ مسعاه خاب لمّا انحاش أبو

الحجّاج إلى رأي الحاجب رضوان، وكنت أدعمُ ذلك الموقِف، فقرَّر سحبَ ولاية العهد من إسماعيل، وترشيحَ أخيه غير الشقيق لهذه الولاية، وهو ما تَمَّ، بحيث أَصْبَحَ محمّد الخامس سلطانًا بعد اغتيال أبي الحجّاج.

أمّا بالنسبة لسياستنا مع قشتالة وأراغونا، فقد حاولتُ أن أستَغِلَّ التناقُضات التي كانت بين المملكتين لتعميق الشقاق بينهما، ممّا سيكونُ له أَطْيَبُ الأثر على إبعاد شَبَح اتِّحادِهما ضِدَّنا. ورغم وُقوفِنا على ما قامت به مَحظيَّةُ أبي الحجّاج، إلّا أنّنا تلقَّيْنَا رسائلَ مُطَمْئِنَة من قِبَلِهِمْ، وإعلان تَبَرُّئِهم من اغتيال السلطان، لكنّهم أَقَرُّوا بأنّ أطرافًا مُنشقَّة في قشتالة تدين بالهرطقة هي التي كانت وراء عمليّة الاغتيال. وخلال تلك السنوات القليلة، تلقَّينا طلبًا من قشتالة لدعمها ضدّ أراغونة، فسارعتُ إلى إقناع السلطان بالاستجابة لهذا الطلب، نظرًا لمصلحتنا في كسب وُدِّ قشتالة القويّة. وكان الخلاف قد دبَّ بين المملكتين، فاستجاب السلطان محمّد لمؤازرة بيدرو الأوّل وأرسلنا ثلاثَ فِرَقٍ لمساعدته، كما سمحنا لأسطوله باستعمال موانئنا البحريّة، وجهَّزنا فرقة من الفرسان لمهاجمة الحدود الأراغونيّة.

* * *

وفي رمضان من سنة سبعمائة وستّين، أخبرني رجالي بكثرة الزيارات التي كانت تقوم بها زوجة أبي الحجّاج المقتول إلى صهرها محمّد بن إسماعيل، فأمرتُ العُيون بمراقبتهما. وأخبرني الثقات من رجالي أنّ الزوجةَ الموتورة استغلَّتْ أيّامَ شَهْرِ رمضان،

فكانت تُوَزِّعُ المال بسخاء على الجنود وأهل القصر والحرّاس والخدم، فرابني الأمر، وداخلتُ السلطان في الأمر، ونصحتُه بالانتقال إلى جنّة العريف حتى أستوثِقَ من الأمر، إذ كنتُ خائفًا عليه. وصادفَ ارتفاعُ الحرارة في غرناطة خلال هذا الشهر، فانتقل السلطان على وجه السرعة إلى جنّة العريف، بعد أن عملتُ على كتمان أمر انتقاله إلّا بين مجموعة من الخُلَصَاء. ولم ينتقل معه سوى بِطانَتِه القريبة جدًّا وفي عَشِيَّةِ ذلك اليوم ذهبتُ للإفطار معه، بعدما استدعاني لذلك، فوجدتُه مُنشرِحًا مسرورًا، وطلب منّي أن أماشِيَه في مَمَاشي الجنّة حتى يَحِينَ أَذانُ المغرب، فتحدَّثْتُ إليه. ثم جلسنا في القبّة الأثيرة عندي في جنّة العريف، التي كنت أَلْزَمُها، فجلسنا هناك للتمتُّع بالنسيم العَليل بين السواقي الجارية وجُيوش النوّار والأَزاهير. ودعا السلطانُ بالإفطار، فجاء بعض الخدم مُحَمَّلين، وبقي اثنان منهما ينتظران خلفَنا أوامر السلطان. أذَّن المؤذّن لصلاة المغرب، فَصَلَّينا، ثم تناولنا الفطور. وأفطر الخدم على الماء والتمر، ثم وقفا ينتظران. وخلال تلك الأثناء، أعلَمَنِي السلطان أنّه يُفَكِّرُ في إبعاد أخيه وزوجة أبيه اللذين يسكنان في أحد قصور الحمراء. حاولت أن أُثنيه عن الأمر حفظًا لحرمتها، ورعْيًا لمودّة والده أبي الحجّاج. وكان بعض الخدم قد التقَطَ حديثنا. شعر السلطان بحَرجِي في الكلام وتَحَفُّظِي في العبارة، فاستفهمني قائلاً: ما لي أراك لا تُفصِح عمّا تعتقد يا أبا عبد الله؟

فقلت: معاذ الله يا مولاي، وإنّما أرجو أن لا تُبعِدَ زوجةَ أبيك من قصر الحمراء حتى لا يتقوَّلَ الناس في هذا الأمر، في شهر الصيام والقيام.

مكتبة الرمحي أحمد

فقال معترضًا: وهل أنت غافل عمّا تفعله، من إفساد غلماني وخدمي وحرسي بالمال الذي تُوزِّعه عليهم.

فقلت: لا يمكننا يا سيّدي أن نَلومَها على السخاء في شهر رمضان الكريم، شهرِ الجود. ومهما يكن، فهي زوجة أبيك.

فقال: وكيف المعمول: تُكرِمُ هؤلاء كما أكرمَتْهُم، فَيُغَطّي إحسانُك على إحسانها

فأجاب: وهل من حقِّنا أن نُفسِد هؤلاء بكثرة العطاء، وخزينةُ الدولة محتاجةٌ لمثل هذا المال في تقوية دفاعاتنا، وتشييد الحصون، وتجهيز الحملات العسكريّة.

فقلت: صدقتَ يا مولاي، ولهذا أرى أن لا تُعِير هذا الأمر كبير عناية. فإن شاءت زوجةُ والدِكَ أن تَصرِفَ مالَها، فلها ذلك.

فقال السلطان: أخشى أن تُفسِدَ عليّ غِلماني وخدمي، وتوظِّفَهم ضدّي.

فقلت: يا سيّدي خُدَّامُك أوفياء لك، كما أنّ رجالات الدولة يعرفون كلّ ما يجري، ويراقبون كلّ أمر مُريب.

فقال السلطان: لكنّي لا أَسْتَمْرِئُ هذا الأمر، ولا أُحِبُّ أن يُفسِدَ عليَّ أَحَدٌ غِلماني، ولهذا سأجعلُ لزوجة أبي وولدها قصرًا خارج الحمراء.

وفي هذه الأثناء، لاحظت أنّ أحدَ الخادمين الواقفين خلفنا، انسحب في هدوء، وترك صاحبه واقفًا على خِدْمَتِنا

فقلت: الأمرُ أمرُكَ يا مولاي، لكن، لو انتظرتَ حتى يَمُرَّ العيد وأيّامُه.

ثم دعوته إلى التَّجَوُّل في المماشي مرّة أخرى، ورأيت الخادمَ الآخر منشغلاً عنّا بأخذ ما فَضَلَ مِنْ أطايِب الطعام ليُكْمِلَ تناوُلَ فطوره. اِلْتَفَتُّ يمينًا ويسارًا، ثم تقدَّمنا نحو السروة العظيمة، وتقدَّمتُ نحو باب الحجرة الأرضيّة المتواري خلف أغصان اللبلاب المتهَدِّلَة في كلّ مكان. ثم ماشاني السلطان إلى أن وصلنا إلى حيث يتوارى الباب الصغير المفتوح في جدار الجنّة. أزحتُ النباتات، فتعجَّب السلطان من وجود هذا الباب الذي لم يسمع به من قبل. ثم فتحتُ القفل القديم، وأصبحنا خارج الحمراء وجنّتِها، في غابة ملتفّة. وبقدر ما أثار وجود هذا الباب السرّي فضولَ السلطان، بقدر ما أثار مخاوفه، فَطَمْأَنْتُهُ، وأعلمتُهُ بمدى سِرِّيَّتِه، وعدمِ معرفةِ أَحَدٍ به، سوى ما كان من محظيّة أبيه، والزعَانِف الذينَ كانوا معها، وقد قُتِلوا جميعًا. ثم رجعنا إلى السروة العظيمة، فأزحتُ أغصان أُمِّ الشعور المتهدِّلة، وفتحتُ الباب. ثم أَسْرَجْتُ مصباحًا، وطلبتُ من السلطان أن يَدْخُلَ في أثري، فتبعني وقُدْتُهُ إلى السرداب. فلمّا رأى صناديق الموتى، تَعَوَّذَ من رؤيتها، فَطَمْأَنْتُه، ثم أَدَرْتُ الخُرصة فانفتح الجدار، ودخلنا إلى قاعة الصلاة، فعاين ما فيها، واقشعَرَّ بدنه، فأخبرتُه عن تفاصيل ما جرى سابقًا، وشرحت له دلالة الصور المرسومة على جدران قاعة الصلاة. ثم أطلعتُه على الدرَج الذي يُفْضِي، بعد فتح البلاطة، إلى حيث شجرة الرمّان. عاين السلطان هذه الأسرار بِتَعجُّبٍ شديد. ثم أوضحتُ له كيف فَتَحْتُ البلاطة وصَعِدتُ الدرَج، فَصَعِدَ خلفي،

فألفينا نَفْسَيْنَا بجانب شجرة الرمّان، التي كانت محظيّةُ أبيه تمنَعُ غيرَها من الاقتراب منها.

وهنا قلت للسلطان: إنّ هذا السرداب وهذه القاعة الأرضيّة مع الباب الصغير الخارجي، مَكْمَنٌ عجيب لعلّه ينفعنا. فَأَوْمَأَ برأسه، ثم دخلنا إلى القصر، والتحق بنا الحاجب رضوان، الذي أَخْبَرَ السلطان بما ينبغي من أمور مستجدَّة بخصوص زوجة أبيه المتوفّى، فقال: لقد تأَكَّدَ لنا يا مولاي أنّ زوجة والدك المرحوم تَحوكُ الدسائس مع ابن عمّك. وهي تتعلَّل بزيارة ابنتها، لتتباحث مع ابن عمّك، الرئيس أبي عبد الله. والرأي عندي أن نُعَجِّلَ في إخراجها من الحمراء مع ابنها، قبل أن يشتَدَّ بأسُهُمَا علينا ونحن جاهزون يا سيّدي من الليلة لنقلِهما إلى مكان أعدَدناه لهذا الشأن خارج الحمراء.

تعجَّبتُ من سرعة الترتيبات التي اتَّخَذَهَا الحاجب، والتي كان عليّ أن أَفْطنَ إليها خلال حديثي مع السلطان الذي أبدى إصرارًا في إخراج زوجة أبيه وابنها إلى خارج أسوار الحمراء، لكنّي كنت أعتقد أنّ السلطان كان يبدي رغبةً عارضةً فقط. أمّا الآن، فواضحٌ أنّه اتَّفَقَ مع الحاجب على تنفيذ الأمر بأقصى سرعة.

فقال السلطان: فلتنقلوهما في صباح الغد مع جميع أسرتهما، قبل أن يقومَ الرقباء، وتَكْثُرَ الحركة. ولْتُشَدِّدُوا الحراسة على محلِّ سكناهما الجديد.

فأجاب الحاجب: السمع والطاعة يا مولاي.

ثم نظر إليّ السلطان قائلاً: لقد حصحص الحقّ يا ابن

الخطيب. فهذه المرأة استغلَّتْ طيبةَ قلوبِنا، وتجاسرَتْ على المجاهرة بعدائنا، بل إنّها بدأَتْ تَحْلُم بوضع ابنها على العرش بمساعدة ابن عمّنا. ولا بدّ أن نَحْسِمَ الأمر قبل أن يَتَّسِعَ الخَرْقُ على الرَّاتِق.

فقلت: أَمَا وأنَّ الأمر بهذا الشكل، فالحَسْمُ في موضع الفتنة لا يَقبَلُ التأخير، ولو لِلَيْلَةٍ واحدة. ثم استأذنتُه في الانصراف، وخرجتُ رفقةَ الحاجب. تماشينا حتى خرجنا من جنّة العريف، فَدَلَفَ هو إلى قصر الحمراء لتنفيذ الترتيبات بخصوص ما أمره به السلطان، في حين ودَّعتُه وانصرفتُ إلى بيتي.

* * *

دخلتُ بيتي فوجدت زوجتي في انتظاري، فأخبرتها بما استَجَدَّ، وبعد أن تناولنا العَشاء وأدَّيْتُ صلاة العِشاء والتراويح، أخلدتُ للنوم، إلّا أنّ أَرَقِي تضاعفَ هذه الليلة، وأحسست بشعور غريب، وتوجُّسٍ حَادٍّ من حصولِ أَمْرٍ مُزْعِج. وفي السَّحَر قُمْتُ فتسَحَّرْتُ على تمرتين وشربة ماء، ثم تهيّأتُ للصلاة. إلّا أنّي سَمِعْتُ طَرْقًا متسارعًا على الباب، وتناهت إلى سمعي حركة غير عاديّة في بيتي، فَقُمْتُ إلى الباب مَذْعُورًا، وأَنَرْتُ المصباح، ولبستُ بعض ثيابي على عجل، وما هي إلى لحظات حتى كَبَسَنِي بعض الحرّاس الذين رأيت النار في عيونهم. فاقتادوني بدون هوادة إلى الحمراء، مُعَصَّبَ العينين. لم تنفع كلّ محاولاتي في ثَنْيِهِمْ عن هذا الاضطهاد، فلم يُجِبْنِي أحد بشيء حتى أوصلوني إلى مكان بارد رطب، ونزعوا العصابة عن عينيّ، ثم رموني في قَبْوٍ مظلم.

وحسبُكَ من فظاعته أن تعلمَ أنّ أَثَرَ النعمة الوحيد فيه نُثَارَةٌ من التبن المتعفِّن بالرطوبة الزائدة على أرضيّته.

ولا إِخَالُكَ أيّها النَّبيه الذي يَقْرَأُ كلامي، لا تدرك معنى أن تُمْسِي في نِعمة، وتُصبحَ في نقمة هذا القبو الذي يُذَكِّرُكَ بأنّ العجماوات أفضلُ حالاً منك. لم يكن هذا ما قَضَّ مضجعي، بل فضولي المتعاظم في معرفة ما حصل. تحاملتُ نفسي، وقمتُ للصلاة مع أنّ خاطري مُشَوَّش، فلم تَنْجَمِعْ لي همَّةٌ، وبقيتُ شاردَ الذِّهن، فلا أدري بأيّ سورة صَلَّيْت. ولعلّي سَلَّمتُ أو لم أُسَلِّمْ للخروج من الصلاة. ثم بقيتُ تلك المدّة أُقَلِّبُ الاحتمالات كلَّها. فَمِن اِحتمالِ دَسيسَةٍ بثَّها الأعداءُ ضدّي، إلى تَحوُّل المُلْكِ إلى يد رجل ثان، إلى استيلاء أحد بني مرين على الملك، أو دخول القشتاليّين إلى غرناطة. لم أظفر بشيء. وكلّما سَكَنْتُ إلى احتمال، هاجمني آخر، عَطَّلَ الأوّل، فما إن أَسْتَسْلِمُ إلى الثاني حتى يُفاجِئني آخر. وبقيت في دور الاعتقاد المسلسل، الذي كثيرًا ما حذَّرَنا منه مشايِخُنا في العقيدة، والذي يُصِيبُ النظّار الذين تَصَدَّرُوا للبحث في عِلَلِ الوجود، باعتقاد التسلسل بين العلل، والانتقال من علّة أدنى إلى علّة أعلى، وهكذا دواليك.

ولم يصبح الصباح، إلّا وقد هَرِمْتُ بفاجعة هذه الليلة التي أَكَلَتْ من عمري نَضارَتَهُ وزَهْرَتَه. ثم سمعتُ جلبةً وأصواتَ أبوابٍ تُقْرَع وأخرى تُصَرْصِر، وَوَقْعَ أقدامٍ متلاحقة تَصعَد، وأُخرى تنزل، فلكأنّها حَلَّتْ في ذاتي، وكأنّ وجِيبَ قلبي تناغمَ معها، فضبط إيقاع نبضه على وقعها، صعودًا وهبوطًا، وصار يصرصر كما

كانت، ويقرع صدري كما يقرع الطارق الباب. فأيُّ عذاب أهول من هذا الذي لا يحَلُّ في خارج عنك إلّا لينقل العدوى إلى ذاتك؟ فلا تسأل عن تضاعف الكَمَد بذلك، وزيادة الغمِّ بما لا ينفكّ عنك إلّا ليصبح منك. وبينما كنت أدافعُ هذا الخِضَمَّ المتلاطِمَ من عذاب الخارج، وعذاب الباطن، أتاني قوم، سُلَّتِ الرحمة من سَحْنَاتِهِم، وكشَّروا عن أنيابهم، وجَفَوْنِي بِاصطِكَاكِ كلماتهم، التي طَرَقَتْ مَسْمَعي كأنّها أصواتُ مَرَدَةِ سَقَر. حينها، خِلْتُ أنّ الساعةَ قامَتْ، وأنّ جحافلَ منكر ونكير قد نزلَتْ في قبر ذاتي، فَقَرَعْتُ أَنَامِلَ أَسَفِي على ما فرط من تضييع وقتي، بما لم أُحسن الاستعداد له من ملاقاة ربّي على أحسن هيئة، وفي أفضلِ حال. ثم اقتادني أولئكَ المرَدَةُ في غلظة وجفاء، وانتهروني في ذِلَّة وشقاء. لم أملك من أمري إلّا الحوقلة والحَسْبَلَة. وفي طريقي إلى حيث لا أدري، أَخُرُوجًا من قبري لملاقاة جُفاتي، أم سُقوطًا في أُوَارِ نَارِ عِدَاتي؟ تغيَّرت عليَّ معالم الزمان والمكان، ووقعتُ في وهم الانتقال من آن إلى أَوَان. ثم رأيت أقوامًا كأنّي كنت أعرفهم فيما مضى من شبيبة العمر في قصر الحمراء. بعضهم يولول، وبعضهم يستجير، فلم أدر، هل بي أم بالوزير؟ وتفاقمَ الغيمُ في أُفْقِ إدراكي، فلم أَعُدْ أَذْكرُ سالفَ عهدي في الوزارة وغيرها وبينما نحن نسير في تلك الدهاليز إلى حيث لا مصير، إذ بي أَمَامَ جَافٍ أَحْسبُ أنّي أعرفه في دار الدنيا، يسائلني قائلاً: أين الشارَةُ والوزارة يا ابن الخطيب؟

فقلت لنفسي: هل هذا يخاطبني، أم لعلّه يخاطب ذاتًا أخرى تتراءى من ذاتي؟ فقلت: الشارة لأصحاب الإشارة، والوزارة لأهل الزيارة. فَعَنْ أَيِّ شَارة، وعن أَيِّ وزارة تتحدّث؟

قهقهَ السفيهُ، وتناثر ضحكه في الهواء، حتى لكأنّه رَعْدٌ قَاصِفٌ مُزَمْجِر، فقال: أَبِكَ جُنُونٌ يا ابن الخطيب؟

اعتراني الشكّ، وحَسِبْت أنّ تسميته لي بابن الخطيب من باب السخرية، فقلت: لا أرى خطيبًا في هذا الوقت سواك.

زاد العُتُلُّ بَطَرًا وكبرياء، فقال: فأين الإنشاء الذي قَصَمَ الجبابرة؟ أم أنّ الخَرَس قد اعتراك، والخطابةَ قد فارقَتْ لسانَك.

كنت أستمع إليه وأستفيد منه في تعريفي بذاتي قبل كون زمان هذا اليوم، وأَحْسَبُ أنّ شعرًا طرق جَناني في هذه اللحظة، فقلت:

قبل كَوْنِ الزَّمانْ وَوُجودِ السُّكْر
أسكرتني بِدَانْ الهوى والخَمْرِ

فقال العُتُلّ: لقد أصبحتَ تهذي، وتكسَّرَت كبرياؤك في أَوَّلِ الحادثات، فكيف لو داهمَتْكَ الخطوب يا ابن الخطيب؟

لم أَدْرِ كيف أُجِيبُ هذا البَطِر، وأَطْرَقْتُ رَأْسِي، وبدأ الرشد يعود إليّ، وخِلْتُ أنّ سِنَةَ الغفلة والكرى بدأت تنقَشعُ عنّي، فانْتَبَهْتُ إلى ما حولي، وأَحَسَّ محمّد بن إسماعيل بِتَحَوُّلي فقال: لقد بُدِّلَتِ الأرض غَيْرَ الأرض، يا ابن الخطيب، فقد فَرَّ سلطانك إلى وادي آش هذه الليلة بطريقة لا نعلم كيف تَمَّتْ. أمّا حاجبه فقد داهَمْنَا قَصْرَهُ، وقتلناه بين أهل بيته، فتعشَّينا به قبل أن يُفْطِرَ بنا. أمّا أنت فقد كَبَسْنَا دارَك وقبضنا عليك، ونهبنا أموالك، وأودعناك السجن، وسَتَمْثُلُ اليومَ أمام السلطان الجديد، فتأَهَّبْ لهذا الأمر.

رجع لي وعيي، ورأيتُ آثارَ دخانٍ ونارٍ ودماءٍ تلطَّخَتْ بها الحمراء، وتذكَّرْتُ كثرةَ أَرَقِي، إذ مَنْ أصبحَ نهارُه على نقيض ليله، كيف يَنْعَمُ بالنوم؟ لا نَوْمَ في غرناطةَ بَعْدَ اليوم.

وَصَلْنَا إلى قُبَّة العرش حيث يَجْلِسُ شابٌّ وَسِيمٌ بَدِينٌ، خَنِثُ الحركات، فلمّا رآني قَهْقَهَ بصوت فيه أنوثة ونَزَق، حاول أن يُخْفِيَ به ارتباكَهُ وخوفه من وُقوفي أمامه. ثم قطع علينا محمّد بن إسماعيل حَرَجَ هذه اللحظات بقوله: بَايِعْ مولاكَ إسماعيل الثاني.

فقلت: أُبايِعُ على ماذا؟

فقال: أَوَتجرؤ؟

فقلت: أبدًا، وإنّما أنا رجل بات في كَنَفِ سلطان، ثم إذا به يصبح في كَنَفِ آخر، يجلس في المكان الذي كان يجلس فيه الأوّل. أَوَأُلَامُ على السؤال؟

فقال محمّد بن إسماعيل: أَوَلم تُدْرِكْ بَعْدُ رغم هَوْلِ هذه الليلة أَنَّ الأرضَ تبدَّلَتْ؟

فقلت: عُذْرًا، فلم يخبرني أحد بما حصل.

فقال: لقد قلتُ لك إنّ الحاجب المتآمر قد قُتِلَ هذه الليلة، وإنّ سلطانَك الغاصب قد هرب إلى وادي آش، وهذا مولاي إسماعيل الثاني الذي أَتَشَرَّفُ بمصاهرته، قد اعتلى عرشَ أسلافه الميامين، كما كان قد قَرَّر والده رحمة الله عليه، لولا أنّ ذلك الحاجب التعيس قد غيَّر قلبه عليه وعلى صهره.

فقلت: لا بأس أن أبايع كما يبايع غيري، لكنّي لست في حالة

لائقة بالبيعة، وأرجو إمهالي حتى يجتمعَ رجالُ الدولة وأَفَاضِلُ الناس، وأبايعَ معهم.

وهنا تكلَّم السلطان الخَنِثُ قائلاً: دعه يا صِهْرَنَا، وأَلْقِهِ في السجن، أو افعل به ما شئت، فإنّ القوم سيأتون للمبايعة في يوم مشهود، نروي به غُلَّة ما أصابنا من سالف استبداد القوم بأمرنا، وتطاولهم على حقّنا.

عجبتُ لأمر الفتى يتكلَّم بهذه الفصاحة رغم خِسَّته الظاهرة. ثم أسعفني محمّد بن إسماعيل قائلاً: هيّا، ٱخرج من حضرة السلطان إلى سجنك الذي ستلاقي فيه حتفَك. وبينما كنتُ أَهُمُّ بالانصراف، إذ دخلَتْ علينا أُمُّ السلطان الجديد باديةَ الانشراح، فقالت، تُخاطِبُ صهرها محمّد بن إسماعيل: مَهْلَكَ يا محمّد، فإنّ لي حاجة بابن الخطيب. ثم تَوَجَّهَتْ إليّ: ماذا قلتَ لسلطانك البارحة في قبّة جنّة العريف يا ابن الخطيب؟

وهنا أدركتُ بقوّة الاستنتاج أنّها كانت تشير إلى ما دار بيني وبين السلطان من حديث خاصّ، لم يتورَّع محمّد الخامس أن يَطْرُقَ به سَمْعَ بعض خُدَّامه الذين كانوا خلفنا في القبّة، فأخبرتُها بدون محاولة إخفاء الحقيقة، ما دار بيني وبين السلطان.

فقالت أمّ إسماعيل: صَدَقْتَ، وقد أخبرني رجالي وعيوني بما دار بينكما في تلك العشيّة، وما نصحتَ به السلطان من حفظ حرمتي مع ابني. ولولا قولُك هذا لَكُنْتَ اليومَ من الهالكين.

وهنا علمتُ أنّ السلطان لم يحترِسْ في كلامه معي، وعاتبني على تردُّدِي في أمرهما، لكنّني قلت كلامي وقتَها، تَقِيَّةً من الخدم،

لخبرتي بعدم تناول الحديث أمامهم، فهم يسعون بكلّ خبر لكلّ ناحية. فلا يَضْمَنُ المرءُ كتمَ أموره عن أعدائه المتربِّصِينَ به. ولولا عناية الله التي جعلتني أنتبِهُ للحركات المُريبة لهؤلاء الخدم، لكنتُ اليوم من الهالكين كما قالت. ثم إنّ انسحابَ أحد الخدم فجأة آنذاك، كان من أجل نقل كلامنا إلى زوجة أبي الحجّاج بأقصى سرعة، فاتَّخَذَتِ الحِيطةَ والحَذَر، وكَبَس رجالُ محمّد بن إسماعيل الحاجبَ رضوان في قصره وقتلوه بين عِياله وخدمه، قبل أن يُدَبِّرَ أمرَه للفتك بهم.

ثم توجَّهَتْ لولدها: إنّ ابن الخطيب بَرِيءٌ ممّا نُسِبَ إليه، وقد أخبرني رجالي بما قاله ليلةَ البارحة للسلطان المخلوع في حقِّنا، والرأي عندي أن تَفُكَّ سراحَه، وتبقيه في منصبه كما كان.

فقلت مغتبِطًا ومُداهِنًا: أَرَأَيْتَ يا مولاي أنّي بريء ممّا رُمِيتُ به، وها هي مولاتي تشهد لصالحي بما عَلِمَتْهُ من أمري. وإنّي أُبايِعك على هذا الأمر كما بايعتُ أباك من قبل.

فقال السلطان الجديد: لقد بَرِئَتْ ذمَّتُك يا ابن الخطيب، وأرجو أن تكتبَ لي نصّ بيعة تنسخُ البيعة السابقة التي كتبتهَا للسلطان الغاصب.

فقلت مداهنًا: سأُحَبِّرُهَا لك تحبيرًا يا مولاي.

نظر إليّ محمّد بن إسماعيل، صهرُ السلطان، بِحَنَقٍ، إذ لم يكن راضيًا عمّا انتهى إليه أمري.

لكن بقي عليّ أن أستفهم عن كيفيّة هروب السلطان إلى وادي

آش، فقلت مُظهرًا الجهل: وكيف خرج السلطان السابق إلى وادي آش؟

وهنا انتفضَتِ المرأة، وظهر على جبينها عِرْقُ الغضب، فقالت بحدّة نسائيّة أجهَلُهَا: لقد نجا ذلك الوغد بطريقة لم نهتد إليها بعد، ولكنّ أحدًا مَا ساعده في سلوك طريق سرّي آمِنٍ مَكَّنَهُ من الخروج من قصر جنّة العريف. إنّ أمر هروبه لُغْزٌ يُحيِّرني.

ثم سألتني بلهجة مُهدِّدة: هل تعلم عن ذلك شيئًا يا ابن الخطيب؟

فقلت مُسارعًا بالجواب: لا أعلم عن ذلك شيئًا إلّا ما سمعتُه هذا الصباح. وقد كنتُ معه في البارحة، ورجالُكِ سمعوا كلامي ونقلوه بالحرف. ثم انصرفْتُ مِنْ عنده إلى بيتي حتى أَتاني الجند فكبسوني عند السحور.

فقالت: لا بأس، سنكتشف الطريقة التي فَرَّ بها

هنا أَدْرَكْتُ أنّ السلطان فتح البلاطة قرب الرمّانة، ثم دخل إلى القاعة، وفتح الخرصة، ثم صار في السرداب، ومنه خرج قرب شجرة السرو، ومشى بمحاذاة الجدار حتى فتح الباب الخارجي، فصار خارج الحمراء وجنَّتِها ولعلّه وجد بعض رجاله ممّن يحرسون نواحي القصر، فركب معهم على فرس، حتى وصلوا إلى وادي آش، وفيها رجاله المخلصون. ولعلّه كاتب سلطان المغرب الجديد، أبا سالم إبراهيم، الملقّب بالمستعين بالله، والذي كان ضيفًا علينا، وربطتني به صداقة وَوُدٌّ، وصحبته معي بحرًا في الرحلة من سلا إلى الأندلس، بعد أن طلب منّي السلطان أبو عِنَان أن

أصحب أخويه معي إلى الأندلس حتى لا يشاكساه في حكم المغرب. أمّا أحد الأخوين فقد قُتل، وبقي أبو سالم حتى جاءت ساعته بعد وفاة أخيه السلطان أبي عِنَان، فساعدناه على طلب الملك، وأَخْذِ البيعة من أهل المغرب. ولعلّه اليوم يُسعِفنا فيما فرط من سالف بِرِّنَا به، ومَوَدَّتِنَا له، وصداقتنا إيّاه.

خرجتُ من عند السلطان الجديد، ورجعت إلى أهلي فوجدتهم في حالة من الهلع، فطمأنتُهُم، ثم سألتهم عمَّا فعلوا بهم، فأخبرتني أمل أنّهم لم يتعرَّضوا للأذى، لكنّهم عانوا من شدّة القلق عليّ.

أمضيت بضعة أيّام في وظيفتي، ثم عُزلتُ عن الوزارة بسعي من صهر السلطان الذي كان يَنْقِمُ عليّ، ثم تَمَّ اعتقالي في السجن، وأُخِذَتْ أموالي، وما جمعتُهُ من عملي، وما خَلَّفَهُ لي والدي. وخلال مُكْثِي في السجن، زارني تلامذتي ومن بينهم ابن زمرك فقلَّدْتُه مهمَّة إرسال رسالة كتبتُ بها إلى أبي سالم، الذي كان من أصدقائي، أطلب تدخُّلَهُ للسماح لي بالخروج من السجن والجواز إلى المغرب. كما زارني الطبيب إبراهيم ابن زرزر اليهودي، وأخبرني أنّه قرَّر السفر إلى إشبيلية للعمل عند الملك بيدرو الأوّل، الذي انتهج سياسة التسامح مع اليهود والمسلمين. حاولت أن أثنيه عن السفر لكنّه أجابني بأنّ مطالعة النجوم تشير إلى أنّ بقاءه في غرناطة مقترن بهلاكه، ولا بدّ له من السفر. كان إبراهيم طبيبًا مقدَّمًا، ومنجّمًا كبيرًا. وقد أُعجِب به أبو عِنَان لمّا أرسلته له من غرناطة، فعمل على التخفيف من حدّة مرض الكبد المزمن الذي

كان يعاني منه، والذي كانت أعراضه بادية عليه. لم أكن أملك أن أبقيه في غرناطة، والحال أنّي مسجون، فتعانقنا ثم ودَّعني ودموعه تجري، ثم تعاهدنا على أمل أن نلتقي في أوقات مناسبة.

وفي السجن، كنت أُفكِّر في حالي، وما صرت إليه، فَعَزَفْتُ عن الدنيا وتمنَّيت أن أعرفَ حياة الهناءة والراحة بعيدًا عن السياسة وأحابيلها. كنت أحلمُ بحياة الزهَّاد. ولم أكن أدري، هل كان باستطاعتي أن أَصْبِرِ على مثل هذه الحياة أم لا، لكنّ تجربة السجن كانت فظيعة لمن وصل إلى ذُرَى المجد ثم انحَطَّ في قعرِ وَكْرٍ مع الأوباش والسفَلة والمجرمين. لكنّي كنت صادقًا في شعوري حيث استيقظ فيَّ داعي إخلاص القصد، واطِّراح الدنيا وأحسستُ كما لو أنّ التركيب الذي تعرفه ذاتي قد أسلم الغلبة لجانب الانطواء والبعد عن الخلق والانزواء عنهم. ساعدني هذا الشعور الجديد على تجاوز محنة السجن، وفراغ اليد من المال والمتاع. وبقيتُ مدّة لم تتعدَّ بضعة أسابيع، لكنّها كانت تجربة أنضجَتْ نفسي للإعراض عمّا كنت فيه، وراودتني بحقٍّ إرادةُ البعد عن السياسة. وقد كنت في زمن شبيبتي أجتمع ببعض الصالحين في لحظات الضمور، فأصادف عندهم ما أصبو إليه وأُلجِم أجزاءَ نفسي التوّاقة إلى الظهور. وعالجتُ حبّي للرياسة بسطوة الذكر، فأحسست بعزوف نفسي عن كلّ شيء، سوى حياة الصفاء. فلعلّي ذقتُ فترةَ التخلية التي يعرفها القوم، وتطلّعتُ إلى ما بعدها من تَحْلِيَة، إذ كلّما تمّ إخلاء المحلّ، تحلّى وتجمَّل بحلَّة الوارد الجديد. ثم استوى عندي الأمر بين تخلية وتحلية، وزهدت في الزهد، وذقت أشياء لم تخطر ببالي من قبل، فعلمت بعض ما كنت قد قرأته في

كتب القوم، فصدَّقت به عن تجربة. ولعلّ أكثر ما انتابني هو إضمارُ العَقْد بمفارقة السياسة والسلطان والأندلس، والتوجُّه للحجّ. وقد كنت أُدرك أنّ الأندلس حُلْمٌ مختلس لا بدّ أن يتبدَّد.

ولمّا حلَّ يوم النحر من سنة سبعمائة وإحدى وستّين، وصل الشريف التلمساني، سفير سلطان المغرب، إلى غرناطة، محمَّلاً بطلب واضح، هو السماح للسلطان محمّد الخامس ووزيره ابن الخطيب بالجواز إلى المغرب. لم يجد السلطان الجديد بُدًّا من الرُّضُوخ لهذا الطلب، لعلمه بقوّة المغرب ومكانته، وذَوْدِهِ الدائم عن الأندلس وحماية مملكة بني الأحمر من قشتالة وأراغون وغيرهما ولولا دعمه المتواصل لسقطت منذ زمان طويل.

أُفرج عنّي بشفاعة السلطان أبي سالم، وغادرت غرناطة غير مأسوف عليها، إلى وادي آش حيث لحقت بالسلطان محمّد الخامس، فجزنا إلى المغرب في وفد ضمّ رجالات أهل الأندلس، مع الأهل والولد. وبعد أيّام قليلة بلغنا فاس، أذهب الله عنها كلّ باس، في سادس المحرّم عام واحد وستّين وسبعمائة، فاستقبلنا السلطان أبو سالم أحسن استقبال وأسبغ علينا نعمًا بادية، ورعى ذِمَامَنا بما سلف لنا في حَقِّه من الإكرام والتعظيم، لمّا كان في منفاه الأندلسي.

وقد كان لابن مرزوق، حاجب السلطان أبي سالم، دور كبير فيما وصل إليَّ من نِعَم، وأُسبِغ عليَّ من عطف وعناية، بسبب تَحَكُّم الصدَاقَة والوُدِّ بيننا. وحين مَثَلْتُ بين يدي السلطان أنشدتُه رائيّةً قلت في مطلعها:

سَلا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخَبِّرَةٍ ذِكْرُ   وَهَلْ أَعْشَبَ الوَادِي وَنَمَّ بِهِ الزَّهْرُ

أَستَصْرِخُه فيها لنُصرَة محمّد الخامس، فوَعَدَ بالنصْرَةِ، وأنسانا حالَ الغربة والنفي بكريم عطاياه، فكانَ إبراهيمَ الذي وفَّى.

سكنتُ في فاس لمدّة وتعرَّفت إلى رجالاتها، ومنهم الشيخ العلّامة أبو العبّاس القباب، وأعجبتني بشاشته، فأَنِسْتُ إليه. ثم استأذنت أبا سالم في زيارة جنوب المغرب ومراكش فأذن لي، حيث كنت أريد الابتعاد عن جوِّ المُصَانَعة الزائد لسلطاني، الذي كانت تُحيطُه به حاشِيَتُه، والتي لم يكن لها حديث إلّا عن مملكة غرناطة، والتأسُّف عمّا خرج من يد السلطان وتدبير استرجاعه. وحيث إنّي كنت راضيًا بما قَسَمَ الله لي من تَبَدُّلِ الحال والنجاة من الفتنة، فقد تَعلَّلْتُ بهذه الزيارة ليصفو لي خاطري. وقد شجَّعني على أمري بعض أهل المطامح ممّن كان يتطلَّع إلى مجد مرتَقب. ومن بين هؤلاء تلميذي ابن زمرك. وقد وجدت الفرصة سانحة لذلك حيث إنّه من أنبه طلبتي وأحسنِهم كتابة وإنشاء ودهاءً. فارتضى محمّد الخامس أن أفارقه بعد أن أصبحت في بطالة.

ولمّا استكملتُ الأُهْبَة للسفر، فاجأني السلطان أبو سالم بإصدار أوامره إلى عمّاله وولاته لإتحافي والعناية باستقبالي وضيافتي. وخلال جولتي في الجنوب وقفتُ على بلاد المغرب وآثارِ مَنْ دَرَس، وزرت قبر أمير الأندلس المعتمد بن عباد، الذي ما جاد الزمان بمثله، وأنشدتُ عند قبره، خارج باب أغمات في مراكش، قصيدة تائيّة. لكنّ سَفْرتي صادَفَتْ فصل الصيف، فأمَضَّنِي القيظ، وعَجَّلْتُ بالأَوْبَةِ مُعرِّجًا على مدينة سلا التي زرتها من قبل،

ناويًا الاستقرار فيها لما تنعم به من هدوء وهناء، وقاصدًا الخلوة والانقطاع ومصاحبة أهل الخير والصلاح. فلمّا وصلتُها راقني منظرها وهدوؤها، فقرَّرت الاستقرار بها. واستأذنت السلطان أبا سالم في أمري، فأذن لي، وأَسْعَفَ قصدي بشراء دار وعَقَار تحيط بهما البساتين والسواني من جهة الغرب. ووصلتني أخبار بعض من أراد الحلول في مكاني عند سلطاني، فعجَّلتُ بكتابة قصيدة أعتذر عن نفسي، وأقول فيها

قالوا: سلا حَرَّكَتْ أَشْوَاقَهُ فَسَلا   والله مَا كُنْتُ عَنْكَ اليَوْمَ بالسَّالِي

إنْ كَانَ لي بَعْدَ بُعْدِي عَنْكَ مِنْ أَمَلٍ   إِلَّا لِقَاءَكَ لاَ بُلِّغْتُ آمَالِي

لكنّ السلطان قَبِلَ اعتذاري وتركني لحالي بعدما زيَّن له الطامحون، الراغِبُونَ في الحُلول مكاني، بُعدي عن بطانته.

بعد أن أنهيتُ ترتيبات استقراري في مدينة سلا، قَرَّرتُ زيارة أحد أعلامِها الكبار. خرجت من بيتي قاصدًا جهة البحر حيث أُخبرت أنّ وليّ الله الشيخ الصالح العارف الورع الربّاني، أبا العبّاس سيّدي أحمد بن عاشر الرندي، يسكن هناك. فلمّا وصلت إلى داره في الأزقّة الضيّقة من جهة البحر التي تؤدّي إلى المسجد الأعظم في المدينة، أُخبِرتُ أنّ الشيخ خارجَ بيته. سألت بعض أهل دَرْبِ فُوَات، فلم يخبروني. فعلمت أنّ الشيخ نهاهم عن تكدير صفو خلوته. رجعت أدراجي خائبًا فالتقيتُ برجل مجذوب، فضحكَ لمّا رآني ثم سألني مالاً، فأخرجت ما كان في جيبي ودفعتُه له فقال: موتوا قبل أن تموتوا. ثم تركني لحال سبيلي. عجبت من قول هذا المجذوب، لكنّني تفكَّرت فيه، فقلت لا بدّ لي من زيارة

قبور المدينة للترحُّم على أهلها عسى أن تذكّرني بالآخرة.

صعدت الطالعة المؤدّية إلى المسجد، وتركت مدرسة أبي عِنَان عن يساري، ثم سلكت تحت الصَّابَة التي تصل ما بين المدرسة والمسجد الأعظم، ومشيت حوالى عشرين خطوة، ثم درت جهة اليمين على طول جدار المسجد، ومررت بأحد أبوابه، وباب آخر للنساء، ثم وصلت إلى محاذاة قبر لَصْقَ جدار المسجد لأحد الأولياء، فترحَّمْتُ عليه. ثم مشيت نحو البحر، فراعني شبح يجوس بين القبور. كانت تلك الجهات خاليةً إلّا من الموتى وطيور البحر التي تناوش الموج، وتتصيَّد بعض الأسماك الباحثة عن ضوء الشمس، فتتلقَّفها تلك الطيور الانتهازيّة. الفضاء عَارٍ إلّا من بعض أنواع البقول التي تَنْبُتُ بين القبور. ومن بعيد لَمَحْتُ الشبحَ جالسًا قرب أحد القبور، مستقبلاً القبلة، فمشيت حتى وصلتُ إليه. لم يلتفتْ إليّ، وأحسست بزمجرته وامتعاضِه بعد أن أفسدتُ عليه عزلَتَه. سلّمتُ عليه فَرَدَّ عليّ السلام بنبرة أشعرتني بعدم رغبته في الحديث، لكنّي مضيتُ بإرادتي في الكلام، عكس مُضِيِّهِ في إرادَتِه الصمتَ. قلت له بضع كلمات حذرة كانت بمثابة منشور لطلب الأمان، لكنّه مضى في صمته، وقام مبتعدًا، يَنْكُتُ الأرض بعصا كانت في يده. كان الرجلُ متوسّطَ القامة، مُحْدودب الظهر من كثرة نظره إلى الأرض، كما لو أنّه يخشى أن يفارقها وتلك كانت حال الزهّاد والعُبّاد والأتقياء عمومًا، إذ لا تَشْرَئِبُّ نفوسهم إلى السماء، فترى الواحدَ منهم جسدُه في الحانوت، وقلبُه في الملكوت. حاولت التلصُّصَ على الرجل، فهابني أمره، لحية بيضاء، وجُبَّةٌ بالية قصيرة الأكمام جدًّا، وفي وسطه حزامُ صوفٍ أسود. ينتعل

نعلاً خَشِنًا، في أسفله مسامير.

مشيتُ خلفه مُدَّة كالكلب خلف صاحبه، وهو يُزمجر بِذِكْر خافت، ويلتفت بين الفينة والأخرى رُبْعَ التفاتة، كما لو أنّه يأمرني بالانصراف، أو ليتأكَّد من انصرافي، فقلت له: يا سيّدي، لن أنصرف حتى تكلِّمني، فأنا رجل طريد غريب عن هذا البلد، وقد سكنتُ مدينتكم، والتزمتُ جواركم رجاء أن يُصلح الله حالي.

أحسست وكأنّ الشيخ تأثَّرَ لكلامي، فتوقَّف عن المشي لحظة، لكنّه عاود المشي مجدّدًا، فقلت له مُستدِرًّا عطفَه: أنا من البلاد اليتيمة يا سيّدي، فلا تَرُدَّ يتيمًا قَصَدَكُم.

توقَّف الرجل فجأة ونظر إليَّ نظرة طويلة وقال: ماذا تريد منّي؟

فقلت: أريد الهداية على يدكم.

فقال: لست أهلاً لأهدي أحدًا، وإنّما الهادي هو الله. وأنا عبد أشتغل على إصلاح حالي.

فقلت: يا سيّدي، لقد سكنتُ حديثًا قرب باب فاس، وأوّل ما اهتديت إليه الاستئذان على أهل المدينة من الجيران الصالحين.

فقال الشيخ: خيرًا فعلت، فالجوار يتطلَّب الأدب مع أهل البلد.

فقلت: لذلك جئتكم لأتعلَّم الأدب.

أطرقَ الرجلُ برأسه ثم قال: عليك بالتوبة.

فقلت: وكيف أصنع؟

فقال: رَدُّ التباعَات، وقَضاء الصلوات، والوَرَعُ في المعاملات، والأخذُ بالوَسَط من الحالات، والتحرُّرُ عن بُنَيَّاتِ الطريقِ والشذُوذِ مِنَ العبادات.

فقلت: زدني، زادك الله علمًا.

فقال: الخير في ترك الشبُهات، والورعُ عن المنهيَّات، وترك الغيبة والنميمة، وبذل النصيحة، والاجتهاد في اتِّبَاعِ السُّنَّة، واجتناب البِدعة، فتلك غايَةُ النعمة.

كان هذا الكلام على بساطته إبريزًا خالصًا، وَجَدَ طريقَه إلى قلبي بسرعة البرق، فأحسست ببرد اليقين.

ثم طلبتُ منه أن يَخُصَّنِي بِوِرْدٍ رَاتبِ، فقال: يا هذا، إنّما أنا رجل من المسلمين، ولستُ بشيخ ولا مُعَلِّم، وعليك بكتبِ العُلماء، وما صنَّفه الجِلَّةُ الفضلاء.

فقلت: وأيَّ كتبٍ أدرُس؟

فقال: عليك بكتاب **العمدة في الأحكام** للمقدسي، **والرعاية والنصيحة** للمحاسبي، **وقوت القلوب** لأبي طالب المكّي، **والإحياء** للإمام الغزالي. فإن لزمتَ ما ذكروا، واقتفيتَ ما حَسَّنُوا، واجتنبْتَ ما نبَّهوا عليه، نجوتَ بإذن الله، ودخلتَ روضة التعريف بالحبّ الشريف.

انتبهتُ لما طَرَقَ سمعي بقوله «روضة التعريف بالحبّ الشريف»، وأدركتُ من الحين أنّ الشيخ يُنبِّهني على أمر عظيم،

فقلت: وما هو هذا الحبّ الشريف، وكيف تُعَرِّفُه؟

فقال: ادخل الروضة، تجد المنيَة.

فقلت: ومَنْ صاحب الروضة يا سيّدي؟

فقال: صاحبها تجده في ﴿طه مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

ثم تابع بنبرة عجيبة ولسان حال غريب فقال: أيّها المغرور الآتي من غرناطة، تَطَهَّرْ من الاغترار، واتَّبع الهادي، تَطَأُ أَرض النفوس وتُسَرِّح الطَّرْفَ في شجرة المحبّة، وتَقْطِفْ ثمرةَ المعرفة. وقف كالطائر على الشجرة.

فقلت: ما هي تلك الشجرة؟

فقال: لا تسأل عن الهويّة، فإنّها بدون هويّة، واسأل عن الصفة.

فقلت: أيّ نوع من الأشجار هي؟

فأجاب: الآن أصبت السؤال. فلعلّها نخلة، وقد تكون زيتونة، ولربّما كانت رمّانة أو تينة أو سدرة.

فسألت: وكيف أعرف نوعها وأنت دللتني على عدّة أنواع؟

فأجاب: لا بدّ لك من الحيرة. وأعظم حيرة في الإِنِّيَّة.

لم أَدْرِ مقصود الشيخ، لكنّي كنت أُعَوِّلُ على تَبَيُّنِ الأمر لاحقًا بعد أن أَتَفَكَّرَ في كلامه، كما كنتُ مُتَيَقِّنًا أنّ أهل الله لا يُلقونَ الكلام جُزافًا، وإنّما ينطِقونَ بما علّمهم الله.

ثم بدا لي أن أسأله، فقلت: يا سيّدي، إنّ سورة طٰه تتحدّث عن سيّدنا موسى وخروجِه من بلده غريبًا طريدًا، ولقائه بشعيب عليه السلام في مدين، وزواجه من إحدى ابنتيه، ثم رجوعه إلى بلده ومواجهَتِه لفرعون وسحرته وتغلُّبِه عليهم. ثم إنّ فيها قصّة سيّدنا آدم وحوّاء عليهما السلام ووسوسة الشيطان لهما، وأكلهما من شجرة الخلد، ثم هبوطهما من الجنّة إلى الأرض.

فقال الشيخ: بورك فيك، ذلك كلّه في السورة، لكنّ المقصود أن تعيش تجربة موسى عليه السلام في الوادي المقدّس. ألم تحصل له الهداية من طبع النار؟

وتعرَّف على الشجرة كما حصل لآدم عليه السلام. ألم تحصل له الحيرة من شجرة الإنّيّة؟ يا هذا إنّ الشجرة من عالم الملك والملكوت، فعُروقها في الأرض، وأغصانها في السماء. فكن مثل الشجرة، وَطَأْ برجلك أرض المُلْك، وارْقَ بِرُوحِكَ وسِرِّكَ إلى الملَكوت.

لقد جئت من جنّة العَريف وستجد بإذن الله جنَّة التعريف، فكن حقًّا طائر التعريف. ويبدو أنّك خبير بالطبّ الجسماني فعليك أن تصبح خبيرًا من الآن في الطبّ النفساني بسرّ سورة «طٰه». وفوق هذا وذاك، لا بدّ من أن تعرف أنّ لهذه السورة إمامًا تتبعه، فابحث عنه، فهو القطب الذي تُرجى شفاعته. وحتى تَصْقُلَ معدن نفسك، عليك بنار الذِّكْر ونور الفكر، فادأَبْ عليهما والزَمْ زاوية أبي زكريّا للنسَّاك، فسينصلح حالك بإذن الله. ثم أخرج من بين ثيابه سبحة تمتم عليها قليلاً بضع كلمات، وأخذ يدي كالمصافح، ثم مَدَّ

سبَّابته على مِجَسِّ نبضي في رُسْغِ ذراعي، وذكر الاسم المفرد ثم طلب منّي أن أُرَدِّدَ خلفه فردَّدْتُ ما أمرني به، فأحسست كأنّي أصبحتُ حبَّةً من حبَّات السبحة، فسلَّمها لي، وقال لي: عليك بملازمة حبل الوصول.

كنت أظنّ أنّ سؤالي سيفتح لي بعض ما في كلام الشيخ من إشارات، إلّا أنّه زَجَّ بي في بحر لُجِّيّ لم يسبق لي أن خضتُه، وعلمتُ أنّ صاحبَ الحال يقطعُ صاحب المقال. وفي هذه الأثناء زَمْجَرَتِ الأمواجُ المتلاطمة من البحر المحيط، فأمرني الشيخ بالانصراف، وعاد لصمتِه وتقدَّم نحو البحر كأنّه يريدُ أن يخوضَه. وفجأة غاب عنّي كأنّه غاب بين أمواجه.

أدركتُ قيمة ما أتحفني به الشيخ الذي لم يُتحِف غيري به ممّن زاره قبلي من الكبراء، بمن فيهم السلطان أبو عِنَان الذي كان قد جاء لزيارته فيما مضى، فلم يفتح له باب بيته، ثم عاد لزيارته مرّة أخرى، فصنع معه مثل ما صنع في الأولى، ثم كتب له كتابًا أوصلَه له ولده، يستعطفُ فيه الشيخ ويطلبُ منه النصيحة. آنذاك كتبَ له الشيخ كتابًا يُرشِده فيه إلى الحقّ وإقامة العدل، والضرب على أيدي الظلمة من عُمَّاله. فإذا كانت هذه حاله مع السلاطين، فكيف تكون حاله معي، لكنّه بدلاً من أن يَطردني، فقد أعطاني هذه السبحة التي يَظهر أنّه صنعها بيده. ودَّعْتُ شيخَ البحر الذي ظهر لي مرّة أخرى، لكنّه كان على مسافة بعيدة منّي، فتعجَّبتُ كيف انتقل بهذه السرعة، وقرَّرتُ العملَ بنصيحته، ولُزومَ زاوية النسّاك التي كانت خارج باب فاس. عدت إلى بيتي، وأخبرتُ زوجتي الصالحة بلقائي بالشيخ،

فأقرَّتني على لزوم الزاوية بضعةَ أيّام، لكنّها طلبَتْ منّي أن أبني لها مسجدًا صغيرًا لَصْقَ داري لكي تختلي هي أيضًا فيه لقراءة القرآن والعبادة.

كنت سعيدًا بالسبحة التي وصلتني من الشيخ، وكانت رائحتُها زكيّة لأنّها مصنوعة من العنبر الذي يقذفه الحوت على ساحل البحر المحيط في سلا ولعلّ الشيخ جمَعَهُ أثناء جولاته قرب الساحل، وصنع منه هذه السبحة الزكيّة. ضمَّخْتُ خياشيمي برائحة السبحة، وفركتُها مرارًا بين أصابعي، فزادَتْ رائحتُها وانتشر عَرْفُها، فحمِدْتُ الله وجرى لساني بالذكر، وكأنّي كنت مُسْتَحَثًّا على ذلك، لا أملك أن أمنَعَه عن نفسي، فأدركتُ أنّ للروائح الزكيّة أثرًا في استجلاب الأذكار، ولعلّ الله أن يَهَبَني من نتائجها بعضَ الفوائد.

مكتبة الرمحي أحمد

وفي الأيّام القليلة التي تَلَتْ زيارتي، عهِدتُ إلى بعض العمّال ببناء مسجد صغير برواقين صغيرين، وفي جهة اليسار، من جهة الشرق، أمرتهم بحفر بئر للوضوء، وفتح باب يُؤَدِّي إلى الرياض الذي اشتريتُه، ثم فتحتُ له بابًا ثانيًا بأدراج يؤدّي إلى الزقاق الخارجي. فلمّا أنهوا أعمالهم، فَرَشَتْهُ أَمَل بحصير ممّا يصنَعُه أهل سلا من السِّمَارِ الذي يَنْبُتُ على جنبات واديهم أبي رقراق، فيصنعون منه الحُصُر يفرشونها على أرضيّة المساجد أو يُغَطُّونَ بها جُدرانها مقدارَ قَامَة. ولمّا وضَّبَتْهُ، استأذَنَتْنِي أمل في أن تفتحَ هذا المسجد للصلوات الخمس لفائدة أهل الحيّ الذي نسكنُه. استجبتُ لهذا الطلب من زوجتي الصالحة، فكان الحِرَفيُّونَ الذي يقطنون بجوارنا يَؤُمُّونَهُ في أوقات الصلوات الخمس لأداء الفريضة. وعادة

ما كان أربابُ الصنائع والحِرف يُصلُّون في مثل هذه المساجد الصغيرة التي كانت في كلّ الأحياء، ويسمّيها أهل البلدُ بمساجد المُقَلَّقِين، أي الذين بهم قلق وانزعاج لأداء الصلاة في أوّل الوقت بلا تأخير، حتى يعودوا إلى أعمالهم ومِهَنِهِم، فلا ينتظرون مثل سائر الناس وقت التمكين.

أمّا في غير أوقات الصلاة، فكانت أمل تلزَمُ المحرابَ للذكر وقراءة القرآن، وقد أصبحَتْ، والله، تقضي مُعظَمَ وقتِها هناك. حَمِدتُ الله أن وَجَدْتُ قلبي في هذه المدينة ونَسِيتُ أَمْرَ السياسة وأهلها بعد أن عمِلتُ على قراءة الكتب التي أمرني بها الشيخ، فوجدتُ لقراءتها حلاوة كبيرة، وداوَمْتُ عليها وعمِلتُ على بعض ما وَرَدَ فيها. وبعد أن تهيَّأْتُ فكريًّا وعقليًّا، كان عليّ أن أكتسبَ ذوق هذه المعارف، فقصدتُ زاويةَ النسّاك بعد أن خرجتُ إليها من باب فاس الذي لم تكن تبعُد عنه إلّا بحوالى ألف ذراع، ولقيتُ بها جماعة من الصالحين وبعض الغرباء ممّن ليس له بيتٌ يأوي إليه في هذه المدينة. دخلتُ الزاوية وسألتُ عن شيخِها، فدلَّني بعض الفقراء على رجل من تلامذة أبي العبّاس سيّدي الحاجّ ابن عاشر، فأخبرتُه بلقائي بالشيخ، وما جرى بيننا من حديث، فهنَّأني، وبالغ في العناية بي، وأخبرني أنّ الناس لا يَظفرون بمثل ما ظفِرتُ به لتَمَنُّع الشيخ في مخالطة الناس. ثم دلَّني على خَلوتي، فدخلتُها كما لو أنّي أدخلُ في طور جديد من أطوار حياتي. كان الدخول إلى هذه الخلوة التي لا تتعدَّى قامة رجل، كالدخول في بحر فسيح. تعجَّبتُ من هذا الشعور بالحرّيّة في مكان يبدو على نقيض ذلك. وقد سبق لي أن خُضتُ تجربةَ السجن، وعانيتُ من فَقْدِ حرِّيّتي رغم

أنّ السجن في غرناطة كان أوسعَ من هذه الخلوة، إلّا أنّ شعوري اليوم مختلف عمّا كان عليه آنذاك.

أخرجتُ سبحتي، فلمّا عاينَها المقدّم على الزاوية، شَهِقَ شهقةَ تعجُّب وسألني مستغربًا: من أين لك بهذه السبحة؟

فأجبت: لقد أهدانيها سيّدي الحاجّ ابن عاشر

فقال الرجل: هنيئًا لك يا أخي، فهذا كنز عظيم وشرف كبير، لم يحصل لأحد من أصحابه. وقد صنعها الشيخ من العنبر الذي يقذفه حوت كان يألفه، ويأتي إليه في أوقات مختلفة.

تعجَّبتُ من قول الرجل وقلت: وماذا كان يجري بين الشيخ والحوت؟

فأجاب الرجل: للفقراء من الطلبة والمريدين حكايات وكرامات كثيرة، يُرَدِّدُونَها حول الشيخ مع هذا الحوت الذي كانوا يقولون إنّه من سلالة حوت سيّدنا يونس عليه السلام. وقد كان يجتمع مع الشيخ ويتذاكر معه في شؤون الطريق. وظَفَرُكَ بهذه السبحة عناية كبرى من الشيخ بك.

فقلت: لعلّ غيري ليس في حاجة إلى هذا الحَبْل، أمّا أنا ففقير إلى الله، وقد اقتضى نظر الشيخ أنّه يلزمني التمسُّك بهذا الحبل للوصول.

فقال: صدقت.

وبينما نحن نتحدَّث إذ التحق بنا رجل ثالث، يبدو أنّه غريب وصل لِتَوِّهِ. فسلَّم علينا وقدَّم نفسه على أنّه من الفقهاء، فرحَّب به

الشيخ. ومن دون مُقدِّمات ولا استئذان، التفَتَ إليَّ هذا الفقيه قائلاً: أفلا سبَّحتَ بأصابعك بَدَلَ استعمال هذه السبحة.

تعجَّبت من الرجل يدخل لأوّل مرّة، ويبدأ في تَتَبُّعِ أفعال الناس بالتصحيح.

فقلت له منكرًا: وما أدراك أنت بهذا؟

فقال: لم يَثْبُتْ عن النبي اتّخاذُ السبحة.

فقلت: أفلم يبلغك عن اتّخاذ بعض الصحابة حَبْلاً للتسبيح، وكذا عن اتّخاذ بعضهم للحصى للأمر نفسه.

فقال: لعلّه وُجِد، ولكن، لا اتِّباعَ إلّا للمعصوم؟

فقلت: إنّما أنا رجل ضعيف وقد أُخطئ في العَدِّ، فأحتاج إلى مثل هذه السبحة لتعينني على ذلك. أمّا الاقتداء بالصحابة فَمُرَغَّبٌ فيه شرعًا، ولا أظنّني أحتاج إلى تذكيرِك بالأحاديث التي تعرفُها. ثم إنّ لهذه السبحة خاصّيّة تَكمُن في رائحتها الزكيّة، وهي تُقَوِّيني على الذكر. وإن لم يَكْفِكَ هذا الجواب على إنكارك، فاعلم أنّ كلّ أمم الأرض ممّن يُوحِّدون الله لهم سُبَحٌ يستعينون بها. فهل تجتمع البشريّة كلُّها على الضلال؟

فقال الفقيه: لا وَجْهَ للاستدلال على ذلك من أفعال غيرنا من الأمم.

فقلت: بل شَرْعُ مَنْ سَبَقَنَا شَرْعُنَا ما لم يَرِدْ مانع أو نهي من الشارع، والواقعُ أنّه لم يَرِدْ في ذلك منع ولا نهي. فاليهود لهم سُبَحٌ بها حبَّات بعدد مزامير داوود، والنصارى لهم سُبَحٌ كما في

بلادنا، تَضُمُّ عدّة أقسام، حول حياة السيّد المسيح وأمّه عليهما السلام. فهم يَلزمون الذكر بها وتكرار الصلوات حتى يحصل لهم الإيمان بالغيبيّات. وبين كلّ عشر حبّات لصلوات مخصوصة بتمجيد السيّدة العذراء، يفصلون بعدها بحبَّة أكبر، يُرَدِّدون فيها صلاة مخصوصة في تمجيد الربّ. فيقسمون السبحة بحسب الخَبَايَا العشرين من حياة السيّدة العذراء، يجعلونها في أربعة أقسام، صلوات السرور، وصلوات النور، وصلوات الألم، وصلوات التمجيد. ونساء بلدنا من النصرانيّات يضعن يوم الزواج على رؤوسهن قُبَّعَات تحيط بها ورود بعدد مخصوص. وكلّ وردة مثل حبّة من حبّات السبحة التي يطلقون عليها اسم القبّعة الورديّة الصغيرة بلسانهم. كما أنّ الشعوب القديمة من عبدة البُدَدَة يسبِّحون أيضًا. وجميع السبح في مختلف الأديان فرديّة وتريّة لأنّها تدعو كلّها إلى التوحيد، فعدد حبّات مسبحة اليهود ٤٥. وللنصارى على حسب فرقهم، إمّا ١٧ أو ٢١ أو ٣٣ أو غير ذلك من الأعداد الفرديّة. أمّا عندنا، فهناك السبحة الثُّلُث، وحبّاتها ٣٣، وسُبحة قاف، وهي قليلة ونادرة، وعدد حبّاتها ٤٥، وسبحة الأسماء الحسنى وحبّاتها ٩٩، والسبحة الألفيّة، وحباتها ألف. فهل نكون استثناء في عدم اتّخاذ السبح من بين جميع أمم الأرض؟

فقال الفقيه: يبدو أنّك خبير في سُبَحِ الملل الأخرى، ولهذا أنت تدافع عن بدعة اتّخاذها. لكن، قل لِي، من أيّ شيء صنعتَ سُبحتَك؟

فقلت: إنّها من العنبر الذي يُلقيه الحوتُ على ساحل البحر.

فقال: أو لا تعلَمُ أنّ العنبر مَنِيُّ الحوت، وهو أمر نَجِسٌ، وأنت تجعله للذكر والعبادة والتقرّب إلى الله؟

غاظني قوله، فقلت له معترضًا: أَوَلَمْ يخبرنا، عليه الصلاة والسلام، أنّ البحر طهور ماؤه، حِلٌّ ميتته؟

ثم بدا لي أن أُوقِفَ هذا المُتَفَقِّهَ عند حدِّه، فقلت له: دعك من هذا، ألا تعلم أنّ الصحابة والأئمّة الفقهاء اختلفوا في المنيّ، فمنهم من اعتبره نَجِسًا، ومنهم من لم يعتبره نجسًا، فهذا الشافعي يقول بعدم نجاسته.

فقال الفقيه مدافعًا عن مالكيّته الضيّقة: فَلِمَ يُفْرَكُ أو يُمْسَحُ إذن؟

قلت: كما يُفرَكُ أو يُمْسَحُ المُخَاطُ أو البُصَاق أو الطّين أو الطعام الذي يَعْلَقُ بالثوب، وذلك لتنظيفه لا بسبب نجاسته. وقد قال الشافعيّة إنّ كلّ ما خرج من الذَّكَر، سواء كان بَوْلاً أو وَدْيًا أو مَذْيًا، أو ما لا يُعْرَف أو يُعْرَف، فهو نجس، إلّا المنيّ الذي يكون منه الولد، فليس بنَجس. وكلّ ما مَسَّ ما يخرج من ذَكَرِ الإنسان نَجَّسَهُ إلّا المنيّ، فهو لا يُنَجِّسُه، لكنّه يُفْرَكُ ويُنَظَّف.

فقال الفقيه: أوأصبحتَ شافعيًّا، ونحن نَدِينُ في بلادنا بمذهب الإمام مالك، وهو يقول بنجاسة المنيّ؟

ثم أضاف: وقصّة عمر، رضي الله عنه، شاهدةٌ لِصِحَّةِ قول المالكيّة، والذي اشتغل بغسل ثوبه ومشى طويلاً إلى الوادي ففاتَه وقتُ الصلاة. ولو لم يكن يعتقد في نجاسة المنيّ لما كان حريصًا على الذهاب إلى الوادي لغسل ثوبه الذي كان يعلم أنّ الاشتغال

بنظافته سيُخرِجُه عن وقت الصلاة.

فقلت: بل إنّي أتعبَّد الله على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، لكنّي أجيبك على ادِّعَاءِ نجاسة المنيّ، وكأنّه أمر قطعي لا خلاف فيه، فأحببتُ أن أُذكِّرَك بأنّه على خلاف ذلك في كثير من مذاهب المسلمين. والقول بنجاسة المنيّ يترتَّبُ عنه القول بأنّ الله خلق الإنسان من نطفة نجسة. وما خرج عن نجس فلا شكَّ أنّ النجس يستصحبه دائمًا، فكيف نصلّي ونعبد الله طول حياتنا وقد خرجنا من نجاسة حسب قولك؟

أُسْقِطَ في يد الفقيه الذي لم يكن يتوقّع مثل هذه النتيجة العقليّة المترتّبة على القول بنجاسة المنيّ. ثم بدا لي أن أُجادله وفق ثقافته الفقهيّة، فقلت له: وحتى على ادِّعاء نجاسة المنيّ، فإنّ الحوتَ يا أيّها الفقيه، دائم الغطس في ماء البحر، فهو دائم الطهارة والغسل.

ضحك الفقيه لهذه التخريجة اللطيفة، ثم سألني: لقد انتصرتَ لعدم نجاسة المنيّ، ولم تُفَرّقْ بين آدمي وغيره.

فأجبته: لا خلاف بين آدمي وغيره، سوى ما كان من الخنزير والكلب، فلا خلاف بأنّهما نجسان.

ثم طلب منّي أن أُناوِلَهُ السُّبحة، فناولتُها إيّاه لمّا رَأيتُ لِين موقِفِه وتَغيُّرَه. أخذها وقرَّبها إلى أنفه فانتشى بعَرْفها وقال: لقد صدقت، إنّها زكيّة الرائحة.

ثم أردفَ مازحًا: ويا ليت المنيّ الذي يخرج منّي له مثل هذه الرائحة.

فضحكنا من قوله.

وقلت له: لو كان كذلك يا فقيه، لما عَمَرْتَ هذه الزاوية، ولطلَبَتْكَ النساء.

فقال: ما أسعدَ إناث الحوت بمنيّ الذكر.

وأردف: وهي من أجود أنواع العنبر، وهو الأشهب.

فقلت متجاهلاً: وما هي أنواعه الأخرى؟

فتنبَّه الفقيه لتغافلي وقال: مثلك لا يجهل مثل هذه الأطايب.

فقلت: صدقت، لكن، قد مضى عليَّ زمن أُحَاوِلُ تَخْرِيبَ الظاهر، بعد أن أَمَضَّتْنِي الحياة بصُروفها فأَهمَلتُ كلّ تلك الأطايب.

فقال الفقيه: فلعلّي أُذَكِّرُكَ بأنّ للعنبر أنواعًا، أجودُها الأشهب كما قلت لك. ويليه الأزرق ثم الأصفر والفستقي. أمّا أردأ أنواعه فهو الأسود. وهو من الأصول العطريّة الحيوانيّة القليلة.

فقلت: أراك خبيرًا في هذه الشؤون.

فقال: كما ذكرتَ. وقد مضى عليَّ زمن كنتُ أشتغلُ في حانوت عَطَّار، فتعلَّمت من ذلك بعضَ ما قد سمِعتَ. لكنّ صُنْعَ السبح من العنبر، أمرٌ جديد عليّ. وكلّ ما أعلَمُه أنّ السبح تُصنع من بعض أنواع الخشب. كما تُصنع من الأحجار الكريمة. ومن أشهرها سبحة اليُسْر، أو السبحة المكّيّة، التي تُصنع حبّاتها من المرجان الأسود المستخرج من البحر الذي بقبالة مدينة جدّة.

طبع التراب

استأذنتُ شيخَ الزاوية والفقيه لكي أَخلو إلى ما جئتُ من أجله. أخذتُ الكوزَ وملأتُه ماءً بقصد الوضوء، فقد كنت عازمًا على تجديد العَزم منذ أوّل خُطوة في الطريق. اقتصدتُ في الماء، ثم عُدْتُ إلى خلوتي فصلَّيتُ ركعتين بسورة «الكافرون» و«الإخلاص»، ثم استخرت الله تعالى في الدخول إلى طريق القوم، وجدَّدتُ التوبة الخالصة، وعَقَدْتُ ضَميري على الإخلاص لله تعالى، ونَفْيِ كُلِّ الغيريّات. بدأتُ بالاستغفار وانغَمَسْتُ في ذلك البحر بلا حساب، فانتابتني أحوالٌ عجيبة، ورأيتُ كأنّي غارق، فناديتُ بالنجاة ولا مجيبَ يُنقِذُني من الغَرق. ولمّا أعياني الصراخ والنداء، ويئست من الخلاص، أحسست بالماء يغمرني فانقطع نَفَسي، ثم طَفِقْتُ أَترسَّبُ كالتراب إلى قعر ذلك البحر. وعلى الرّغم من غرقي إلّا أنّي لم أَفْقِد الإدراك، فقد كنت أشعر بأنّي ما زلت حيًّا لم أَمُتْ بعد، على الرّغم من كلّ علامات الموت. وزاد هذا من فضولي وتعجّبي، إذ كيف أكون قد مِتُّ، لكنّي مع ذلك لم

أَمُتْ أو أنّي أُحِسُّ بأنّي لم أَمُتْ. هذا الشعور المتناقض أحدث لي خللاً في إدراك الموت والحياة، فَطَفِقْتُ أُراجع نفسي أو ما بقي منها في حال يقظة ووعي. ثم تبيَّن لي أنّ إدراك الإنسان للموت أثناء تمتُّعِه بالحياة لا يعدو أن يكون إدراكًا خبريًّا لا حقيقة له، إذ حقيقةُ إدراك الموت هو حصولُ الذوق فعلاً بالموت، وهو ما كنت أدرِكُه في هذه اللحظات التي لم أَخْرُجْ فيها بعد عن ذكر الاستغفار. وبينما كنت تائهًا في مَهْمَهِ هذا البحر، تَذَكَّرْتُ لقائي بذلك المجذوب الذي قال لي «موتوا قبل أن تموتوا» فأحسست بذوق هذا الحديث في اللحظات هذه بشكل قوي. وعلمتُ أنّ الموتَ الإرادي أحدُ الإدراكات الكبرى في الإنسان السالك على محجَّة الوجودِ الحَقّ، والخطابِ الصدْق. وكم ترادَفَتْ عليّ من أحوال غريبة، فتارة أبكي وأخرى أضحك، وثالثة أسكن فيها، ورابعة ينعدم فيها الحال، ولا يبقى إلّا صاحب الحال. ورغم قوّة هذه التجربة، فإنّي أحسستُ بسعادة بالغة رغم أنّي كنت على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ بين الموت والحياة، لكنّ ضميري كان حيًّا، وبصيرتي كانت متفتّحة، وكنت مثلَ حيّ بن يقظان[١] كما عند أهل الشرق الأقصى. لم أَدْرِ كم مَرَّ عليَّ من الزمان وأنا في حالة من الغياب الجثماني والحضور القلبي، لكنّي لم أَفْتَأْ أَطلب السِّتْر. وانتابني سؤال عارض حول جدوى طَلَبِ الستر، وممّا أطلبه. وفي البداية، كنت أطلبُ الستر عن جميع الشرور، ثم انتقلتُ إلى طلب الستر المرادف للتواضع، بحيث لا يسعى العبدُ إلى أكثر ممّا يحتاج، ثم

---

(١) تعني كلمة «بوذا» في اللغة السنسكريتيّة القديمة: حيّ بن يقظان، فهل تأثّر ابن طفيل بهذا المعنى في تسمية كتابه الذي يحمل العنوان نفسه؟

انتقلتُ إلى طلب الستر عن الأكوان، وكلّما قام لي كون طلبتُ الستر عنه حتى أفنيتُ من إدراكي كلّ صورة للكون، فلم يبق إلّا المكوِّن. وبعد ذلك طلبتُ الستر عن الستر، فكنت في عين التكوين. وتجلَّتْ لي الكعبةُ المشَرَّفَة ماثلةً بين يديّ، فَأَحرَمْتُ ولَبَّيْتُ وطُفْتُ بدءًا من الحجر الأسود، وزمزمتُ باسم الحبيب، ثم سَعيت.

لم أدر كم استمرّ الحال معي في باب الاستغفار، إلّا أنّي أحسست من جديد أنّي عدتُ إلى الصحْو بعد السكر، لكنّي كنت أدرك تمامًا أنّي لم أَرْتَوِ بَعْدُ مِنْ سكري.

أذَّن المؤذّن لصلاة المغرب فصلَّيت مع الجماعة، ثم جَلستُ أقرأ ما تيسَّر من القرآن، فكان أوَّل ما طلع لي قوله تعالى ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قرأت الآية عدّة مرّات حتى ينقدح في لُبِّي معناها، وتبيَّن لي أنّ كلَّ خير يأتيه الإنسان يجده عند الله خيرًا ويُؤْجَر عليه، لكن عليه أن لا يرى نفسه فاعلاً لذلك الخير، لذلك أَمَرَهُ مولاه بطلب المغفرة والستر من الله الغفور الرحيم. ثم تساءلتُ عن معنى ضمير الشأن «هو» في الآية، هل هو عائد على الخير أم على الله؟ وبمجرّد تساؤلي علمت يقينًا أنّ ما من خير إلّا وأصله من الله، وأعظم خير هو الوجود. فهويّة الخير متأصّلة في الألوهيّة بلا مرية.

ثم حاولت أن أستعيض عن كلمة «خير»، وأضع بدلها كلمة أخرى لأرى حقيقة المعاني الكامنة في الاستغفار. ثم علمت أنّ

أعظم هديّة يقدّمها الإنسان لنفسه في حياته الفانية سيجدها مضاعفة عند صاحب الخير يوم اللقاء. ثم سألت نفسي، لماذا ينتظر المؤمنون يوم القيامة؟ أفلا يكون اللقاء قبل ذلك؟ وعلمت يقينًا أنّ كلّ أوقات المؤمن لقاء بالله، وقيامة صغرى يقوم فيها الروح، وجميع مملكة الإدراك إلى الوجود. فدأبتُ على القيامة بكلّ أنفاسي للقاء ربّي، وتضاعفَ أجري بكثرة اللقاء، فلم يَعُدْ لي صبر على البعاد، وأدركتُ سِرَّ ما دَنْدَنَ عليه الأكابر من الوصل والهجر، وما فتَّتَ أكبادَ العارفين من سوء الخاتمة. تَصَفَّتْ نفسي من كُدوراتها بكثرة الاستغفار الذي محا عنّي صورة الأكوان وانطبعت مكانَها صورةُ المكوّن، لكنّي كنت أُدركُ أنّي ما زلتُ في بداية الطريق، وأنّ الصورة تمحوها الصورة، وأين أنا من المصوِّر الذي يمنَحُ الصوَر، فكيف بي جعلته ضمن الصور؟ في هذه الأثناء التي تصفو فيها النفس وتنعتق من أدرانها، تبدو كصفحة بيضاء، أو لوح شفّاف، ينطبع فيه ما يَرِدُ من عوالم الملكوت، كنت قابلاً لكلّ ما يَرِدُ عليّ. قد تبدو الأمور متناقضة لكنّها في حقيقة الأمر معراج وتَدرُّج في السلوك، بحيث ما سلك السالك طريقًا إلّا ووقف على ثمرة ذِكْرِه، والغاية من سَيْره، فأدَّاه ذلك إلى سلوك طريق ثان، ثم ثالث، ثم رابع، وفي سلوكه ذلك يُفني الطريق ويتعلّق بمعالمه وآثاره. وكما قال الششتري من كلامه المليح:

جُلْ جُلْ تَر المعاني وافْهَمْنِي يَا فُلاَنْ

ما تَنْطِقُ الأَوَانِي إلا بما سَكَنْ

ولا جولان إلّا في دارة جُلْجُل، التي هي ذات الحقّ الواسعة

لكلّ جوّال سائح. وأفضل أنواع السياحة والجولانِ الذكرُ والفكرُ في تلازمهما عند من يقول بذلك، أو تعاقبهما عند من يرى غير ذلك، والكلّ من الله. فبعض أصحاب الذكر لا يرون الشهود في الفناء، والذكر فناء. وآخرون يرون جواز حصول المشاهدة في الفناء، والكلّ جائز، إذ لكلّ فريق طريق، ومَرَدُّ هذه الرقائق إلى الأذواق، ولا مجال لإنكار ما يختصُّ به الله عباده.

مرَّت عليّ خمسة أيّام في خلوة الاستغفار، وقد وعيتُ قيمة الحياة الروحيّة، والسعادة التي يمكن أن تحصل للمرء بابتعاده عن الدنيا وأهلها، وإفراغ القلب ممّا سوى الله، فيستوي عند السالك كلّ شيء، ولا يرى فعلاً إلّا ويرى أنّ الله هو الفاعل الحقيقي، وإنّما أفعال العباد كَسْب.

وفي اليوم السادس، قرَّرتُ الاشتغالَ بالصلاة على النبي بعد أن أخذتُ حظّي من نتائج ذكر الاستغفار. فبعد التوبة والطهارة، شرعتُ في إقامة الصلاة باتّباع الإمام الأكبر والمعلّم الأوّل، وقرأت الآية الكريمة كما لو أنّها تَنزِلُ لأوّل مرّة ﴿إنّ الله وملائكتَه يصلُّونَ على النبيّ، يا أيّها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليمًا﴾. وما كنت أظنّ أنّ الأمر كذلك إذ كانت قراءتي للقرآن فيما خلا من الزمان قراءة بالمعنى العادي، فإذا بي اليوم أقرأها وكأنّها نزَلَتْ لِلتوّ عليّ. وهذا الذوق الجديد في معاني القرآن هو القراءة الحقيقيّة لأنّ القرآن متجدّد النزول، وإلّا لما سُمّي على الحقيقة تنزيلاً، ووردت صيغ التنزيل في كثير من الآيات والسور، تأكيدًا على هذا المعنى العجيب. وعلى الجملة فكلام الحقّ متجدِّد

النزول على قلوب الأولياء والأتقياء، ومن لم يتلقّ القرآن على هذه الصفة ولم يقرأه على هذه الهيئة، فليس بتالٍ للقرآن، وإنّما يَمُرُّ بلسانه على ألفاظه. فالكلام الأزلي يفعل في تاليه فعلاً متجدّدًا، وشأنًا لا يتكَرَّرُ لأحَدٍ ثَانٍ، مِصداقًا لقوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. فإذا كانت شؤون الحقّ هي أفعاله في مخلوقاته، فليس هناك تكرار على الجملة. وكلّ واحد يحقِّقُ البرنامجَ المرسوم له، والأمر نفسَه، لكن بطرق مختلفة، وبصيغ متجدّدة.

بدأتُ بالصلاة على النبي امتثالاً للأمر الإلٰهي، وانخراطًا في سلك هذه الصلاة الجامعة. لم أدرِكْ كُنْهَها وحقيقَتَها، لكنّي وَجَدْتُ نفسي أطلبُ الصلَةَ مع مَنْ صَلَّى قَبْلي، وقَبْلَ كَوْنِ الزمان على هذا النبيّ الإمام. وبمجرّد أن بَدأتُ في امتثال الأمر بالصلاة عاودني السؤال، وكأنّني بذلك أفتحُ مغاليقَ هذه الأسرار، فما حقيقة الصلاة يا ترى؟

لم أجد جوابًا عن سؤالي، لكنّي أدركت، منذ اللحظة الأولى، أنّ هويّة تلك الصلاة مختلفة عن مدلول الصلاة في العُرْف العامّ. فالصلاة التي يصلّي بها المولى على واحد من عباده هي أنموذج عال، ومثال علويّ لحقيقة لا يدرك كنهَها إلّا من صَلَّى ومن صُلِّيَ عليه. تركت أمر الإجابة عن السؤال لما يرد عليّ من فوائد هذا الذكر. وبقيت بين الفكر والذكر، وكأنّي بهما فرسان يعدوان في ميدان، فتارة يسأل الفكر، فلا يسعفه بالجواب إلّا نتيجة الذكر، وتارة يذكر هذا فتسطع في أفقه شمس فكر نهار جديد، فيزداد علمًا وإيمانًا.

تساءلت مرّة أخرى، لماذا لم تربط الآية السلام إلّا بالذين آمنوا، في حين أنّ الشراكة بين الحقّ وملائكته وعباده في الصلاة؟ لماذا كان على الذين آمنوا أن يسلّموا تسليمًا؟

كان الفكر يسأل، فلا يجد جوابًا، وكنت كلّما رأيته توقَّفَ واعتَرَتْهُ عَثرة، أستنجِدُ بالذكر، فأُكثِر من الصلاة والتسليم، فأُحِسُّ ببرد اليقين، وتتوهَّجُ أمام عين قلبي حقيقةُ الصلاة، فأرى الإمام يأمرني بالاتّباع، فأمشي خلفَه إلى بلاد لا أَدري اسمها ولا كنهَها، ولم يقع التعريف لي بها، فيُخبرني من غير سؤال بأنّها تُسمّى بلاد التجلّي. فيأمرني بصلاة التجلّي. داومتُ على الصلاة، فأدركتُ، ذوقًا لا خبرًا، أنّ الصلاةَ هي التجلّي الأكبر، وأنّ الصلاة على النبي هي عين التجلّي. وبقي عليّ أن أعرفَ حقيقةَ السلام والتسليم، ولماذا أُمرنا بذلك؟ زاد سَعيرُ الذكر اتّقادًا فألهبَ إدراكي، وكدتُ أحترق ثم أعقبَه زَمْهَرير جامد أتى على ما بقي من ذاتي وأحشائي. وما طلبتُ النجاةَ والأمنَ من ذاك السعير أو ذلك الزمهرير، إلّا وتأذَّيْتُ منهما وبعد أن تلاشَتْ ذاتي، وتفرَّقَتْ أجزائي، وانحَلَّ أُنْمُوذَجُ كِياني، هَمَس لي الإمام: اطلب السلام، فأحسستُ براحة كبيرة، وغمرتني نفحةٌ كريمة، فَتَهَيَّبْتُ أوّلاً، ثم أقدَمْتُ على الأمر ثانيًا فسلَّمت، فقيل لي: بالغ في السلام، فلاحت لي أنوار من عالم الكمال، فَانْفَكَّ عنّي ما عانيته، وغمرني نور لائح لفَّني في حُلَلٍ مترادفة من النور يُضاهي بعضُها بعضًا، فعلمتُ أنّ السلام أمان، وأنّ السالك لا طاقة له على مُداومة الصلاة، لأنّ معنى ذلك مداومة التجلّي، فكيف يَسْتطِيعُ كَوْنٌ مثلي أن يستقبل أصل النور؟ وأدركت معنى قول القائل:

صَارَتْ جِبَالِيَ دَكًّا مِنْ هَيْبَةِ المُتَجَلِّي

وعلمت معنى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

لا طاقة للطين الترابي الآدمي على قبول التجلّي الأعظم في الصلاة الدائمة إلّا بالسلام التامّ الأكمل المُبْرِئِ من الأسقام والأوهام. ثم تبيَّنَ لي معنى أن تكونَ الصلاة الشرعيّة بين غايتين: الإحرام والسلام. فبمجرّد النطق بتكبيرة الإحرام يكون المرء في حالة من المناجاة المباشرة التي تَهَبُهُ، إن كان صادقًا، تجلّيَ الحقّ عليه، فيكلِّمُه. فإن كان على شرطنا اندكَّتْ جبالُه من هيبة المتجلّي، فيطلبُ منه الشارعُ الإسراعَ بالصلاة تأليفًا للقلوب ورحمةً بالضعفاء من شيخ وطفل وامرأة وصاحبِ حاجة. فهؤلاء لم يطيقوا هيبة المتجلّي، فأسرع الإمام بالخروج من ذلك التجلّي ومنحهم السلام والأمان. كان هذا الفهم الجديد لحقيقة الصلاة أمرًا لم يخطر على بالي من قبل، وعلِمتُ هول تجلّي الحقّ في الصلاة الدائمة التي لا يستطيعها أحد إلّا مع السلام، وهو القدرة على تحمّل ذلك التجلّي. فالأسماء الإلٰهيّة تطلب آثارها، وعلى الذاكر الشاكر أن يعرفَ مقادير كلّ ذكر وأوقاته وشروطه. فلا يذكر بأيّ اسم كيفما كان إلّا بإذن صريح وصحيح من الحضرتين الإلٰهيّة والمحمّديّة.

لم أدر كم مَرَّ عليَّ من الوقت وأنا في لُجَّة هذه الأذكار، مستغرِق في أزمان غير أزمان الآدميّينَ المعتادة، حتى أَذَّنَ المؤذّن، فرفعتُ الطرف عن شمس العين، فأفَلَتْ شمسُ الكون، وحانت

صلاة المغرب. وبعد الصلاة تناولتُ تمرتين وكأس ماء واكتفيت. ثم تلوتُ ما تيسّر من الآي.

وفي اليوم الحادي عشر، وجَدتُ المحلَّ مُهَيَّأً لذكر الهيللة. وأوّل ما بدأت به قول الله تعالى ﴿هو الله الذي لا إلٰه إلّا هو﴾.

تلازمَ عندي الذكر والفكر، فبمجرَّدِ أن شَرَعْتُ في ذكر لا إلٰه إلّا الله، تساءلتُ عن علَّةِ البدء بالهويّة في الآية. لم أجد جوابًا، وزاد من حيرتي أنّ الآية خُتِمَتْ أيضًا بالهويّة. لم يُسعِفني الفكر في تبيُّنِ السبب الذي من أجله بُدِئَ بما به خُتِم. عوَّلتُ على الغوص في عالم الذكر حتى تسطعَ في أُفْقِ فكري حكمةُ هذا الدَّور في الهويّة.

وما إن بدأ الإناءُ يمتلئ بهذا الذكر حتى رشَحَ بما فيه وفاض عن قياسه، فرأيتُ النفي مطلقًا في كلّ الأكوان، وما إن يواجهني ثابت حتى أُسَلِّط عليه النفيَ فيَفْنَى. تَتَبَّعْتُ كُلَّ أشياءِ العالم واحدًا واحدًا، وبدأتُ بكلّ قِبابِ الدنيا وصوامعها، فأذكرُ عليها كلمةَ التوحيد فتندَكّ أرضًا، ثم أوَيْتُ إلى الجبال واحدًا واحدًا فَصارت أَمْتًا، وهَوَتْ من صَعْقَةِ التجلّي. ولمّا لم يبقَ في الأرض جبلٌ إلّا ودَكَكْتُهُ بسطوة الذكر، أويتُ إلى مكّة الحرام لائذًا محتميًا، فزادَتْ ضَراوةُ الذكر حضورًا وتجلّيًا، وامتلأ مِضمارُ الطواف ماء، وتمسَّكْتُ بالحجر الأسود، وعمَّ مكّةَ السَّيْلُ، فَكِدْتُ أَغْرَقُ، ثم فُتِحَ لي باب الكعبة فَوَلَجْتُ إلى داخلها، ثم دخل الماء على أثري، فلم أَدْرِ أين الهروب إلّا في ملازمة الذكر. لقد علا الماءُ ترابي وطيني، وعاينتُ السماء فانفَتَحَتْ لي طاقة، ووجدتُ روحي تَطفو فوق صفحة الماء الذي أَخذَ يعلو كلّما زاد الذِّكْرُ عُلُوًّا. كنت في بحر

النَّفْيِ مُعَلَّقًا بين اللام والألف، فهذا يُسْلِمُنِي لهذا، وأنا بينهما كالريشة في مَهَبِّ الريح. وأخذ الماء يرفعني على كلّ مُرتفِع، وغَطَّى كلَّ شيء. ولم يبق في الكون المحيط سوى الماء، وأنا على صفحته كالورقة اليابسة التي تُقاومُ حركةَ الماء، وتُدافعُ الأمواجَ المتلاطمة من ها هنا وهنالك. استمرَّ الماءُ في الارتفاع، ولم يبقَ في الكون شيء إلّا عمَّه الماء. واستمرّ الماء يملأ الأرض حتى غطَّاها بالكامل حتى وصل إلى مستوى السماء الأولى، فَكَفَّ عن الزِّيادة، ووجدتُ نفسي أقفُ على صفحة الماء كأنّما أنا على أرض صلبة، فوقفت على تلك الحدود مُوَرَّدَ الخدّين، ثم سمعتُ هاتفًا يدعوني إلى الاستفتاح، فاستجبت لداعي الصدْق، وطرقتُ بابَ السماء الأولى، فقيل لي: مَنِ الطارق؟ فقلت: ابن الماء. فقيل لي: ابنٌ صالح، تفضَّل بالدخول. دخلت، فرأيت شيخًا كبيرًا لا أكبر منه عمرًا، فرحَّب بي وآنس غربتي، ثم قال لي: لقد وصلت أرضَ الإيجاب، وفارقت بحر النفي، فَأَبْشِرْ. وفجأة، عاودَتِ الأشياءُ ظهورَها، وأُخبِرْتُ بأنّها ثابتة ثبوتًا عينيًا، لا كما تخيَّلْتُ سابقًا في بحر النفي. كان ما يميّزها هنا هو النور، إذ بعضُها أسطع من بعض. وتفاوتَتْ درجاتُ النور بينها كلّما ارتَفَعْنَا في هذه البلاد. فلمّا وصلنا إلى نهايتها، ودَّعني الشيخُ الوقور، ورجع إلى مُستقَرِّه. سبَحْتُ في ذلك النور حتى وصلتُ إلى باب السماء الثانية، فاستَفْتَحْتُ كما مَرَّ معي، فَفَتَحَ لي شابّ في الثالثة والثلاثين من عمره، طويل الشعر، شديد البياض كأنّه نور، فهشَّ في وجهي، وقال لي: مَرحَبًا بالابن الصالح، فابتسمتُ له، وقال لي: خُذْ هذه الأحرف، فإنّها تفعل بالخاصِّيّة بمجرّد استدعائها، ثم ماشاني حتى

آخر بلاده، ودَّعني. سبَحتُ حتى وصلتُ إلى باب السماء الثالثة، فطرقتُ الباب طَرْقًا خفيفًا، ففَتح لي شابّ من أجمل خلق الله، ما رأيتُ أجملَ منه، فذَهِلْتُ عن حالي من شدّة جماله، ونسيت الحروف التي كنت أمسكها حتى كادت تقطع يدي، فنبَّهني وأخرجني من ذُهولي، فعُدْتُ إلى الحضور. مشى معي قليلاً حتى أوصلني إلى آخر بلاده، وأعطاني شَعْرَة من صدره، فأخذتُها وسمعتُها تُغَنِّي بأجمل الأشعار وأرفع الألحان، مع أنّها جِرْمٌ صغير في غاية الحقارة. ثم مشيتُ إلى أن وصلتُ إلى السماء الرابعة فطرقتُها، فهالني نورُها، وطلعةُ شمسِها واعتدالِها وتوسُّطِها، فجاءني رجل يحمِلُ قلَمًا في يده، فقال لي مرحبًا بك يا وزيرُ في سماء الوزارة، فمن ها هنا كان استمدادُك بالكتابة، وقد حصل لك اليوم التعريف من صاحب القَلَم الأعلى. ثم ماشاني حتى آخر بلاده، وأعطاني قلَم التمكين. سبَحْتُ حتى وصلت إلى السماء الخامسة، فطرقتُ الباب ففَتح لي رجل فصيحُ اللسان، أعلمني بأنّه وزير الخطابة في تلك الربوع، فسلَّمت عليه ورحَّب بي قائلاً: أنت ابن الخطيب، صاحب الوزارتين، وستكون صاحب القبرين. لم أدر دلالةَ قوله. وماشيته حتى وصلنا إلى آخر بلاده، وسلَّمني صولجانَ الوزراء ثم ودَّعني. سبَحتُ في الفضاء المتَّصِل بين تلك السماء والسماء التي تليها حتى وصلتُ إلى باب السادسة، فطرقت الباب، ففُتِحَ لي، فإذا بي أمام رجل قوي البنية، هائل الجثّة كثيف الهيبة، فقال لي: أنت في بلاد الكلام، فتكلَّم وأفصِحْ عن مكنون ذاتك، فقلت: لا متكلّمَ على الحقيقة إلّا الله. فقال: صدقتَ، فإيّاك أن تنطق بقول غير قوله. ثم ماشاني حتى بلغنا السماء السابعة

فرجع من حيث أتى. ومشيت بمفردي حتى وصلت إلى باب السماء السابعة، فطرقته ففُتِح لي، فلم أجد أحدًا عند الباب، فقيل لي في سِرِّي: سِرْ إلى أن تجدَ البيت المعمور، فلعلَّك تجد الشيخَ هناك. مشيتُ حتى وصلتُ إلى المكان الذي أُشير عليّ أن أذهب إليه، فوجدتُ بيتًا يشبِهُ الكعبةَ التي فارقتُها في عالم الدنيا، ووجدتُ قومًا يطوفون، ثم يأتي بعدهم قوم يفعلون فعلَهم، ولا يعودون أبدًا. ثم رأيتُ الشيخ مُتَّكِئًا على جِدار في ذلك البيت، فعلِمْتُ سببَ تأَخُّرِهِ عن فتح باب السماء لانشغاله بمهمّة القيام بشؤون الطائفين. أتيتُه فسلَّمتُ عليه، فرحَّبَ بي وطمأنني، وقال لي: طُفْ أوّلاً مع الطائفين، ثم تعال إليّ، ففعلتُ ما أمرني بي. فلمّا شرعتُ في الطواف، رأيتُ كأنّي أطوفُ بالكعبة الأولى على الأرض، ثم انتقلت إلى كعبة ثانية، ثم ثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة إلى أربع عشرة كعبة تمتَدُّ من الأرض إلى هذا البيت المعمور، فعلِمْتُ أنّ الطواف فَرْضٌ على جميع المخلوقات الطينيّة والنوريّة، فَطُفْتُ مع مختلف الأمم الطائفة، وتَحَصَّلَ لي علم ما لها من الفرائض والشرائع والحدود، وأدركتُ الحكمةَ من كلّ ذلك. فلمّا أنهيتُ الطواف، شربتُ من ماء زمزم، فاستحال بدني شفَّافًا. ثم جئتُ الشيخ، فقال لي: لقد جئتنا بعد أن أدركتَ حكمة جميع الشرائع التي سَبَقَتْ، وعليك الآن أن تصل إلى ولدنا المحمود بكلّ المحامد. ثم أشار عليّ بالطريق الذي ينبغي أن أسلُكَه حتى أصلَ إليه. قبَّلتُ يدَه ومسحَ على رأسي، ثم ودَّعْتُه، وتركتُه منشغلاً مع الحُجَّاج والطائفين.

سرتُ في تلك البلاد، فعاينتُ نورًا أزرقَ، ثم ترادَفَتْ عليّ

أنوار مختلفة الألوان، ولبستُ، في كلِّ مَرَّة أدخُلُ فيها نطاقَ نورٍ معيَّن، حُلَّةً من اللون نفسه. لم أَفْتُرْ عن الذكر، ولعلّي أقولُ إنّي لم أفتر عن الفكر أيضًا. ركبتُ مركبة عجيبة لم أَدْرِ صورَتها ولا الطاقة المحرّكة لها، إلّا أنّي خِلْتُ نفسي أمشي بسرعة فائقة، لكنّني كنتُ أُدرِكُ ماهيّةَ الأشياء رغم السرعة الفائقة التي عادة ما تمنع من تَبَيُّنِ حقائق الأشياء. لكنّ خاصّيّةَ هذه المركبة أنّها بقدر ما تَسِيرُ بهذه السرعة المتناهية، بقدر ما تُعطيك من حقائق الأشياء. وهذا مِنْ أَعْجَبِ ما رَأَيْتُ إذ إنّه يُخالِفُ ما كان معروفًا عندي في عالم الدنيا. سرنا ما شاء الله، ثم اقترَبْنا من باب عظيم يَحرُسُه مَلَكان يملآن ما بين السماء والأرض، فاستأذنتُ، فأُذِن لي ودخلتُ، فإذا بي وسط قبّة يعمُّها نورٌ أخضر، فسألت عن سرّ ذلك النور. فأجابني الصادق المصدوق: إنّك في أرض الحمد. حمِدتُ الله بمحامد عُلِّمْتُهَا في ذلك الآن، ومشى معي بعد أن خَلَعَ عليّ خِلعة من خلعه، أرى فيها النفي عين الإثبات، فأدركْتُ أنّي في أرض البرزخ والمقام المحمود. ثم رأيتُ نورًا كأنّه نار، فطلبتُ الهداية، وسمعتُ صوتًا يتلو ﴿إني آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّيَ آتيكُمْ منها بقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ علَى النار هُدًى﴾، ثم سمعت صوتًا اندكّت له الجبال يتلو ﴿إنّني أنا الله لا إلٰه إلّا أنا﴾. أصابتني الحيرة من سماع الآيتين، وطرقني سؤال عن معنى الإنّيّة في الآية الأولى، ثم معنى الإنّيّة في الآية الثانية، فركبتني حيرة أعظم، ولاح لي نور الحيرة بطلوع نجم العدم. وهنا أدركت قول الشيخ ابن عاشر لي حول الحيرة، فعلمت أنّ أعظم حيرة عرفانيّة هي معرفة العلاقة بين إنّيّة الخلق وإنّيّة الحقّ. فوجدتُ عند النار قَوْسًا، فانتابني عنده جمعيّة الأسماء مع

الاسم المفرد. ورأيت حَمَلاً، فتحقّقت عنده بشعب الإيمان. ثم حملتُ القوس، وسُقْتُ الحَمَل. ثم سرنا حتى وصلنا إلى شجرة عظيمة لها أوراق كبيرة الحجم، فوجدنا عندها أسدًا مفردًا، يعطي قوس الاسم المفرد باريها قمت فربطته إلى الشجرة. ثم سألته عن تلك الأوراق فقال لي: هذه الأوراق سجِلّات جميع الخلائق منذ ولادتهم إلى بعثهم. فسألته: وهل ورقتي بينهم؟

فأجابني: نعم، وعليك أن تجدها بنفسك. ووراء هذه الأرض يتوقَّفُ التكليف.

فقلت: علِّمني كيف أصنع لأتعرَّفَ على ورقتي.

فقال: اذكر بأُسْدِ اسمِك، واحمِل قوسَك، وانحَرْ حملَك، واقرأ كتابك.

ثم غاب عنّي وبقيت شريدًا وحيدًا.

اقتربتُ من تلك الشجرة، فرأيتُ أقلامًا تكتبُ من غير يد تمسك بها. ورأيتُ الأحرفَ ترتَسِمُ على الصحيفة، في حركة مستمرّة، فلَهِجْتُ بالتحميد والتمجيد.

حِرْتُ في أمري، وقلت: كيف لي أن أعثر على ورقتي؟ فسمعت هاتفًا يقول لي: إذا علمتَ اسمك، عرفتَ ورقَتَك.

فقلت مخاطبًا سرّي: وهل هو اسمي الذي كان لي في دار الدنيا؟

فقال السرّ: إنّه اسم أزلي، غير اسمك الدنيوي.

فقلت: فهل هو من أسماء الحقّ التي يَهَبُهَا لعباده؟

فقال السرّ: نعم، هو اسم إلٰهي لم يُسَمَّ به أحدٌ سواك.

فقلت: فهل لي من علامة أو دليل؟

فقال السرّ: السرُّ منكَ فِيكَ ظَهَر.

فقلت: لم يزدني الوِرْدُ إلّا عطشًا يا سِرِّي، والسرُّ منّي تكلّم، وكأنّه غيري. ثم صار ما كان غيري بعضَ ذاتي، اجتمع فيها السرّ مع الأخفى، فأشرقَ الفهم.

ثم بدأت أُفكِّر، وطفقتُ أَذكُر، واستوى الفكر والذكر كأنّهما شيء واحد، فوجدتُني أذكر بلغة غير لغة الحروف والألفاظ، وجرى لساني وسرّي بكلام غير الكلام المعهود. وبينما أنا على تلك الحال، قام لي ملَك نوراني له شكل طائر، فجاءني بصحيفة اقتطعَها من تلك الشجرة، وقال لي: انظر، هذه ورقتك، وعليها اسمُك في عالم الأمر.

عاينت الصحيفةَ وكانت تدور بسرعة محوريّة حول نفسها، ورأيت ما خلا من حياتي، ثم رأيت القلمَ يتهيَّب من الكتابة بين يديّ، فسألتُ الملَك الطائر من أنت؟

فأجاب: أنا جبريل.

ثم سألته عن سرّ تهيّبه.

فقال لي: إنّه سرّ القَدَر، لكنّك اليوم علمتَ اسمك ورسمك، أيّها الوتَد، وها هي علومُك الأربعة والعشرون مُسَطَّرَة على ورقتك في شجرة الخلد ومُلْكٍ لا يَبْلى، فَصَلّ على مَنْ علَّمَك. وقد رأيتَ

مثالها في عالم الدنيا، فَعُدْ من حيث أتيت، **وطَأْ** بِرِجْلِكَ هاءَ النفوس. لقد وصلت مقام الحيرة، **فطهّر** قلبك من غير الله، تحصل لك الهداية بالله.

وفي لمحة وجدتُ نفسي في خَلوتي بالزاوية أُصلّي على مُعلّمي، وألهجُ بذكر «لا إلٰه إلّا الله». وجاءني الفكر يهدي إليَّ نتائجَ الذكر حول أوَّل سؤال قامَ بي منذ أن شرعتُ في الهيللة في هذه الخلوة. فقد أدركتُ أنّ هويّة جميع الأكوان من هويّة المكوِّن. فقد تدرَّج الأمر في الآية «هو الله الذي لا إلٰه إلّا هو» بين هويّتين متطرّفتين، إحداهما هويّة غيبيّة لا مجال لمعرفة كنهها أو تبيّن حدودها، وأخرى، مستمدّة ومُفاضَة من الأولى، هي هويّة جميع المخلوقات. فبعد تنزّل تلك الهويّة الأولى من علياء غيبها (**هو** الأولى)، مرَّت بمراتب الألوهيّة (**الله**) ثم حلَّت في عالم الصلة والموصول (**الذي**) ثم انتقلت إلى الكثرة الإسمائيّة المقترنة بالنفي والإثبات (لا إلٰه إلّا) لتحُلَّ أخيرًا في الهويّة التي قامت بالمخلوقات (**هو** الثانية). فكلّ هويّة كيفما كانت تستمدّ من هويّة الحقّ إيجادًا، ثم تتنزَّل في الخلق إمدادًا. أمّا ما عدا ذلك فانتماءات وحدود كونيّة تحجُبُ حقائقَ الأشياء.

دامت رحلتي هذه من اليوم الحادي عشر، وهو يوم الهويّة، إلى آخر اليوم الرابع عشر، وهو يوم النور المحض، فأدركت سرّ الطاء والهاء. وعلمت حقيقة الحيرة، بعد أن شاهدت نجم العدم في إنِّيّة الخلق، ونور الحيرة في إنِّيّة الحقّ. فلم تندكّ الجبال إلّا لطلوع هذه الإنِّيّة.

خرجتُ من الزاوية بعد أن نِلْتُ ما نَوَيْت، وعدت إلى بيتي وجلست في قبّة الطاء، فدخلت عليَّ أمل، تُشبه الهاء، فارتمَتْ في حضني، وتمسَّكَتْ بأذيالي فقلت: يا قُرَّةَ العَيْن، ويا هَاءَ البَيْن. اعتلقَ الطاء بالهاء، وسرى السرّ منه إليها، فجرى القلم بما خُطَّ في اللوح المحفوظ، وكان ما كان ممّا لا يُسعِفُه أيّ بيان، ولا يُدرِكُه حرفٌ ولا نَقْطٌ ولا كلام. وانتشى الطاء في قبّته العلياء بهاء قرّة العين، الساكنةِ في خِدْرِ العَفاف والتعريس، وَوَطِئَ الطاءُ الهَاءَ، وَتَلَوْنَا سورة طٰه تلاوةَ وجود، وعرَّسنا في منازلها النَّيِّفِ والثلاثين بعد المائة حتى استوفيناها فطابت نفوسُنا، وغَرَسنا بذرةَ المحبّة. فلمّا حقَّقنا الوَطَر، قُمتُ إلى البستان المحاذي للدار التي كنتُ أَسكنُها، فجلستُ أتأمَّلُ تلك الفوائد المقتنصة، ونظمتُ في سلك الفرائد، غِيدًا خَرَائِد:

جلا الحقُّ قلبِي حتى أَنَارَا ... فآنَسْتُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ نَارَا

وَدُرْتُ على مركزي دَوْرَةً ... يُحَقِّرُ مَنْ دَارَها مُلْكَ «دارا»

وحَقَّقْتُ إِنِّيَّتِي وَهْيَ كَنْزٌ ... فأَخْرَجْتُهُ إذ هَدَمْتُ الجِدارا

وأبصرتُ رَسْمِيَ رسمًا محيلاً ... وأبصرتُ وصفيَ وصْفًا مُعَارا

فمَنْ كان مِثْليَ نالَ الغِنى ... وبَاهَى، وجَرَّ الذُّيولَ افتِخارا

رمى للوجود بأوهامه ... وحَلَّ القُيودَ وفَكَّ الإِسَارا

ولم يَرْض مِنْ بَعْدُ بالأَهْلِ أهلاً ... ولم يَرْضَ مِنْ بَعْدُ بالدَّار دارا

فمهما نَطقْتُ، نطقْتُ ادّكَارًا ... ومهما صَمَتُّ، صَمَتُّ اعتِبَارا

وَدَيْـرٍ قَـطـعـتُ إلـيـهِ الـفَـلاَ   وجُبْتُ الدُّجَى وركبتُ البِحارا
ونـادَمْـتُ مِـنْ أَجْـلِـهِ فِـتْـيَـةً   تراهُمْ سُكَارَى، وما هم بسُكارى
كَلِفْنَا به في سِيَاقِ الحَدِيثِ   فَقُمْنَا نُعَاقِرُ فيه العُقَارا
ولَـمَّـا حَـلَـلْـنَـا بـأكـنـافِـه   حلَلْنا الحُبى ونَبَذْنَا الوَقَارا
وطِرنا إلى الرَّاحِ فيه ارتياحًا   ومَنْ هزَّهُ الوَجْدُ والشَّوقُ طَارا
ولاحتْ لهم خَطفَاتُ البُروقِ   تَلوحُ مِرارًا، وتَخْفى مِرَارَا
يُعارضُ فيها الجلالُ الجمالَ   فَهُمْ بين قَبْضٍ وبَسْطٍ حَيَارَى
زَعَـقْـنَـا بِـرَاهِـبِـهِ زَعْـقَـةً   وقُلنا مَدَدنَا الأَكُفَّ افتِقَارا
ومن أجلِ خمرِكَ جُبْنَا الفَلاَ   وخُضْنَا الدُّجَى وقَطَعْنَا القِفَارَا
فقال: وما مَهْرُنا عِندَكمْ؟   فقلنا: أَمَتْنَا النُّفوس الغَيارى
فَكُلٌّ حَكيمٍ، وذِكرُ حَكيمٍ   عليها حَنَا، وإليها أَشَارا
مُقدَّسةً عن مكانٍ يُرَى   مُنزَّهةً عن شُعَاعٍ تَوَارَى
مُعَتَّقةً جسَّمَتْها اليَهودُ   ومِنْ بعدِها ثَلَّثَتْها النَّصارى
وقال البَرَاهِمُ والفُرْسُ فيها   وقد جَهِلوا الحقَّ: نُورًا ونَارا
وغِبْنَا فَلَمْ نَدْرِ مِنْ أَمْرِنَا   سِوَى أنَّنا قد غُلِبْنا اضطِرارا

* * *

بعد ذلك، أصاب الجِرَايَةَ الشهريّة التي كان يُجريها عليّ السلطان أبو سالم، بعضُ التأخير، وفي بعض الأشهر كان يعدو عليها النقْصُ فلا تصل كاملة. ولمّا تكاثر ذلك الأمرُ، وأصبحَ

كالقاعدة، كتبتُ إلى ابن مرزوق، صديقي الأوَدّ، حاجبِ السلطان، أشكو إليه التعطيلَ الحاصلَ في وصول الجراية، والتمَاطُلَ الذي يَلحَقُني من ابن الرَّبيب، المكلَّف بإيصالها إليّ، وأنشدت في ذلك شعرًا:

غدوتُ لِضَيْم ابْن الرَّبِيبِ فَرِيسَةً   أَمَا ثَارَ مِنْ قَومِي لِنَصْرِيَ ثائِرُ

إذا التَمَسَتْ كفِّي لديه جِرايَتي   كأنّيَ جَانٍ أَوْبَقَتْهُ الجَرَائِرُ

فسعى بإصلاح ما انتابني من ذلك الوالي الخائن الذي كتبتُ فيه رسالة أسميتُها «قطعُ الفَلاة بأخبار الوُلاة»، أهجو فيها ابن الربيب ومَنْ على شاكلته.

ثم عاودت زيارتي إلى شالة، ونصبتُ خيامي في وادي القبط في سلا على الضفّة اليسرى لوادي أبي رقراق الموالية لشالة حيث يرقد السلطان أبو الحسن، مُترحِّمًا عليه، ومُتذكِّرًا مآل الإنسان في دار الفناء. كانت النزهة في شالة ممتعة، وهي ممّا يتنافس فيه أهل عدوتَيْ نهر أبي رقراق، حيث يَنْصِبُونَ الخيام في تلك الربوع الخضراء قُبَالَةَ الوادي بأهلهم وبهائمهم، فيترُكونَ جُدران بيوتهم وينتعِشون بالهواء العَليل والحشائش الخضراء في جناب السلطان أبي الحسن:

ضربْتُ خِيَامي في حِمَاهُ فَصِبْيَتِي   تَجْني الجَمِيمَ به وبَهْمِيَ سَرْحُ

وحين انقضاء الربيع أعود إلى دياري في سلا، ثم أقضي بعض الوقت في زاوية النسّاك مُتَحَنِّثًا الليالي ذَواتِ العَدَد، فيأتي لزيارتي العلماء والأدباء، يأخذون عنّي، أو أتذاكر معهم في شؤون الطريق

والرفيق، أو في الأدب أو التاريخ.

ولمّا سمعتُ بوصول الشيخ العلّامة أبي العبّاس القبّاب، رأسِ عُدولِ الحضرة الفاسيّة إلى سلا، بادرتُ بإرسال فاضل من طلبتي ممّن يُتَلَقَّى به الضيوف، لدعوة الشيخ. فلمّا عَرض عليه الدعوة تَعجرفَ ونفر وقدَّم عُذرًا باردًا. وكنتُ قد أعددتُ له وليمة عجيبة بعد أن سمعتُ أنّه نزل بكنف لا يَسْمَحُ بِقُوت، وساءني منه هذا الامتناع، ولم يكن قصدي معه إلى القِرَى والاجتماع. فلمّا كان يوم غد، قصدني معتذرًا، فأجبتُه شعرًا، ذاع خبره، فهشَّ إلى مراجعتي عنه أحد الموثّقين من سلا ثم رددتُ عليه بما أَفْحَمَه، وكتبتُ في ذلك كُنَّاشًا، أسميتُه «مُثْلَى الطريقة في ذَمِّ الوثيقة».

وممّن سعدتُ بزيارته في هذه الأواخر الفقيهُ الناسكُ ابنُ عبّاد الرندي، وكان من تلامذة الشيخ ابن عاشر. وكان الشيخ يقول عنه إنّه أُمَّةٌ لِوَحْدِه. وقد حدَّثني عن رسائله التي كتبها لأحد مريديه في مدينة فاس، لمّا كان ملازمًا شيخَه في سلا

عشت سعيدًا في سلا، وكانت جرايتي تصلني، عدا ما كنت أجنيه من جباية غَلَّة البساتين التي كانت لي في المدينة. وقد سعيتُ في استرداد الأموال التي انْتُهِبتْ منّي في الأندلس، لكنّ أغلبَها عَدَا عليها زعانِفةُ السلطان الجديد، وانتهبوها انتهابًا، فكتبتُ إلى السلطان أبي سالم في ذلك للشفاعة عند سلطان غرناطة بِرَدِّ ما سُلِبَ منّي، وطلبتُ منه أن يُعَيِّنَني سَادِنًا على تُرْبَةِ والدِه أبي الحسن في رباط شالة. كما سألتُه في رسالتي أن يُعِينَنِي على أداء فَريضةِ الحجّ وتيسير الطَّريق لذلك. وقد وَفَّقَ الله السلطانَ من الاستجابة

الجزئيّة لطلبي، فكتب إلى أهل الأندلس قائلاً: «وإن كنتم تَبخلونَ بمالِهِ فَعَرِّفُونا بمقدارِه ليَصِلَكُمْ مِنْ قِبَلِنَا»،

فثارت نخوَتُهُمْ وابتَعَثُوا بعض ما كان لديهم من مالي، فطابت نفسي، وحَلَّ فيها الاطمئنان والسرور بدل الحزن والأسى الذي كان قد لزمني من قبل، فحَرَصْتُ على تربية أولادي الذين أخذوا عنّي العلم. وقد رزقني الله بجماعة من البنين والبنات.

ثم تَفَرَّغْتُ للكتابة فأَلَّفْتُ اثني عشر كتابًا أثناء إقامتي في سلا ومنها رسالة في المفاضلة بين سلا ومالقة، حصرتها في عشرة أنواع، كلّها كانت لمالقة على حساب سلا وقد أغاظت هذه المفاضلة بعض أصدقائي السلاويّين الذين نَزَلْتُ بِحِمَاهُمْ، وعاتَبوني على التنَكُّر لمدينتهم، مع أنّي مُقيم بها، مُؤْثِرٌ لها عن غيرها، فأجبتُهُم بأنّني فَعلتُ ذلك لأستثير حَمِيَّتَهُمْ وأدفعَهُم للكتابة عن سلا، عدا أنّ بعض أهل مالقة كانوا قد سكنوا سلا، وصار لهم حيٌّ يعرف بالمالقيّة. كما سَمَّوا مقبرةَ سلا «باب مالقة»، ويَنطِقُهُ العامّة «باب معلّقة». وعدا هذه الكتب، فقد أنشأْتُ كثيرًا من القصائد والأشعار، ومن ذلك موشّحة عن مدينتي سلا والرباط، قلت فيها:

يا حاديَ الجِمالِ عرِّجْ على **سلا** قد هام بالجَمال قلبي وما سَلا

عرِّج على الخليجِ والرَّمل[1] والحِمى

(١) الرمل، حيّ في سلا قريب من الشاطئ، وقد درست السلك الابتدائي في مدرسة الرمل التي تحوّلت اليوم إلى نيابة تابعة لوزارة التربية الوطنيّة.

في المنظَرِ البهيجِ   بالبِيضِ كالدُّمى
والأَبْطَحِ النَّسِيجِي   من صَنعةِ السَّما
للهِ من جلالِ تختالُ في حُلَى   لم تُلْفِ في اعتدالِ عنهنَّ مَعدِلا
وطُفْ مِنَ الرِّباطِ   بِرُكْنِ طائفِ
بمنزلِ اغتباطِ   دارِ الخلائفِ
مُقَدَّس المواطِ   جَمٍّ العَوارفِ
كم من سَنا هلالِ بأُفْقِهِ انجَلا   انْحَنَى على الظِّلالِ فَانجابَ وانجلَى
جَنَى النَّعيم دَانِ   والبحرُ والغديرُ
أَهِلَّةُ الشَّوَاني[1]   في أُفْقِه تَسيرُ
وقَهوةُ الدِّنانِ   يُديرها مديرُ
يا منزلَ الغَزالِ حُيِّيتَ مَنزلا   فما أُرَى بِسَالِ عنهُ وإن سَلا

أمّا سلطاني محمّد الخامس، فقد كان منشغلاً في تدبير أمر عودته إلى غرناطة، فلم يفتأ عن التخطيط لاستعادة ملكه، على الرّغم من أنّه كان يعيش عيشة الملوك، لا ينقُصُه من ذلك إلّا آلَة الملك. وقد كان أبو سالم كريمًا معه لعلمه بمقدار ما كان عليه في مملكة غرناطة، فَجَبَرَ خاطره وتركه يعيش في فاس ملِكًا كسائر الملوك، لولا أنّه لا آلَة له.

ثم انصرفتُ إلى التأليف والكتابة في الأدب والتاريخ والطبّ.

---

(١) مراكب وسفن كبيرة.

وفي تلك الأثناء مرضَتْ زوجتي، فلزمتُ داري بجانبها. وكانت قد تأذَّتْ من كثرة اجتهادها في العبادة، ومداومة الصيام والذكر والاعتكاف في مسجد الدار. دخلتُ عليها فوجدتُها شاحبةً عليلة، خلا لُمْعةٍ نورانيّة زادتها بهاءً وهيبة، فأخذتُ بيدها، والأطفال من حولنا ينتحِبون، وهي تنظرُ إليهم وتَتَحسَّر على تركهم صغارًا. طمأنتُها، والحقيقة أنّي مَنْ كان في حاجة إلى الطمأنينة، لكنّي كنتُ أعلَمُ قيمةَ هذه المرأة الصالحة التي رافَقَتْنِي في العِزِّ ثم في الغُربة، ولم تَشْتَكِ أو تَتَذَمَّرْ يومًا مَا، على الرّغم من أنّها نَشَأَتْ في الرَّخَاءِ والدّعَة، لكنّها استطاعَتْ بصلاحها أن تَنْحَجِبَ عن متَاعِ الدنيا، وتُقْبِلَ على ربّها راضِيَةً مَرْضِيّة. والحقّ أنّها هي التي سهَّلَتْ عليّ هذه الخلوة السلاويّة، وحرَّضَتْني على المكث بها، والابتعاد عن غرناطة وأهوالها

كانت تَرْقُدُ على الفِراش مَعصوبة الرأس، فالتفتَتْ إليّ قائلة:

أَمَا زِلْتَ تَحِنُّ إلى غرناطة يا أبا عبد الله؟

فأجبت: وكيف لا أحِنُّ إلى المدينة الرمّانة؟

فقالت: أما يكفيك هذا الرمّان الذي غرسنا في بستان سلا؟

فقلت: بلى يا أمل، لكنّ غرناطة مدينة يَغْتَرُّ بها كلّ من سكن بها.

فقالت: دَعْكَ مِنَ الغرور يا ابن الخطيب، وانظر إلى هناءة العيش في مدينة سلا

فقلت لها: ماذا تعني لك سلا؟

فقالت، بعد أن أغمضت عينيها كأنّها تلتمس الجواب من أحد: إنّها مدينة الكمال الذي، لا يتأتّى نواله إلّا باليأس من غرور الذات.

فقلت: فكيف السبيل، وغرناطة قد أغرتني بمفاتنها، ومالقة قد دعتني لمالها؟

فقالت أمل بلسان حكيم: دع عنك الغرور، والزم طٰه من غرنا ـ طٰه. أمّا مالقة، فألق مالها، وتملَّقْ على أعتاب مولاها، فستدرك تفاهة الكون كلّه.

فقلت: صدقت يا أنسي، ما الأندلس كلّها إلّا حلم مختلس، لن يلبث أن يبدّده جيش النهار.

أحسست بتعب أمل، فلزمت الصمت إلى جانبها، حتى استراحت ثم قالت: أوصيك بأبنائنا يا أبا عبد الله.

فقلت: عافاكِ الله وشافاك.

فقالت: لقد أجبتُ داعي الصدق، وأنا مسافرة بلا عودة، فَارْفُقْ بالأبناء، وتزوَّج من بعدي بامرأة تعينك عليهم.

فقلت: يا قرّة العين، كيف تطلبين منّي هذا، وأنا في أشدّ الحاجة إليك؟ أنت أنيسي ونصيحي حين عدمت الأنيس والنصيح، فلا تتركيني غريبًا في أرض سلا من دونك يا سلوتي. وأنت تعلمين أنّ والدك رحمه الله كان قد اشترط عليّ في صداقك أن أترك العصمة بيدك، وأن لا أتزوّج عليك. وأشهد الله أنّي لم أرغب يومًا في ذلك لأنّك ملأت عليّ حياتي.

فقالت: كان ذلك في زمان سابق. وقد قدَّر الله أن نفترق في دار الدنيا، وأرجو أن يجمعنا في الدار الآخرة. وقد أراد الله بنا خيرًا لمّا يسَّر لنا السكنى بمدينة سلا، مدينة الكمال والإيناس. فانظر إلى أهل الله ممَّنْ جاور بهذه المدينة الصالحة، فها هو الشيخ ابن عاشر، أوحد زمانه في الورع والتقى، الذي يتمرّغ ببابه الجبابرة ويذلّون، لكنّه معرض عنهم مقبل على ربّه. ولعلّك تحفظُ بعضَ ما أنشد:

سلا كلُّ قَلْبٍ غَيْرَ قَلْبيَ مَا سلا   أَيَسْلُو بفَاسٍ وَالأحبَّةُ في سَلا

فقلت: بلى يا عزيزتي، أحفظ تلك الأبيات. وقد والله تركت فاس على ما فيها من العُمران والأصحاب لأنّي وجدت قلبي هنا في هذه المدينة الصغيرة.

وسألتني أمل وهي تتعصَّر من ألم الفراق: أرجو أن توقف على المسجد من يقرأ القرآن، من غلّة البستان المجاور. فهو بقعة مباركة، ولعلّ الله ينشئ فيها من عباده من يترحَّم علينا، ويذكرنا بخير في الزمان المستقبل.

فقلت: سأجعله كذلك، وسأوقف عليه فقيهًا مقرئًا يحفِّظَ أولاد المسلمين القرآن.

فقالت: بورك فيك يا أبا عبد الله.

فقلت: يا حبيبة قلبي التي عشت معها أزهى لحظات حياتي، إنّني أشعر بحزن شديد وغربة قاتلة.

فقالت: لا تحزن، واصبر، فإنّ الله يحبّ الصابرين. ألا تريد أن تكون من محبوبي الله؟

فقلت: بلى، لكنّي أفضّل محبّة الله لي من باب اللطف، لا من باب الابتلاء.

فقالت: لا يكون الكامل كاملاً حتى يستوفي المحبّة الإلٰهيّة من جميع أبوابها.

فقلت: صدقت، لكنّي عبد ضعيف ولست من أهل الكمال، وثقتي في المولى أن يهبني، لطفًا منه، أذواقَ المحبّة من دون ابتلاء بها

فقالت: الموت حقّ يا حبيبي، فاصدُقْ مع مولاك، وإنّما هي ضَجْعَةٌ واحدة حتى يَنْسَلَّ الرُّوحُ خارجًا، ويكون اللقاء في أرض السعادة.

فقلت: يا سيّدتي العزيزة، ما أقوى جَلَدَك حتى في لحظات ضعف الإنسان.

ثم حاولت أن أستدرّ عطفها فقلت: وانظري إلى أبنائنا الصغار، لمن ستتركينهم؟

فقالت: ذلك ما يَفْطُرُ قلبي، لكنّ الحقّ أنبأني أنّهم في أمان، لأنّهم في كنفه محفوظون، لكنّ خوفي عليك أكثر، فقد رأيت ظلمًا يأتيك من قِبَلِ مَنْ أحسنت إليهم.

فقلت: لا تهتمّي بحالي، فأنا قادر على حماية نفسي من هؤلاء، لكنّي خائف على ثمرة حُبِّنا الصغار.

فقالت: لقد أذِنتُ لك في الزواج مباشرة بعد وفاتي، فلا تتردَّدْ.

ثم طلبَتْ منّي أن أُقَرِّبَ الأبناء والبنات، فقبَّلَتْهُمْ، وذَكَرَتْ لهم بأنّها مسافرة. ثم أحسَّت بتعب شديد، واستَلْقَتْ على فراشها، فرأيت شفتيها تَفْترّان عن شيء خافت، علِمْتُ أنّه الشهادة، ثم نظرَتْ إليّ نظرة أخيرة، ولمع بريق عينيها، فقبَّلتها على جبينها، فأضاءت لي تلك القبلة ما بين عالم البرزخ إلى قيام الساعة، ووطئت تلك الأرض، فاستوى عندي كلّ شيء وهان، وسمعتها تقول: إلى الرفيق الأعلى، ثم انقطع نفَسُها، وعَلَتْها لمعة بيضاء على جبينها مثل نور البدر ليلة التمام، وبقيَتْ معها تلك الهالة النورانيّة.

غسَّلتها بنفسي من البئر التي حفرناها في المسجد، ثم صلّينا عليها صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر في المسجد الذي كانت تتعبَّد فيه، وحفرتُ حفرتها بيدي، ثم حشرتُها في القبر ودفنتها في البستان الملاصق لداري، وأنا أردّد «بسم الله وعلى ملّة رسول الله». وبعد دفنها دعوت لها من المأثور: «اللّهم هذه أمَتُكَ نزلَتْ بك، وأنت خيرُ مَنزولٍ به، فاغفر لها وَوسِّع مُدْخَلَهَا اللهمّ ثبِّتْها بالقول الثَّابت في الدنيا والآخرة، اللهمّ ثَبّتْهَا على الصّراط، اللهمّ لَقِّنْهَا حُجَّتَها، اللهمّ ثَبِّتْهَا عند اللِّقاء».

أقمت لها جنازة مشهودة، وفي الليل حضر العلماء والفقهاء وحفظة القرآن، المادحون والمسمعون. وبعد أن ختمنا سلكة القرآن عليها، جاء دور السماع، فألهب المسمعون والمادحون الحضور بأنغام من طبع الذيل، وهو من الطبوع الترابيّة الباردة اليابسة، التي تبعث على الحزن والشجى، وتحرّك مزاج السوداء،

وتؤدّى في جوف الليل. فتفنّنوا في تأليف تلك الطبوع، وانتقلوا من واحد لآخر ببراعة متناهية، فأدّوا الذيل، ورمل الذيل، وعراق العجم، وعراق العرب، ورصد الذيل، ومجنب الذيل، فألهبوا حماس الناس. واستمرّ الأمر إلى الصباح، فعمّتنا السكينة ورقّت قلوبنا، وحنّت إلى لقاء الحبيب، وهانت الدنيا علينا، وتقنا للآخرة. وما من صادق محبّ إلّا وتمنّى ترابَ القبور على وِصَالِ البُدور .*مكتبة الرمحي أحمد*

ثم أكثرت طويلاً من الاستغفار لها، وتذكَّرت تجربتي في زاوية النسَّاك، وكيف أنّ دخولي إلى الطريق كان من باب التوبة والاستغفار، أي من الباب ذاته الذي خرجت به أمل إلى دار الآخرة.

حزن أهل سلا لموت أمل التي كانوا يسمّونها السيّدة الشهباء لبياضها، فقد كانت كريمة معروفة لدى الخاصّ والعامّ بمكارم الأخلاق وحسن السيرة، وحازت بذلك مزيّة الشهرة، حيث حلَّتْ من القطرين. فلمّا توفّيت أطلق الناس على مسجد الحيّ الذي كنّا نسكنه مسجد السيّدة الشهباء لأنّها كانت تتعهّد القرّاء والفقهاء والطلبة بالعطايا والصدقات.

خلال الأيّام التي تَلَتْ، أُصِبْتُ بالذهول، ورأيت الهالة تحوم على القبر لا تفارقه. ثم غرست في اليوم الثالث سدرة تظلّل قبرها، ورأيت طيورًا خُضْرًا قد استقَرَّتْ في البستان قريبًا من الشجرة التي غرستها بإزاء قبر زوجتي الصالحة أمل. لقد انْهَدَّ ركن عظيم في أساس بيتي، وَوَجَدْتُنِي كالتَّائه في الفَلاة لا أدري

أين النجاة، ولا السبيل إليها. ولولا حرصي على مسؤوليّة العناية بأولادي لكنت لحقت بزوجتي في قبرها، فلم يعد يطيب لي قرار في هذه الدنيا بعدما فارقَتْ أُمُّ أولادي وقُرَّةُ عيني وحِبُّ قلبي ربوعَ داري، فلا مؤنس لي ولا سند.

أصابني غيابها في مقتل فلن أصبر على غيابها. كنت أقوم مذعورًا من فراشي في الساعات المتأخّرة لأناديها فلا يجيبني سوى رَجْعُ الجدران. واستمرّ الأمر بي حتى أشرَفْتُ على الهلاك، ثم حَلَّ بي نوع من الهَوَس والجنون الإرادي، فَصِرْتُ كالمجاذيب أَنْطِقُ بلسان الغائب الحاضر. كان الناس من حولي يتأسَّفُونَ على حالي ويَرْأَفُونَ بي، ويحوقلون كلّما رأوني. لكنّي كنت لا آبه بذلك، فقد نابني الدهر بفقد أمّ أولادي التي كانت لي نِعْم السنَد في حيرتي وضلالي، وذلّي وفقري من بعد عزّي وسلطاني.

كنت أقول لها من قبل: لا نوم اليوم في غرناطة، فماذا أقول لها اليوم وقد فارقَتْني إلى غير رجعة؟ لم أجد جوابًا عن سؤالي. أفأقول مرّة أخرى: لا نوم اليوم في سلا؟

لقد أصبحت حقًّا صاحب العمرين، لكنّي بلا عُمْرٍ إذ لم أطعم منهما إلّا الأمَرَّين، فلا نوم يأتيني ولا راحة تكتنفني. وقد فُجعت اليوم في أعزّ محبوب. وطفقت أتساءل، كيف أكون ذا العمرين، ولم أطعم عمرًا واحدًا؟ ما فائدة أن تبقى صاحيًا ليلاً ونهارًا؟ أوتستطيع ذلك، أوتنازع في من لا ينام؟ ما جُعِل النهار إلّا لِلَّيل، وما جُعِل الليل إلّا للنهار. كما جُعِلَت حوّاء لآدم، كذا خلق آدم لحوّاء. ولماذا الجَعْل؟

فأُجيب بعض ذاتي: ما الإنسان إلّا جُعَلٌ كبير. فكلاهما يَدِبُّ على هذه الأرض.

ثم أسأل مرّة أخرى: لماذا يريد البعض أن يُفْرِد الشفعَ وِتْرًا؟ أَوَليس هذا من باب التَّحكُّم؟ ما جُعل العُمْر عُمْرًا إلّا لأجل عمارته بالليل والنهار معًا، فكيف تريد يا ابن الخطيب أن تفرده للنهار وحده؟ أم أنّك لا تحتمل ظلمة الليل، فتجعل له من ضوء عينيك نهارًا مستمرًّا؟ يا ابن الخطيب، اعْمُرْ ليلكَ كما عَمَرْتَ نهارك، ولا تَخَفْ من ظلمة الليل، فما أخطأَكَ لم يَكُنْ ليُصيبك، وما أصابكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَك. أخوفك من الموت تحوّل إلى الخوف من النوم؟

وما بالك لا تعكس الأمر، وتنام بلا قيام. كيف كان سيكون أمرك؟ ولعلّ من القوم من يفعل مثلك في نومه وليله، مثلَ ما تفعل أنت في نهارك.

لجأت إلى قرب الشجرة التي غرست بإزاء قبر أمل وصلّيت ركعتين، ثم توجّهت بالضراعة إلى مولاي لعلّه يشفي سقمي ويداوي علّتي، فقلت على لسان طٰه المصطفى عليه الصلاة والسلام، يوم أن أخرجه قومه ورشقه أهل الطائف بالحجارة فأدموه، فقال: اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدوّ ملَّكْتَهُ أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنّ عافيتَك هي أوسعُ لي. أعوذ بنور وجهِكَ الذي أشرَقَتْ له الظلمات، وصَلُحَ

عليه أَمْرُ الدنيا والآخرة من أن تُنْزِلَ بي غضبك، أو يَحُلَّ عليَّ سخَطُك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوّة إلّا بك.

فإلى متى أبقى منغّص الفكر والبدن؟ بعيدًا عن وطني الذي درجت فيه، وقد انتابه الأعداء يقتطعون منه في كلّ مرّة، وأهلنا سادرون في الغيّ، متغافلون عن المصير المحتوم الذي ينتظرهم. لقد أخذْتَ منّي أملي، يا منتهى أملي، فجمِّلْني بالصبر، وأسْدِلْ عليَّ رداءه، فلولا نوالُكَ ما طقت العيش من دونها لقد رحلَتْ أمّ أولادي، وقرَّة عيني وشمس داري، وبقيتُ وحيدًا لا سند لي ولا معتمد، فهل تجبر هذا الكسير، الذي زرعْتَ هذه النَّفْس الأَبِيَّةَ بين جَنْبَيْه؟ فلا يغمض له جفن، ولا يجد النوم إليه سبيلاً ما أتعسه من وزير وكاتب، جمع بين وزر الوزارة، وتقييد ما وزر بالكتابة. يا ذا المنّ والطول، ٱرْفُقْ بعبدك الذليل الواقف بأعتابك، وَٱئْذَنْ له بالدخول. ولولا الخوف على الذرّيّة لتمنّيت الموت للّحَاقِ بالحوريّة. اربط على قلبي، وطهِّر نفسي من ارتباكها وتركيبها. لقد نازعتني طويلاً منذ عقلت، فلا أراها ترعوي أو تتوب إلى رشدها، فلعلّك تستضيفها في ركن شديد يَسُفُّ منها التركيب، ويريحها بالإفراد الذي نَعِمتُ به في تلك الخلوة المباركة حتى طُفْتُ مع الملإ الأعلى، وَوَصَلْتُ إلى سدرة المنتهى، ووقفت عند شجرة طوبى، فعلمت اسمي ورسمي، ولهجت بالمحامد التي علَّمتنيها هناك.

وفجأة أحسست براحة كبيرة، بعد جريان هذا الكلام المبرئ من الأسقام على لساني، ورأيت كأنّ الشجرة التي كنت أستند إليها

قد نالها من حالي فاستحالت بأحوالي، ودمعت بالطَّلِّ أوراقها النَّوَادِي. ثم أنشدتُ قائلاً:

رَوَّعَ بَالِي وَهَاجَ بَلْبَالِي ... وَسَامَنِي الثَّكْلُ بَعْدَ إِقْبَالِ
ذَخِيرَتِي حِينَ خَانَنِي زَمَنِي ... وَعُدَّتِي فِي اشْتِدَادِ أَهْوَالِ
حَفَرْتُ فِي دَارِي الضَّرِيحَ لَهَا ... تَعَلُّلاً بِالمُحَالِ فِي الحَالِ
وَغِبْطَةً تُوهِمُ المُقَامَ مَعِي ... وَكَيْفَ لِي بَعْدَهَا بِإِمْهَالِ
سَقَى الحَيَا قَبْرَكِ الغَرِيبَ وَلاَ ... زَالَ مُنَاخًا لِكُلِّ هَطَّالِ
قَدْ كُنْتِ مَالِي لَمَّا اقْتَضَى زَمَنِي ... ذَهَابَ مَالِي وَكُنْتِ آمَالِي
أَمَا وَقَدْ غَابَ فِي تُرَابِ سَلاَ ... وَجْهُكِ عَنِّي فَلَسْتُ بِالسَّالِي
وَاللهِ أَحُزْنِي لاَ كَانَ بَعْدُ عَلَى ... ذَاكَ الشَّبَابِ الجَدِيدِ بِالبَالِي
فَانْتَظِرِينِي فَالشَّوْقُ يُقْلِقُنِي ... وَيَقْتَضِي سُرْعَتِي وَإِعْجَالِي
وَمَهِّدِي لِي لَدَيْكِ مُضْطَجَعًا ... فَعَنْ قَرِيبٍ يَكُونُ تَرْحَالِي

وقد كتبت هذه القصيدة على ضريحها المتّصل بالدار.

لمّا غرستُ شجرة التعريف بالحبّ الشريف، وسقيتها بماء الحياة، اعشوشبت الأرض من حولها ونمت كما ينمو الولد في أحشاء أمّه، وطلعت الشجرة غصنًا عاليًا مستقيمًا

مرّت الأيّام سريعًا، وأنا أتعاهد الشجرة بالسُّقيا كلّ يوم، ثم أجلسُ في القبّة المطلّة على البستان أستمتعُ بهذا الغرس الجديد، وآنسُ بزينة هذا الروض العجيب.

في بعض الأحيان أخرجُ لملاقاة الأصحاب من علماء هذه المدينة المؤنسة وأدبائها وصلحائها، لكنّي سرعان ما أعود إلى داري. وما إن أصل حتى أنحني لدخول الدار على عادة أهل سلا الذين جعلوا خُوخَةَ(١) أبواب دورهم قصيرة بحيث تضطرّ للانحناء كلّما دخلت.

ثم اجتزت السُّطْوَانَ، وهو مَمَرٌّ يفصل بين الباب عن وسط الدار بحيث يكون مثل المعبر إلى وسط الدار، المطلّ على السماء. وقد فهمت أنّ أهل هذه المدينة الصالحة يطرحون أنفسهم تواضعًا كلّما دخلوا دورهم لكيلا يشعر الجيران بتعاليهم. فلا بدّ أن ينظروا إلى الأرض خضوعًا وتواضعًا. فإذا دخلوا إلى وسط دورهم جاز لهم أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء، فهم بين ذلّة وعزّة. وبعد أن يجوز المرء من السطوان حتى يستوي في وسط الدار المربّعة، المنفتحة على السماء. وفي وسطها نافورة تصدح بنثر الماء على الأرض. ومن أصل هذه النافورة تمتدّ قناة مائيّة لها شكل الحَنَش، تخرج مباشرة إلى البستان، فيقع ماؤها في صهريج صغير نبتت فيه نباتات مائيّة. وفي كلّ جهة من جهات الدار غرفة لها باب خشبي بِرِتَاج، يُفتح على وسط الدار، وشُبَّاكين حديديّين. وفي إحدى الجهات بُرْطَالٌ، وهو عبارة عن مجلس له قوس معقود، ينفتح بالكامل على وسط الدار، عادة ما أحبّ الجلوس فيه، ويقابلني من

(١) الخُوخَة: باب صغير يُشَقُّ في الباب الكبير، وعادة، ما يبقى الباب الكبير مغلقًا إلّا للضرورة، ويدأب الناس على الدخول من هذا الباب الصغير. أمّا البُرْطَال، فهي كلمة قشتاليّة قديمة، وتعني الباب، إلّا أنّ أهل الأندلس والمغرب يستعملونها للدلالة على مجالس وسط الدور العتيقة.

الجهة الأخرى باب له شكل القوس المعقود نفسه، ينفتح على البستان، فتسرح عيني من البُرطال إلى النافورة وقناتها التي تنساب إلى خارج البستان، فتنساب نفسي مثل انسيابها، ويسرح الفكر في هذه الأفناء. أمّا غرفة نومي فكانت بالطابق العلوي المطلّ على وسط الدار بالمَجَاز المربَّع المحجوز بالدرابزين المصنوع من الحديد المُلَوَّى على شكل دوائر ومتاهات متناظرة.

* * *

حدثت أمور كثيرة في سياسة المغرب، حيث قُتل السلطان أبو سالم، واستبدّ بالأمر الوزير عمر بن عبد الله، وانشقّ عنه شيوخ بني مرين فاستَولَوْا على مكناسة الزيتون، وامتدَّتْ أياديهم إلى سلا، فَخِفْتُ على صغاري وأهل بيتي، ولجأتُ إلى مُهادنة المتغَلِّبين الجُدُد.

وقد دخلوا مدينة سلا في تاسع محرّم من سنة سبعمائة وثلاث وستّين للهجرة، وامتدَّتْ يَدُ أوباشهم إلى باب فاس فأقفلوه، وضجَّ الناس بمنع الحركة عنهم، وحدثَتْ فتنة في هذه المدينة الهادئة، واستمرَّتْ حتى شهر صفر، ثم نَصَّبَ قائدُ الثورة، الوزيرُ عبد الله ابن عمر، السلطانَ الجديد، تاشفينَ الموسوس ابن أبي الحسن، فَمَدَدْتُ يدي للتقرُّبِ منه، وخاصّة بعدما عَدِمْتُ النصِير بابتعاد صديقي حاجبِ السلطان، الخطيب ابن مرزوق.

شَدَدْتُ الرحْلَةَ إلى فاس رجاءَ أن يَزولَ عنّي ما لحِقَنِي من وفاةِ أمل حياتي، وخُلُوِّ بيتي من الأَنيس الذي أَفْزَعُ إليه. قَدِمْتُ على الوزير، فأدخلني على السلطان أبي عمر الموسوس، فقدَّمْتُ له

فُروضَ الطاعة، وأنزلني مَنْزِلاً كَريمًا في دُورِهِ، وطَعِمْتُ في خِوَانِه. كانت تخدُمُنَا خلال تلك الوليمة جاريةٌ روميّة تَعَلَّقَ بها قلبي، وأَشَرْتُ إليها بِطَرْفِ عيني في غَفْلَةٍ من السلطان ووزيره، فابتسَمَتْ لي في دَلال، عَرَفْتُ منه رِضَاهَا عنّي. وفي الصباح أنعمَ عليَّ بوافر العطايا، وجدَّد صُكُوكَ الرعَايَة، فَوَجَدْتُهَا فرصةً سانحة، فأعلمتُه بحزني على وفاة أمّ ولدي، ووحشتي في سلوتي. وسألتُه الجارية التي قامت بالخدمة في وليمة العشاء، منشدًا:

قَصَدْتُ إِلَى المَوْلَى أَبِي عُمَرَ الرِّضَا غَدَتْ بِالَّذِي يرضى المشيئةُ جَارِيهْ
وَطُوفَانُ هَمِّي قد طغى لِيُجيرَني وَتُرْكِبُنِي آلاؤُهُ فَوْقَ جَارِيَهْ
وإنّي لَرَاضٍ بالذي يَرتَضِيهِ لي **ولو عَبَدَتْ آباؤُها شَنْتَ مَارِيَه**[1]

فأجابني ممازحًا: أَوَاشتقْتَ إلى الرُّكوب يا أبا عبد الله؟

فقلت: يا سيّدي، لا حَرَمَنَا اللهُ نِعْمةَ الرُّكوب، وإن كنتُ أتحدَّثُ في أبياتي عن سفينة جُودِكَ التي أركَبْتَنِي.

فضحك السلطان، وتفضَّلَ عليَّ بالجارية النصرانيّة بلا تردُّد ولا امتراء. رجعتُ سليمَ القلب إلى سلا، مُنَعَّمًا بهذه الغَادَة التي سكن لها قلبي، وهَفَّ لها فؤادي. فلمّا أركبتُها على البغلة، قَبَّلْتُها كما فعل عنتر مع عبلة. وكم كنتُ أَحُثُّ خُطى الدابّة إلى أرض سلا حتى أظفرَ بنيل المَهَا

وصلتُ إلى سلا فاهتَبَلْتُ بماريّة، وزال عنّي تَنغيصُ الليالي

(١) شَنْتَ ماريّة: معناها بالقشتاليّة، القدّيسة ماريّة (Sainte Marie). ومن سخريّة القدر أن مسجد الحمراء يسمّى اليوم كنيسة سانتا ماريّة.

الخالية، ووجدت للنوم راحةً لأوّل مرَّة في حياتي. لكنّ الحياةَ عادت لِتُنَغِّصَ عليّ راحة بالي، فقد خلع الوزيرُ المستبِدُّ السلطانَ الموسوس، وبايع لأبي زيّان محمّد بن عبد الرحمٰن، فعاودني التركيب، وحوَّلْتُ لساني وقلمي إلى مدحه والتنويه به، مخافةَ أن يَعْدُو عليّ القوم، أنا الموتورَ في بلدي وزوجتي أمل. ثم وَفَدْتُ عليه في فاس لتجديد الحُرْمَةِ والجِرَايَة في زمن تقلَّبَتْ فيه الأمور. وَصَلْتُ إليه في مُتِمِّ شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاث وستّين وسبعمائة، وكان الوقت شتاء، والبرد في فاس قارس فقابلني ليلةَ وصولي، واختلَى بي في بُحبوحَة قصره على أريكة مُلكه، وبِتُّ في بعض حُجَرِهِ، وأُطْعِمْتُ من خَاصِّ خِوانه، بمواكَلَةِ وزيره. بِتُّ تلك الليلة صَاحيًا حتى نَظَمْتُ قَصِيدَةَ مَدحِه التي ألقيتُها في اليوم الموالي. فراقته واهتبلَ بها اهتبالاً، وجدَّد ظهائر العناية والتوقير، وأسبغَ النعَمَ الكبيرة، وقَرَّرَ الجِراية المعلومة، فرجعتُ من عنده مُهَنَّأً مسرورًا. ثم مدحتُ الوزير بقصيدة نظمتُها لعلمي بموقعه من هذه الدولة، وخوفي من استبداده، على الرّغم من أنّني في قرارة نفسي ناقم عليه لقتل السلطان أبي سالم الذي كان لي سَنَدًا ودعمًا، وخِلًّا وَفِيًّا منذ منفاه في غرناطة. لكن، من الدهاء أن يُقَبِّلَ المرءُ اليدَ التي لا يستطيعُ قطعَها ومُدارَاةُ هذا الوزير أفضلُ من مواجهته. وقد عرضَ عليّ الخدمةَ في الأعتاب المرينيّة، فرفضتُ رفضًا مُهذّبًا لعلمي بعدم استقرار الأحوال، فلماذا أَزُجُّ بنفسي في مُعْتَرَكِ الفتنة، وقد أنجاني الله من بين أنيابها لمّا كنت في غرناطة.

خلال مكثي بفاس، بقيتُ مُنْتَبِذًا عن محمّد الخامس مُدَّةَ إقامتي بها، على الرَّغم من دعوته لي بمصاحبته، فَطيَّبْتُ خاطِرَه

واعتذَرْتُ عن العودة للخدمة، لكنّي عاهدتُه على الوفاء له حتى يعودَ لكرسي ملكه، إن أمكنني ذلك، فقبِلَ منّي على مَضَض، وأكَّدَ عليّ في العودة إلى الوزارة حالَ عودتِه إلى ملكه.

بعد ثلاثة أشهر من زيارتي إلى فاس، وعودتي إلى سلا، وصلني كتاب من الوزير عمر بن عبد الله، يخبرني بما انتهى إليه الأمر في غرناطة، من انقلاب الرئيس أبي سعيد على السلطان إسماعيل وقتلِه، وجَوازِ السلطان المخلوع محمّد الخامس إلى الأندلس.

فلمّا وصلتُ إلى فاس على وجه السرعة، أخبرني الوزيرُ بما انتهى إليه أمر محمّد الخامس الذي لم يَفْتَأْ في سعيه لاسترداد ملكه، بدعم من أبي سالم ووزيره، حيث سمحا له بالجواز إلى رندة التي كانت من أملاك المرينيّين. ومنها نجح في جمع أنصاره والدخول إلى غرناطة، وَفَرَّ الرئيس أبو سعيد إلى قشتالة. أطلعني الوزير على كتاب محمّد الخامس الذي أوصاه بدعوتي للقدوم عليه مع ولده يوسف. كنت مُتَلَكِّئًا في العودة إلى غرناطة، لكنّ السلطانَ المريني ووزيرَه أرادا تمتينَ العلاقات مع مملكة غرناطة، فرغَّبا لي في القيام بمهمّة العودة إلى الأندلس رفقةَ وَلَدِ السلطان. ثم إنّ الشعورَ بالمسؤوليّة التي طُوِّقْتُها، والثقةَ التي وضعَها محمّد الخامس فيَّ، وطلبَه إلى الوزير لعودتي رفقة ولده، كلُّ ذلك لم يدع لي هامشًا للمناورة والتَّلَكُّؤ، فأرسلت كتابًا إلى السلطان، أستوثقُ به منه بأداء ما كلَّفني به من إيصال ولده إليه، ثم الاعتذار عن الوزارة والعودة إلى خلوتي السلاويّة، وأداء فريضة الحجّ من غير تلبُّسٍ بخدمة، ولا غَمْسِ يَدٍ في فَرْثِ خُطَّة.

شجرة الطبوع (طُوبَى)

سافرتُ إلى غرناطة في شهر رجب، حاملاً رسالة من السلطان المريني إلى سلطاني محمّد الخامس. وعلى بعد مرحلتين من الشروع في السفر، وصلني كتاب من سلطاني، يخبرني برجوعه إلى ملكه، ويطلبُ منّي العودةَ إلى الوزارة، ويبشِّرُني بإنفاذ أوامره، وإعادة ما سُلِبَ منّي من دُورٍ وضِياع وأموال، وقد كان يعتقد أنّي ما زلت في سلا لكنّي وصلتُ بعد شهر من خروجي على أفضل حال وسيرة، بعد أن جُزْتُ من سبتة. وقد كنت نظمتُ قصيدة في هذا الفتح الغريب القريب.

ولمّا وصلتُ إلى غرناطة استقبلني السلطان فَرِحًا مُستبشِرًا مَسرورًا، وخصَّني بإكرام ملوكيّ رفيع. فلمّا جلستُ إليه، بالغَ في التوَسُّل إليّ بالعودة إلى منصبي، فلم أستطع أن أَرُدَّ تَوَسُّلَهُ، وأعتذرَ له عن العودة إلى الوزارة والكتابة، سيّما وقد أشركني في أمور الحكم، فلم أَجِدْ بُدًّا من العمل على تقوية العلاقات مع المغرب وحماية هذا الثغر ممّا يتهدّده من المطامع.

عُدْتُ إلى دُوري وقُصوري بعد أن استلَمْتُهَا من صِهري، الحاجّ المعظّم الوزير، ولد أستاذي الرئيس ابن الجيّاب. ثم توسَّطَ لي بعض الأقارب ورغَّبوني في الزواج من بنت جُزَي، وهي امرأة غنيّة من بلدتي، مات عنها زوجها، وترك لها ولدًا، اسمه أحمد بن سليمان بن فركون، فتزوَّجْتُها وتعهَّدْتُ الولدَ الرَّبيب، وقدَّمتُه للعمل في ديوان الكتابة، وصار من تلامذتي.

أمّا الولد ابن زمرك الذي كنت قد توسَّطت له سابقًا للعمل في الكتابة، فقد سعى بطرقه إلى الوصول إلى قلب محمّد الخامس أثناء غيابي، ومدَحَهُ بعدّة قصائد، لكنّي كنت أحدِبُ عليه رغم ما أعرف عنه من طُموح في غير مَحَلِّه. ثم قدَّمتُ أبا الحسن البُنَّاهي[1] لخطّة القضاء والخطابة في غرناطة، ومَضَيْتُ أملأُ الأندلس وقصر الحمراء بأشعار دبَّجتُها على كلّ الأحجار والأسوار، وفي البساتين الغَنَّاء والسواقي الجارية، وتحت أقدام الأُسود الفاغرة أفواهَها.

وعنَّت لي العَوْدَةُ إلى جنَّة العَريف، فزرتُها، واستأذنتُ السلطان في غرس شجرة بها، فأجابني وأطلق يدي كالمتصرّف في ملكه، فأخذت شتلةً كنت قَدِمْتُ بها من بستان سلا، أخذتُها مع ترابها من قرب قبر زوجتي أمل، لأزرَعَها في غرناطة حتى تكونَ لي عَزاءً. غرستُ الشَّتْلَةَ وتعاهدتها بالرعاية والسقيا، فنبتَتْ سريعًا ومع مرور الأيّام ارتفعَتْ في السماء، وبدأْتُ آوي إلى ظلِّها كالطائر، فتأخذني أحوالُ الذكر إلى ما شاء الله من البلاد، ثم أَعودُ.

---

(١) قد وقع تصحيف اسمه إلى النباهي، وهو خطأ، بدليل تسمية ابن الخطيب له في كثير من أشعاره وتآليفه بالبُنِّي، والنسبة إليها: البنّاهي، وليس النباهي.

وفي غيرها من الأوقات كنت أخلو إلى ماريّة التي كانت تخفِّفُ ممّا لحقني من فراق أمل، ثم كانت تؤنسني في غربتي ووحدتي. كما كانت ترافقني أحيانًا في جولاتي داخل جنّة العريف، فتلاحظُ كثرةَ وُقوفي عند شجرة الرمَّان العظيمة، وكثرةَ مُعاينتي لها، فَراعَها الأمر. فلمّا تَكَرَّرَ منّي ذلك، ألَحَّتْ عليَّ في السؤال فأطلعتُها على قصّة خيانة محظيّة السلطان أبي الحجّاج، واغتياله على يد جماعة نظام الرمّانة. فلمّا سمعَتْ كلامي فَزِعَتْ من ذكر اسم الرمّانة، فسألتُها عن سبب فزعها، فأخبرَتني بأنّ نظام أبناء الرمّانة، أو نظام أبناء المسيح نظامٌ مَارِق، ويُحسَبُ على الزندقة داخل الكنيسة. ويعيش أنصارُ هذا النظام في قِلاع مُحَصَّنة في جبال البرانس جنوبي فرنسا، وكانوا قد استطاعوا أن يتسلَّلوا إلى إسبانيا، ونجحوا في استمالة بعض النبلاء من العائلات المالكة. ومن هؤلاء بعض إخوة الملك بيدرو الخارجين عليه.

ثم سألتها عن كيفيّة وُقوعها في الأسر، فأخبرتني بأنّها بنت أحد أتباع ملك قشتالة. وقد قَبَضَ عليها في إحدى تنقّلاتها قُطّاعُ طُرُقٍ يُتاجِرون في بيع الرقيق.

ثم أكملَتْ: وقد اشتراني تاجر يهودي قَدِمَ بي إلى فاس وباعني، فدخلتُ قصر السلطان قبل مدّة من لقائنا هناك، حتى طلبتَنِي.

فقلت: وما هي أسبابُ صراع الملك بيدرو مع أخويه؟

فقالت: مباشرة بعد موت الملك ألفونسو الحادي عشر، بمرضِ الطاعون، أثناء حِصَارِهِ لمدينة طريف، اعتلى العرشَ ولدُه

الشرعيُّ الملك بيدرو الأوّل، وسعى إلى إقصاء إخوته المنافسين له، بتحريض من والدته الملكة ماريّة التي عملت على الانتقام من ليونور القزمانيّة، سَرِيَّةِ الملك الراحل وأبنائها منه، فقَبَضَ على أخويه غير الشقيقين، الدوق هنري، والدوق فادريك، زعيم نظام فرسان سانتياغو.

ثم ساءت الأحوال بينهما، فلجأ فادريك وهنري إلى ملك البرتغال بيدرو الرابع، ليساعدهما على أخيهما الملك بيدرو الأوّل الذي خسر كثيرًا من حلفائه بسبب سياساته في قتل أعدائه ومنافسيه.

ثم سألتها: ولماذا يحارب الملك بيدرو الأوّل أتباع نظام الرمّانة المرتبط مع نظام سانتياغو؟

فقالت: رغم أنّ الملك بيدرو هو الملك الشرعي، إلّا أنّ أخويه هنري وفادريك التوأمين يعتبران أنّهما أحقّ منه بالملك لأنّ أمّهما كانت تُرَوِّجُ في الخفاء أنّها من سلالة السيّد المسيح. وكانت قد أقنعَتْ زوجَها الراحل، الملك ألفونسو، بهذه الزندقة، فانحاش لها وأهمل زوجته الشرعيّة وابنها وقد كان يعمل على تولية أحد ولديه غير الشرعيّين بعده، لولا أنّ موتَه المفاجئ قَلَبَ جميع الحسابات، وتمكَّنَتْ زوجتُه الشرعيّة ماريّة، بدعم من الكَنيسة، في تولية ابنها بيدرو الأوّل عرش قشتالة، وسنحَتْ لها الفرصة في البطش بغريمتِها ليونور القزمانيّة وأبنائها. وحينما تولَّى الملك، قبَضَ عليهما ثم طاردهما وحاربهما، وتمكَّنت والدتُه من قتل غريمتها ليونور، فقاما بالثورة على الملك بيدرو.

ثم سألتها: وما هي العلاقة بين نظام سانتياغو ونظام الرمّانة؟

فأجابت: عَقَديًا، هما مختلفان، لكنّ نظام الرمّانة يريد الاستفادة من قوّة نظام سانتياغو لبسط نفوذه على الأندلس، وتنصيب ملك من سلالة السيّد المسيح كما يزعمون.

وأمّا نظام سانتياغو فأنت تعلم أنّه نشأ ليُحرِّر الأندلس من المسلمين بعد معركة شنت يعقوب التي دكَّ فيها المنصور مدينة سانتياغو المقدّسة، وهدم كنيستَها العظمى التي تحوي رُفاتَ القدّيس يعقوب، علمًا بأنّ النظام لم يتأسّس إلّا بعد مرور أكثر من ١٧٠ سنة على هذه المعركة.

فقلت: نعم، إنّه المنصور بن أبي عامر، الذي استبدَّ بالملك بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر، فقام بعدّة غزوات في بلاد الأندلس بلغت أربعًا وخمسين غزوة لم يُهْزَمْ في واحدة منها، فهابه الناس، وزرع الرعب في قلوب ملوك قشتالة وجليقيا وغيرهما. ومن أهمّ غزواته وأكبرها معركة شانت يعقوب، نسبة إلى أحد حواريّي سيّدنا عيسى عليه السلام المدفون هناك. وقد غزا المنصور شانت يعقوب، التي أصبحت تعرف بسانتياغو، وهدم الكنيسة العظمى، ثم جلب نواقيسها إلى جامع قرطبة لِتُعَلَّقَ على رؤوس الثريّات الكبرى. لكنّه حافظ على حرمة قبر الحواريّ، امتثالاً لأمر دين الإسلام.

فقالت: نعم، منذ ذلك الحين ثارت ثائرة المسيحيّين، وسعوا للانتقام. وبعد ذلك بكثير، لمّا وصل إلى الحكم الملك فرديناند

الثاني عمل على تأسيس نظام فرسان المسيح في سانتياغو. ثم استطاعوا استعادة تلك النواقيس بعد سقوط قرطبة، وطرد المسلمين، والثأر لما حلّ بالمسيحيّة من ذُلّ وصَغَار في تلك المعركة الكبيرة، حيث أرغموا الأسارى المسلمين على حمل تلك النواقيس إلى سانتياغو، نكاية بما فعله المنصور قبل ذلك بثلاثة قرون تقريبًا، لمّا أجبر النصارى على حمل النواقيس إلى قرطبة.

أصابتني حسرة ممّا كانت تسرُدُه ماريّة لكوني أعرفُ أنّنا فرَّطنا في الأندلس، بسبب الصراعات البئيسة بين حكّامها، ورغم أنّنا نحاول اليوم إدامةَ وجودنا على هذه الأرض إلّا أنّ الموجةَ المسيحيّة ستكتسحنا لا محالة. لقد استرحتُ لمّا أنجاني الله من فتنة السياسة في خلوتي السلاويّة، لكنّ ورقة القدر التي لمحتُ بعض أسطرها تأبى إلّا أن تَجُرَّني مرّة أخرى إلى هذه الأرض التي ستصنعُ تاريخَها. استفدتُ كثيرًا من كلام ماريّة للاطّلاع على مَكامِن ضعف قشتالة والممالك النصرانيّة الأخرى، وكان لزامًا أن نستفيدَ من تلك المكامن لنُبقِي على أمننا

كان أفضل شيء يتحتَّمُ القيام به هو دعم الملك بيدرو الأوّل ضدّ الآخرين.

ثم انغمستُ في الدنيا ونعيمِها، وأكثرتُ من الدُّور والقصور والضياع، فصرت موفورَ الحاشية، كثير الآلة والمَاعُون. وقد كان لي وِرْدٌ من الليل، ووظيفةٌ من الذِّكْر حين وصلتُ من سلا، فتركتُ الوِرْدَ وهجرتُ السبحة، ومَاطَلْتُ الفرض بوقته، وعَمَرْتُ الزمانَ بما لا يُغني عنّي من الله من شيء. وأنزلَ الله عليّ جبالَ العَجْز

والكَسَل، وسقوطَ الأمَل وتوقُّعَ الشَّرِّ.

* * *

احتفلنا بالمولد في غرناطة على عادة المغاربة كما أخذناه منهم لمّا كنّا هناك. ومن مُغَرَّبَاتِ مولد هذه السنة، ساعةُ المُنْجَانَة التي صُنِعَتْ للغني بالله، بعدما راقَتْهُ تلك التي رآها في فاس في مجلس سلطان بني مرين. وقد أدّى المادحون والمسمعون في هذا المولد أنغامًا من طبع الغريبة المحرّرة، وهي أصل بلا فرع، وتتحرّك لها الطبائع الأربع، السوداء والبلغم والدم والصفراء، فجمعت منها أفضلَها وأحسنَها وفي اختراعها قصّة طريفة، وهي أنّ «المحرّرة» لقب لجارية حصلت على عتقها باختراع هذا النغم، وهي أخت غريبة الحسين. ولمّا كانت في ملك الموسيقي الحسين بن الصائغ، فإنّه أنعم على أختها غريبة الحسين لمّا اكتشفت الطبع الذي يحمل اسمها، فأرادت المحرّرة أن ينالها ما نال أختها من النِّعم والخيرات، فاشترط عليها الحسين بن الصائغ أن يُحَرِّرَهَا إذا اخترعَتْ له نغَمًا مثل غريبة الحسين، فَعَمِلَتْ بجهد حتى استخرجَتْ هذا الطبع الجامعَ لكلّ الطبائع، فسمَّاها ابنُ الصائغ المحرَّرةَ أو الغريبة المحرّرة، وأعتقها.

وقد أنشدتُ في تلك الليلة قصيدة في المنجانة، قلت في بعض أبياتها:

ساعةٌ أُولَى منَ الليلِ انقَضَتْ شَرَعَتْ شَرْعَ الرَّضِيِّ وَافْتَرَضَتْ

وَمَضَتْ مِنْ بَعْدِ أُنْسٍ وَكَذَا سَاعَةُ الأُنْسِ إِذَا سَرَّتْ مَضَتْ

وتابعتُ بالوصف حركةَ المنجانة إلى الساعة الحادية عشرة، مضيفًا على كلّ ساعة معنى من المعاني الصوفيّة. «وعند هذه المقطوعة وَقَعَ الفَضْحُ، واهتزَّتِ النفوس، وقد ألطَفَهَا السَّهَرُ، وأَهَمَّهَا الفِرَاقُ، وتَمَثَّلَتْ لها بانقضاء النَّعيم، فَتُجُوذِبَ التَّأَوُّه، ثم وقع الإجهاش، ثم علا النحيب، ثم نودي للصلاة، فصلَّى السلطان، أعزَّه الله، بوضوء عِشائه، ثم أُفِيضَ الذكْر، ثم كان الأكل، ثم الطِّيب، ثم الإذن بالانصراف».

وفي خِضَمِّ الأحداثِ التي كانت تَزُجُّ بي يومًا بعد يوم في أَتّونِ السياسة التي كنت قد طلَّقتُها أثناء خلوتي السلاويّة، وصل غرناطة صاحبي الشيخُ العلّامة أبو العبّاس القبَّاب مُوَجَّهًا من قبل السلطان أبي سالم، فأصرَّ على النزول بداري ليَمْحُو زَلَّةً كانت صدرَتْ منه في سلا، بعد أن رفضَ دعوتي له لحضور وليمةٍ عقدتُها لأجله. استضفتُه كما يليقُ بشيخ جليل مثلِه، واعتذر مرّة أخرى، وتفكَّهنا بترديد الأبيات التي نظمتُها حول ذَمِّ المُوَثِّقين بعد أن نهضَ أحدُهم يُراجعني في شعري. وبعد أن أَنِسْنَا بعضنا لبعض، ومُحِيَ ما كان من جفاء، أخبرني بفحوى زيارته إلى غرناطة مُوفَدًا من السلطان أبي سالم، الذي أرسل صَدَقَةً عَهِدَ بها إلى أحد الربُط. ثم أخبرني أبو العبّاس القبّاب بوفاة وليّ الله الحاجّ سيدي أحمد بن عاشر، أوحدِ زمانه في باب الصلاح والورع والزهد، الذي حَظيتُ بالاجتماع معه. حزِنتُ كثيرًا لوفاة شيخي الذي أخرجني من سجن أنانيّتي، وزجَّ بي في طريق الإنِّيَّة الحَقَّة. عاودني الشعور بترك هذه الغيريّات التي كانت تَفْتِكُ بي، ويَزيدُها التركيب الذاتي الذي أُعاني منه، حِدَّة. لكنّ وفاةَ الشيخ زلزلَتْ كياني كُلَّه، وبقيتُ في حيرة من

أمري في كيفيّة التخلّص ممّا أنا فيه. ثم فاتحتُ السلطانَ في السماح لي بأداء الفريضة، وإنجاز وَعْدِهِ الذي قطعه لي، فلم يستجبْ لي، وسوَّفني، فأكثرتُ عليه من السؤال، وألححتُ عليه في الطلب حتى تغَيَّر عليّ خاطرُه، واستوجبَ الارتيابَ من نيّتي. وبينما أنا أُعاني أهوال هذه الأحوال، وأصارعُ نفسي الموزَّعة بين شؤون الدنيا وشؤون الآخرة، إذ برسالة وصلتني من الصديق الأَوَدّ العزيز، أبي زيد ابن خلدون، الذي خدمَنا في فاس مرّات متعدّدة، يُعْلِمُني فيها بقرب وصوله إلى حضرة الأندلس.

وفي ثامن ربيع الأوّل عام أربعة وستّين، وصل من كان في مَحَلِّ الولد، عبد الرحمن ابن خلدون إلى غرناطة، فكلّفني السلطان باستقباله، لما بيننا من المودّة والصداقة، رغم أنّه يصغرني بحوالى تسع عشرة سنة. وبعد أن استقبله السلطان وخلع عليه، شيَّعتُه إلى داره التي وضعها محمّد الخامس تحت تصرّفه. ولمّا استراح من سفره، كنتُ أدعوه إلى خلوتي في داري، ونجلس نتداول في أمور السياسة والتاريخ والعلم والأدب، وأُفَرِّج كربتي عن رحيل الشيخ ابن عاشر بمجالسة من كان بمثابة الولد الصَّفي.

وكان ممّا جرى بيننا من حديث لمّا جلسنا في داري أن سألته عن حال العلم في تونس لمّا تركها قبل سنوات.

فأجاب ابن خلدون: لقد كان لمجالس السلطان أبي الحسن المريني تأثير كبير في تكويني، إذ حظيت بالتلمذة على أئمّة العلماء الذين كانوا يرافقونه في رحلاته. ثم غادرتُ تونس في سنّ مبكرة إلى فاس. وهناك أكملتُ تعليمي وصقلتُه، لكنّي تعرَّضت للمضايقة

بسبب مداخلة بيني وبين الأمير محمّد صاحب بجاية، ودخلتُ السجنَ بسبب ذلك، ثم أُطْلِقَ سراحي وعُدْتُ إلى سابق عهدي.

فقلت: إنّي أعلم عن هذا ممّا أخبرني به صاحبنا الحاجب ابن مرزوق، وتلك ضريبة يؤدِّيها مثلنا لكن، دعنا من تلك الهموم التي لا تنتهي، وأخبرني، أما زلتَ مهتمًّا بعلم التاريخ كما أبلغتني من قبل، لمّا التقينا في فاس؟

فأجاب: نعم، لكنّي الآن في مرحلة الاستقراء.

ثم سألته: وهل سبب مجيئك إلينا علميٌّ أم سياسيّ؟

فأجاب: منذ مدّة وأنا أتمنَّى المجيء إلى غرناطة لمعاينة حال الدولة القائمة، فلم يَتَيَسَّرْ ذلك إلّا بعد أن قطع عليّ الوزير عمر بن عبد الله في فاس بالذهاب إلى حيث أُريد سوى إلى تلمسان، لأنّ بها أبناء عمومتهم من بني عبد الواد، المناوئين لهم كما تعلم.

فقلت: وهل خَطَرُ زوال دولة الأندلس قائم في نظرك؟

فقال: كلّ الدول تنتهي وتزول يا أبا عبد الله.

فقلت: لكن، ألا يَشْعُرُ المؤرّخ بالأسى والحزن من مثل هذه النهايات المؤلمة؟

فأجاب: لكي يَقومَ المؤرّخُ بعمله على أحسن وجه، عليه أن يتجرَّدَ عن مشاعره الذاتيّة، وينظرَ إلى حركة التاريخ.

فسألته: ومن الذي يُحَرِّكُ التاريخَ في نظرك؟

فأجاب: لقد استقرّ في ذهني، منذ فترة، أنّ ما يحرِّكُ التاريخَ هو العصبيّة، يا أبا عبد الله.

فسألته: وممّ تتكوَّنُ العصبيّة؟

فأجاب: إنّها تضامنُ الدم، وقوّة التحامِ الأنساب.

فقلت: وهل ترى أنّ في أهل الأندلس عصبيّة؟

فأجاب: لقد قامت عصبيّة الأندلس في البداية على العرب رغم أنّهم كانوا أقلّيّة، وكانت علامة نجاح الوافد أن يُلْحَقَ بتلك الأنساب العربيّة. ثم ظهرت عصبيّات أخرى، لكنّها لم تكن تحظى بالإجماع، ولا تتمتّع بجاذبيّة تجعلها تحلّ محلَّ العصبيّة العربيّة، واتَّسَعَ الخَرْقُ على الراتِق بين عدّة عناصر وأعراق، أنشأتْ مَزيجًا أندلسيًّا فيه من عناصرِ الضعْف أكثرَ ممّا فيه من عناصر الغلبَة والقوّة.

فسألته: وهل تَرَى من سبيل إلى الخلاص؟

فأجاب: لستُ كاهنًا يا أبا عبد الله، وإنّما أنا رجل أنظر إلى الأحداث والوقائع وأحاول تفسيرَها ويبدو لي من مُعاينة تاريخ الأندلس، من الفتح إلى اليوم، أنّ العصبيّة المحرّكة لهذا التاريخ في طريق الزوال، ممّا يعني أنّ هذه المملكة في خَطَرٍ داهم.

فقلت: ما أقساكَ يا أبا زيد في تقرير مثل هذه الأمور، لكن على الرّغم من صعوبة الإقرار بهذه الحقيقة إلّا أنّي أَتَّفِقُ معك في هذا الذي انتهى إليه نظرك.

فقال: كما قلت لك، لا مجال للمشاعر الشخصيّة فيما نحن بصدده. لكنّ مشاعري هي الأخرى تتلوَّن بحسب ملاحظاتي الموضوعيّة للأحداث.

فقلت: وأين هو الإنسان المؤمن فيك يا أبا زيد؟

فقال: لا دخل للإيمان في مثل هذه الأمور يا أبا عبد الله. فأنت رجل مشغول بالأحداث بحكم عملك في السياسة. أمّا أنا فأنظر إلى الأحداث في حركتها العامّة نفسها، ولا تهمّني قضيّة الخير أو الشرّ هنا، لأنّي لست طرفًا في تلك الأحداث، وإنّما أحاول أن أرصُدَهَا فقط.

فقلت: وأين الشهادة والمسؤوليّة يا ابن خلدون؟ فإنّ قولَك يَلْزَمُ منه أنّك لا تأبَهُ بما يحدث. ثم إنّي ألمسُ أنّ فترةَ سجنِكَ في فاس جعلتكَ مُستريبًا حذِرًا ودعكَ من هذا، ألا يَهُمُّكَ معرفة تاريخ أسرتك ومكانتها لمّا كانت بيد المسلمين في إشبيلية؟

فقال: بلى، لكنّ ذلك تاريخ انتهى.

فقلت: ألا ترغبُ في الوقوف على ما بقي من ذلك التاريخ، أو محاولة إذكاء جذوته؟

فقال: بلى، ولهذا جئتُ إلى الأندلس لأسأل بعض من يعرف عن تاريخ أسرتنا.

فقلت: ولماذا تهربُ من أن تكونَ شاهدَ عصرٍ على ما يقع، وتنخرطَ في الأحداث التي تقع؟ وما رأيكُ بسفارة تقوم بها إلى إشبيلية لدى الملك بيدرو الأوّل؟

تفاجأ ابن خلدون من هذا المقترح، لكنّ بريقَ فُضولِ طلبِ الحقيقة، والرغبةِ في معرفة الأرض التي عاش فيها أجدادُه، جعلته يطرَبُ للمقترح، لكنّه بقي على حَذَرِه، فقال: هذه مُهِمَّة جليلة يا

أبا عبد الله، ولعلّي لست أهلاً لها

فقلت: بل أنت لها أهلٌ يا ابن خلدون. وقد بدأ نجمُك يرتفع منذ مشاركتك المتميّزة في مجالس أبي الحسن المريني الذي كان يجمع فيه أئمّة العلماء. ولو عكفتَ على الكتابة لأخرجت لنا بعض الدرر.

فقال: لعلّ ما تقول صحيح، وإنّي أفكِّرُ في مثل الذي تقول.

فقلت: إذن أنت موافق؟

فأجاب: نعم، فقد كنت أحلمُ باليوم الذي أعودُ فيه إلى إشبيلية، حيث كان يسكنُ سلفُنا قبل ما يزيد عن قرن من الزمان، ثم هاجروا بعد ذلك إلى سبتة، واستوطنوها، ثم هاجر جدّي بعد ذلك إلى تونس.

فقلت: إنّ لنا مجلسًا خاصًّا في ليلة المولد في قصر السلطان الذي دَأَبَ على استدعاء أهل المديح والسماع لإحياء الليلة بالأذكار. وسأُكَلِّمُ السلطانَ في أمر السّفارة بعد أن تقضي بعض الأشهر معنا في غرناطة.

فقال أبو زيد: وهذه أيضًا من الطرائف التي أرغبُ في الوُقوف عليها.

* * *

وفي ليلة المولد، اصطحبتُ ابن خلدون إلى الحمراء وجلس كلّ واحد في مكانه المعَدّ له. وجلس السلطان في صدر المجلس. ابتدأ الحفل بقراءة القرآن. ثم جاء دور المادحين، وكان يرأسهم

شيخ الطائفة البونيّة، المعروفة في حيّ البيّازين من غرناطة، أبو أحمد جعفر بن أحمد بن جعفر العالم. ثم قام مُقدَّمُ المسمعين والمادحين، فأنشد أبيات ابن الصبّاغ الجذامي:

تَنَعَّمْ بذكر الهاشميّ محمّدٍ ... ففي ذكره العيشُ المهنَّأُ والأُنْسُ
أيا شاديًا يشدو بأمداحِ أحمدٍ ... سماعُكَ طِبٌّ ليس يَعْقُبُهُ نُكْسُ
فَكَرِّرْ رَعَاكَ اللهُ ذِكْر مُحَمَّدٍ ... فقد لَذَّتِ الأَفْرَاحُ وَارْتَاحَتِ النَّفْسُ
وطابَ نَعِيمُ العَيْشِ واتَّصَلَ المُنَى ... وَأَقْبَلَتِ الأَفْرَاحُ وَارْتَفَعَ اللَّبْسُ
فَكُلٌّ له عُرْسٌ بِذكرِ حَبِيبِه ... وَنحنُ بِذكر الهاشميّ لنا عُرْسُ

وبعد أن أفاض المادحون في ذكر الجناب المحمّدي بعاطر الصفات وزكيّ النعوت، قام الشعراء لإلقاء القصائد، وافتتحتُ الحلبة بقصيدة طويلة قلت في بعض أبياتها:

وأنت ملاذُ الخَلْقِ حَيًّا ومَيِّتًا ... وأكرمُهُم ذاتًا وأعظمهم مجدا
فلولاك ما بان الضلالُ من الهُدى ... ولا امْتَازَ في الأرض المكِبُّ مِنَ الأهْدَى

ثم أردفت بعد ذلك:

وفي ليلة الميلاد أكبرُ آية ... تخرُّ الجبالُ الراسياتُ له هَدّا
أشادَتْ بها الكُهَّانُ قبل طلوعِها ... ومن هولها إيوانُ كسرى قد انهَدَّا
فيا ليلةً قد عظَّم الله قدرَها ... وأنجزَ للنورِ المبين بها وَعْدَا
وصَيَّرَ أوثانَ الضلالة خُضَّعًا ... إليها فلم يَتْرُكْ سُوَاعًا ولا وُدّا
وعاجَلَ بالإخماد نيرانَ فارسٍ ... فلم يُرَ للنيران من بعدها وَقْدَا

أَعَـدَّكَ مـيـلادًا لـخـاتَـم رُسْـلِـهِ   وأطلَعَ في آفاقِكَ الشَّرَفَ السَّعْدا
فَصُولِي على مَرِّ الزمانِ وفاخري   بهذا النبي الحالَ والقَبْلَ والبَعْدَا
حقيقٌ علينا أن نَحُلَّ لك الحُبَى   ونُقْرِيكَ منّا البرَّ والشُّكرَ والحَمْدا
ونَـجـعـلَ فـيـهـا عـيـدًا ومَـشـهـدًا   نُشيعُ من الذكر الحكيم به شَهْدا
ونَـخـلَـعُ من أمـداح أحـمـدَ حُـلَّـةً   عـلـيـك مـن مـنـظـوم آيـاتـه عِـقْـدا

طرب الحاضرون لهذه القصيدة، ثم قام صاحبي ابن خلدون، فألقى بدوره قصيدة بالمناسبة، وتوالى الشعراء والأدباء والضيوف في إلقاء قصائدهم. وبعد ذلك تولّى الشيخ العارف بالله، أبو مهدي عيسى بن الزيّات، كبير الأولياء بالأندلس، سرد مولد العزفي في السيرة النبويّة العطرة «الدُّرُّ المنظّم في مولد النبي المعظّم»، الذي كان سُنَّة حميدة بدأها العزفيّون في سبتة، ثم جعلها المرينيّون عيدًا رسميًّا في كلّ بلاد المغرب، وتبعهم في ذلك غيرهم. وخلال سرد المولد ضَجَّ الحاضرون بالصلاة على النبي. ثم عقب ذلك، حضرت نوبة السماع التي تشرف عليها الطائفة البونيّة بأشعار القوم من أمثال إمام المسمعين أبي الحسن الششتري، والحلّاج وابن العربي وغيرهم. ولم أملك نفسي من التواجد إلى أن جاشت قريحتي، فقلت قصيدة أخرى في الحقيقة المحمديّة:

أَيَا مُصْطَفَى مِنْ قَبْلِ نَشْأَةِ آدَمٍ   وَالـكَـوْنُ لَـمْ تُـفْـتَـحْ لَـهُ أَغْـلاَقُ
أَيَـرُومُ مَـخْـلُـوقٌ ثَـنَـاءَكَ بَـعْـدَمَـا   أَثْـنَـى عَـلَـى أَخْـلاَقِـكَ الـخَـلَّاقُ

فرقَّتِ النفوس وذَبُلَتِ العيون، ثم قام أبو مهدي فأنشد:

مكتبة الرمحي أحمد

مـا وحَّـدَ الـواحـدَ مـن وَاحِـدٍ　　إذْ كُـلُّ مَـنْ وَحَّـدَهُ جَـاحِـدُ
تَـوْحِـيـدُ مَـنْ يَـنْـطِـقُ عَـنْ نَـعْـتِـهِ　　عَـارِيَـةٌ أَبْـطَـلَـهَـا الـوَاحِـدُ
تَـوْحِـيـدُهُ إِيَّـاهُ تَـوْحِـيـدُهُ　　وَنَـعْـتُ مَـنْ يَـنْـعَـتُـهُ لاَحِـدُ

سادَ وُجُومٌ على بعض الحاضرين من الفقهاء، والتَفَتَ إليَّ القاضي البُنَّاهي مستنكرًا وقال: ما هذا الكلام الغريب الذي نسمَع؟

فقلت له أمام الحاضرين: ما بالك يا أبا الحسن تنكر على القوم أذواقهم؟

شعرتُ بالحنَق على وجه القاضي، لكنّه تمالك أعصابَه، وقال: كيف نُجَوِّزُ القول بجحود كُلٍّ من وحَّد، وإلحادِ كلّ مَنْ نَعَت؟

ثم سمعتُ بعض الهمهمات الصادرة من الفقهاء المشايعين لموقف البنّاهي نفسه، فقلت: ما بالُكم تستشنِعون هذا القولَ، وتستقبحون هذه الأبيات، وأبو مهدي قام به الحال فعبّر بأبيات الهَرَوِي عن شيء لا يتحدَّث فيه إلّا أهلُه وأصحابُه، ممّن ذاقوا حقيقةَ مثل هذا الكلام. وزبدةُ القول في هذه المسألة أنّ التوحيد عند أهل هذه الطائفة التي تقول مثل هذا القول هو انتفاءُ عينِ الحُدوثِ بثبوتِ عينِ القِدَم، وأنّ الوجودَ كلَّه حقيقةٌ واحدة، وإِنِّيَّةٌ واحدة.

فقال أبو الحسن، وقد ثارت ثائرتُه وزادت حِدَّتُه وحَنَقُه: ما هذا الكلام يا أبا عبد الله؟ بل الحقُّ حَقٌّ، والعبدُ عبد.

فأجبته مُغْلِظًا له القولَ: مثلُ هذا المذهب لا يفهَمُهُ أمثالُكَ من

القضاة يا أبا الحسن. وغاية أمرِكَ أن تَحْكُمَ فيما تَفهَمُ من الأقضية الشرعيّة، ولْتَدَعْ مثل هذه الأذواق لأصحابها

صعِدَ الدم في رأس القاضي واحمَرَّتْ ديباجتاه، لكنّه التزمَ الصمت، فقال أبو مهدي الذي ظلَّ صامتًا طيلةَ النقاش الدائر: يا أبا الحسن، إنّ مَنْ وحَّد الله ونَعَت، فقد عيَّن ثلاثةَ أطراف، مُوحِّد محدَث هو نفسُه، ومُوحَّدٌ قديم هو معبودُه، وتَوحيدُ المُحْدَثِ، وهو فعلُ نفسِه وعقلِه. وإذا كان التوحيد هو انتفاء عينِ الحُدوث، كما نقل ذلك الوزير الرئيس أبو عبد الله ابن الخطيب عن أرباب هذا المذهب، فإنّ وجودَ التعدّد ثابت بوجود هذه الأطراف الثلاثة، وهو عينُ الحدوث المناقض للتوحيد. وبناء عليه، فهذا التوحيد مجحود ودعوى بدون بيّنة، ولهذا قال: «إذ كلّ من وحّده جاحد». ولباب القول أنّ الموحِّد هو الموحَّد، وهو الحقّ تعالى، وبذلك انتفى الحدوث وثبت التوحيد الذاتي.

فقلت: هذا البيان فيه شِفاء للناس. ثم توجَّهْتُ لأبي الحسن تطييبًا لخاطره: يا أبا الحسن، لقد عبَّر عن هذا المعنى الشاعر لبيد، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «أصدقُ ما قالت العرب: ألا كلُّ شيء ما خلا الله بَاطِلُ».

ثم أردفت مستلطفًا

فَسَامِحْ إذا مَا لم تُفِدْكَ عِبَارَةٌ   وإن أشكلَتْ يومًا فَخُذْهَا كما هِيَا

لوى القاضي رأسه في طيِّ جناحه، وصدرَتْ منه ضَرْطَةٌ مَلأَتِ المكان بتصويتها، فقلت له ممازحًا: لكأنّها لحن الغَريبة.

فقال: قد أَطْرَفْتُكُمْ أيّها السادة بِلَحْنٍ من طبع غَرِيبَةِ المَزْمُومِ، وعليَّ بتجديد الوضوء.

فأنشدت في الحين:

ضَرَطَ الفَقِيهُ فَقُلْتُ: ذَاكَ غَرِيبَةٌ مَا كَانَ ذَلِكَ، مِنْهُ، بِالمعْلُومِ
فَدَنَا إِلَيَّ وقَالَ: قَدْ أَطْرَفْتُكُمْ مِنْ ضَرْطَتِي بِغَرِيبَةِ المَزْمُومِ(١)

ضحك القوم من هذا الإحماض وطربوا لبراعة الاستحضار.

ثم قام القاضي، وعلى رأسه عِمَّةٌ سوداء، وقد انتفخ وجهُه واحمَرَّ من شدّة الخجَل، لتجديد الوضوء، وهو يتصنَّع الابتسامة، وهَمْهَمَ بِضْعَ كلمات لابن زمرك الجالس بقربه، لكنّ هذا الأخير نظر إليَّ مستريبًا حذِرًا، ثم تجاهل صاحبه مصانعة لي.

أمّا ابن خلدون، فهمس لي: لعلّك نَبَزْتَ أبا الحسن البنّاهي نَبْزًا قويًا.

فأجبته: هؤلاء القضاة يحشرون أنوفَهم فيما لا يعرفون ولا يُدركون، ويريدون تكميمَ أفواهِ الناس على قَدْرِ أفهامهم. ويعتقدون أنّهم أوصياء على الجميع، فكان لا بدّ أن أُوقِفَهُ عند حَدِّه حتى لا

---

(١) الغريبة والمزموم من طبوع (المقامات) الغناء الأندلسي المغربي. يقول محمّد بن الحسين الحايك التطواني الأندلسي صاحب **مجموع الموسيقى الأندلسيّة المغربيّة** الذي ألّف في نهاية القرن ١٨ «اعلم أنّ أصول الطبوع خمسة، وفروعها تسعة عشر، تفرّعت على أربعة أصول، وهي الذيل والزيدان والماية والمزموم. أمّا الأصل الخامس، الذي هو الغريبة المحرّرة، فلم يتفرّع عنه شيء». (نسخة مخطوطة شخصيّة).

يفسدَ علينا هذه الليلة المباركةَ المفعمةَ بهذه الأذكار العالية. وقد أذلَّه الله في هذا المجلس الحفيل، فَضرط أمام الحاضرين.

فقال ابن خلدون: لعلّك صائب فيما تقول، لكنّ السياسة والمداراة مع هؤلاء القضاة والفقهاء أنفع وأفضل.

فأجبته: يا أبا زيد، إنّ البنّاهي لم يكن شيئًا مذكورًا حتى تنبَّهت إليه، وسعيت في تنصيبه قاضيًا للحضرة، فهو صنيعتي، ومَدين لي. وإن كنتُ أغلظتُ له القولَ، فعليه أن يصبر لسابق إحساني إليه. وأنت قد رأيتَ استنكارَه وجهلَه بهذه الأمور التي سمعنا هذه الليلة، ثم همستُ له في أذنه مُتَنَدِّرًا:

جُعْسُوسُكُمْ مُوحِشُ المَرْأَى وَرُبَّتَمَا يُخَفِّفُ اللَّهْوُ وَالتَّنْدِيرُ إِيحَاشَهْ

لَمَّا أَتَى نَحْوَنَا شَبَّهْتُ عِمَّتَهُ بِعَنْكَبُوتٍ عَلَى يَافُوخِ خَشْخَاشَهْ

فضحك ابن خلدون، وحاول كتم ضحكه، لكنّ القاضي أدرك أنّنا كنّا نتندَّرُ عليه، فزاد حنَقًا، ثم خرج.

استمرَّ إحياء الليلة إلى الصباح، فأذَّن المؤذِّن لصلاة الصبح، فصلَّينا، ثم صُفَّتِ الموائد وقُدِّمَت أصنافٌ من المآكل والحلوى والمشروبات. ومن أعاجيب مجلس هذه الليلة، ساعةُ المنجانة وهي جهاز لمعرفة الوقت يحيط به اثنا عشر طاقًا يعلوها شكلُ هِلال يَدورُ عليها وفي داخل كلّ طَاقٍ صورةُ جَارِية. فإذا حلَّتْ الساعةُ أعلنَ عنها الطائر الجاثم أعلى الساعة، بواسطة صَنْجَةٍ يُلقيها إلى طَسْتٍ، فَتَبْرُزُ جاريةٌ في يمينها رقعةٌ بالساعة المعيَّنة لتَضَعَها بين يَدَيْ محمّد الخامس، بينما تَجعلُ يُسراها على فِيهَا

كالمُبايِعة. وكان أولُّ مَنْ صَنَعَ هذه المنجانة السلطان أبو عِنَان المريني الذي يَعرضها خلال ليالي المولد. واستمرَّ القومُ في أذكارهم حتى عمَّنا تلك الليلة نُورُ القُرْب، وحالُ الوَجْد. ولم يُصبحِ الصباحُ إلّا وقد عمَّ خيرُ تلك الليلة جميعَ أهل الحضرة، ووُزِّعَت العطايا والخِلَع، وانصرفَ المادحونَ والمسمِّعون بخير السلطان. مَرَّ ذلك الشهر والذي بعدَه في احتفالات المولد، وفي إرسال التهاني والتبريكات إلى مُخْتَلَفِ مُدنِ الحَواضر الصدِيقَة.

* * *

طيلةَ مدّة إقامة ابن خلدون، كان ابن زمرك حريصًا على أن يُغادر هذا الرجلُ حضرةَ غرناطة، إذ كان يرى فيه منافسًا قويًا يمكن أن يُنافِسه على مَنصِبِ الوزارة التي كان يَطمحُ إليها، وقد كان دائمًا يُذَكِّرُني بالحديث مع السلطان في شأن بَعْثِ ابن خلدون في سفارة إلى قشتالة.

ولمّا حلَّت سنة خمس وستّين وسبعمائة، سَفَرَ ابن خلدون عن محمّد الخامس إلى بيدرو الأوّل، ملك قشتالة لإتمام عَقْدِ الصلْح بينه وبين ملوك العُدْوَة، وحمَّلناه هديّة فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقرَّبات(١) بمراكب الذهب الثقيلة.

ولمّا عاد من سفارته، قصدني فلقيتُه في قصري قبل أن نقوم إلى السلطان، فسألتُه عن سفارته.

---

(١) المقربات: التي تقرّب، ولا تترك بعيدة حتى لا يطرقها فحل هجين، حفاظًا على نسلها ونسبها الحرّ.

فأجاب: ناجحة، يا أبا عبد الله، وقد لقيتُ الملك بيدرو في قشتالة واستقبلني. ثم لقيتُ عنده الطبيب إبراهيم ابن زرزر اليهودي، فأثنى عليّ عنده. وكنت التقيتُ سابقًا بهذا الطبيب في فاس لمّا جاء محمَّلاً برسالة من بيدرو الأوّل إلى السلطان أبي زيّان محمّد بن أبي عبد الرحمن.

فقلت له: أعلمُ ذلك لأنّه جاءنا بعد ذلك إلى غرناطة محمَّلاً بكتاب أبي زيّان الجوابي عن رسالته. وساءني منه قولُه «انظرْ إلى مُخاطبةِ هذا الشخص، ويعني السلطانَ أبا زيّان، وكان بالأمسِ كلبًا من كلاب بابنا، واليومَ حالُه معنا مختلف..». وأوضح ابن زرزر كلام مليكه بقوله: لقد أجارَه بيدرو حتى أصبح اليومَ سلطانًا، ثم تنكَّرَ له. فقلت لابن زرزر أن يُبْلِغَ مَلِيكَهُ أنّ جَدَّ السلطان أبي زيّان كان يحتفظ بتاج جدّ بيدرو الأوّل، ولمّا حضر لاستلامه قبَّل يد سلطان المسلمين، ثم غسل السلطان أبو يوسف يعقوب يده من أثر قبلة ملك قشتالة. وأضفت لناحية الملك: «وكونُهُ لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه، وأنت مُعَرَّضٌ لِلجُوء إلى بلاده، فيكافِئُكَ بأضعاف ما عامَلْتَهُ به». وكان حاضرًا في دار سكناي المجاورة لقصر السلطان حمراء غرناطة، جماعةٌ منهم قاضي الحضرة أبو الحسن البنّاهي، فقام يبكي، وقبَّل يدي ووصفني بوليّ الله.

فأكملَ ابن خلدون كلامَه: على كلِّ حال، فقد طلب منّي بيدرو هذا، المُقام عنده، وسمحَ لي بزيارة ممتلكات أسرَتِنا في إشبيلية، ووعدني بِرَدِّ تُراث سَلَفِي بها، الذي كان بحوزة كبار دولته. ثم طلب منّي العمل لديه، فأَبَيْتُ وقَبِل اعتذاري، ثم أكرمني

وبالَغ في تأنيسي إلى أن غادرتُ إشبيلية مُزوَّدًا بالعطايا والهدايا وقد أرسلتُها رأسًا إلى قصر السلطان.

فقلت له: هنيئًا لك بهذا النجاح الباهر في تدعيم الصلْحِ بيننا وبين قشتالة.

وبعد أن استراح، ذهبنا إلى الحمراء، فدخلنا على السلطان، وأخبرَه ابن خلدون بنجاح سِفارته.

ثم قال: لقد أركبني طاغيةُ قشتالة بغلةً فارهةً ليس لها نَظير، بمركبٍ ثقيل ولجامين ذهبيّين، وإنّي يا مولاي أُقَدِّمُهَا لك هديّة.

تَعَجَّبْتُ من ابن خلدون كيف أخفى عنّي أمر البغلة حتى فاجأني به أمام السلطان، الذي هَفَّ من حينه لمعاينة البغلة المذكورة، فاستحسنَها غايةَ الاستحسان حتى طلبَ منّي كتابةَ مَنشور بإقطاع ابن خلدون قريةَ إلبيرة من أراضي السقْي بِمَرْجِ غرناطة، مكافأةً له على هذه السفارة الناجحة.

وبعد مولدِ هذه السنة، أمر السلطانُ باستقدام أهلِ ابن خلدون من قسنطينة، وبَعَثَ مَنْ جَازَ بهم في أُسطوله إلى ألمريّة، ومنها ذهب أبو زيد لاستقبالهم حتى جاءَ بهم إلى غرناطة، وأسكنهم في الدار التي أعطاه إيّاها السلطان. كَثُرَتْ مُداخلات ابن خلدون مع السلطان، كما كَثُرَ كِتْمَانُهُ عنّي وتَصَرُّفُهُ بدون وِساطتي رغم أنّي كنتُ الآمر الناهي في المملكة، وجاءني ابنُ زمرك بأخبارٍ وَقَعَ عليها حول عزمِ السلطان تنصيبَ ابن خلدون في منصب هَامٍّ، فركبني التركيبُ الذي كنتُ قد عَمِلْتُ على علاجه بالذِّكر. وكَثُرَتْ وساوسي من كثرة مُلابسة ابن خلدون لسلطاني، فانقَبَضْتُ منه

انقِباضًا، وأحسَّ ذلك منّي. ثم تَرصَّد رجالي البريدَ فأخبروني بوُصولِ رِسالةٍ مِنْ صَاحِب بجّاية إلى ابن خلدون. وما هي إلّا أَيَّامٌ حتى استأذنَ في الارتحال، وتعلَّل بالحنين إلى الأوطان، ثم أَقَرَّ أخيرًا أنّ صاحبَ بجّاية قد استدعاه لأمر خاصٍّ. فلمّا رأى السلطانُ حرصَه على مُغادرة غرناطةَ، طلبَ منّي أن أَكتبَ له مَرسُومًا بالتشْيِيعِ في جمادى الأولى من سنة سِتٍّ وستِّينَ وسَبْعِ مائة.

فلمّا غادر، أَعلَمْتُ السلطانَ بهوى ابن خلدون الذي كان سببَ إدخاله السجنَ من قبلُ، وها قد تجدَّدَ هواهُ بعد أن طلبَ منه صاحبُ بجّايةَ الالتحاقَ به لِيُشْرِفَ على خُطَّةِ الحِجَابَةِ عنده.

* * *

ازدهرَتْ مملكةُ غرناطةَ وعمَّها الأمن والرخاء، وتوسَّعتْ حدودُنا، وفتحنا مجموعةً من الحُصون والمدن، بعدما انشغلَ بيدرو الأوّل في حروب مع أخيه الكونت هنري، المنافسِ له على المُلْك. وعلى إثر هذه الفُتوح المظفَّرة، تلقَّبَ السلطانُ محمّد الخامس بلقب «الغني بالله»، ولقَّبني بذي الوزارتين.

نَدِمْتُ على ما كان منّي في حَقِّ ابن خلدون إذ رعى ذِمَّتِي وبقي على صداقتي، رغم علمه بسعيي في إبعاده عن غرناطة وتغيير قلب السلطان عليه. وقد كتبت له رسالة ضَمَّنْتُها شعرًا أتشوّق فيه إليه ومباحثته ومجالسته، وأعتذر له عمّا فرط منّي من الانقباض. فأجابني جواب أخ مسامح حبيب، وعاد الودّ بيننا لأوّل عهده.

أمّا القاضي البنّاهي، فقد تعكّر الجوّ بيني وبينه، لمّا قبلت

شفاعة بعض من كان قد حكم عليهم، فأطلقت سراحهم من الحبس، فزاد حنقه عليّ، ممّا كان يخبرني به عيوني عنه، إذ كان يعتبر ذلك تدخّلاً في شؤونه، وتسفيهًا لأحكامه. والحقّ أنّه كان قاسيًا في تلك الأحكام التي لا تستحقّ كلّ تلك القسوة. لكنّه لم يكن يستطيع أن يواجهني لجبنه.

وأمّا ابن زمرك فقد سألني أن أسقط عن إقطاعاته ما يترتّب عليها من جبايات، فرفضت طلبه بعدما بلغني أنّه كلِف بصبيّ اسمه مصباح، وتردّد ذلك في شعره، فنهيته عن هذه السفاهة، وساءه ذلك الفعل منّي. والحقّ أنّ تلك الأموال حقّ لبيت مال المسلمين لا أملك أن أسقطها عن أيّ كان، ولم أكن أتسامح في مثل هذه القضايا التي تدخل الفساد على البلاد والعباد.

وقد أبلغني رجالي أنّ مداخلات البنّاهي مع ابن زمرك كثرت في الآونة الأخيرة، وأنّهما بصدد تكوين حلف من كلّ المتضرّرين من سياساتي، لكنّي غضضتُ الطّرف عنهما كما يغضّ الطرف الأخ عن أخيه، والأب عن ولده. ومتى كان ابن زمرك شيئًا قبل أن أرفق به وأقرّبه، فقد كان يتيمًا مثل حشرة في قلوب اللوز، وبرغوثًا في تراب الخمول، لا يُؤبه به ولا يُلتفت إليه، تنهشه المدقعة نهشًا، فرقّ حالي له، وعيّنته في سلك الكتّاب. أمّا البنّاهي، فقبل أن أعيّنه قاضيًا لم يكن شيئًا مذكورًا. وحتى بعد توليته، فقد كان يقبّل يدي، ويرعى ذمامي وسابق فضلي عليه. ثم إنّي لم أكن أكترث في البداية لعلمي بمنزلتي عند السلطان وتصرّفي في المملكة أمرًا ونهيًا، ولعزوفي عن السياسة وأحابيلها، حيث اشتقت إلى حياة

الصفاء الروحيّة في الخلوة السلاويّة، وأداء فريضة الحجّ. وتمنّيت لو طلّقت كلّ ما يربطني اليوم بهذه الحياة، لولا أنّ أمر الجهاد وصدَّ أطماع القشتاليّين وأنصارهم هو ما كان يبقيني صابرًا على هذه الوضعيّة. كنت أعلّل النفس بمثل هذه الظنون، اعتقادًا منّي أنّ هذه الانقلابات الخسيسة مثل الملح للطعام، لكنّ الأمر زاد سوءًا، فأعرضت بالكلّيّة عن خصومي، وأصبحت أخالط كثيرًا الصالحين والزهّاد، ومن هؤلاء الشيخ أبو مهدي عيسى بن الزيّات، الذي كان يذكّرني بما كان يقوله لي الشيخ سيّدي أحمد بن عاشر في سلا ثم تلقّيت عن أبي مهدي مذهب أصحاب الوحدة المطلقة، الذين لا يرون فاعلاً في الوجود سوى الله.

لقد تفاجأت حاشية السلطان من حال الخمول الذي صرت إليه، حيث لم أعد أتَلبَّسُ بجراية، ولا أتشبَّث بولاية، كما كنت أفعل سابقًا، خاملَ المركب، أمشي معتمدًا على عصًا كشأن الصالحين، مقتصرًا على الخَلِقِ من النِّعَال، راضيًا بغير النبِيهِ من الثوب. وتصفَّتْ روحي من كُدوراتها، وعزَفْتُ عن التلبُّس بالفانية، واشرأبَّتْ نفسي للباقية، وصرت حازمًا في تدبير أموال المسلمين، فتأذّى من ذلك كثير من المنتفعين النهَّاشين، وكَثُرَ أعدائي بسبب ذلك. ولم يكن يَشُدُّني إلى السياسة إلّا صلاحُ المملكة، ونَشْرُ الأمن وحمايةُ الثغور، وتَثْمِيرُ الجِبايات، وإنصافُ المظلومين، ومُقَارعةُ ملوك النصرانيّة بالجهاد. وانصلَحَتْ أحوالُ البلاد والعباد بفضل هذه السياسة الرشيدة. وأَكْثَرْتُ من النصح للسلطان بالتقلُّل من المباهج الفَانِية والإقبال على طريق الآخرة، وتمتين العلاقات مع المرينيّين لتأمين دفاعاتنا في وجه القشتاليّين. لكنّه كان يُداريني،

وخرج عن الطوْقِ الذي كنتُ أَتعاهَدُهُ به من قبل لمّا شَبَّ في كَنَفِي وتحت ظِلِّ مَشُورَتِي. وكان يعتقد أنّه يُماشيني في زَهادَتي أحيانًا بدعوته للطائفة البُونِيَّة للإحماض في لَطَائِفِ نَعِيمِهِ باخْشِيشَانِهِم، مُبدِيًا التبرُّك بأَلْوِيَتِهِم. فَيُحْيُونَ في الحمراء ليلةَ سَمَاع، ويَتَغَنَّوْنَ بأبيات الحَلّاج وأمثاله، ثم يَرقُصون حتى يَتَصَبَّبوا عَرَقًا، وقَوَّالُهم يُحَرِّكُونَ فُتورَهم، ويَزْمِرُونَ بأَرواحِهم. ويَدومُ رَقصُهُم إلى ساعةٍ متأَخِّرَةٍ من الليل. وهُمْ أَهْلُ سذاجَة وسلامة، وأُولُو اقتصادٍ في الملبس والمطعم، ومُعظَمُهُم أَهْلُ حِرَف. وبين أَظهُرِهِم بعضُ الصعاليك وأَهل الذعَارَة المُنْدَسِّينَ في صُفُوفِهِم. وكان شيخَهم لهذا الحِينِ أبو زكريّا يحيى بن أبي أحمد جعفر، الذي تُوُفِّيَ قبل سنوات قليلة. وكان يَصحبُ أبا زكريّا، ابنُه أبو تمّام غالب.

ثم عاوَدتُ مَطالبي للسلطان بالسماح لي بأداء الفريضة، وإنجازِ وَعْدِهِ والوَفاء بعَهدِه الذي كتبه لي بخَطِّ يَدِه، لكنّه كان يَصُدُّنِي ويُسَوِّفُنِي ويَسْتَرِيبُ مِنْ طلبي. ثم عَمِلْتُ على جَلْبِ بَغْضَائِهِ والتَّصَرُّفِ بما يُحْنِقُهُ عليّ، ويُكْسِبُ جَفاءَهُ، تَصَرُّفًا بالقول والفعل، وهو صابر عليّ، ودَاخَلَهُ حُسَّادي في أمري، وبيَّنوا له أنّ حنيني إلى سلا دليلٌ على نزعتي المرينيّة. ثم بدأتُ أُحِسُّ أنّ تَضافُرَ هذه الجهود من قِبَلِي أو مِنْ قِبَلِ أعدائي قد آتَتْ أُكُلَهَا، وأنّ السلطانَ قد تَغَيَّرَ عليّ، خصوصًا وأنّي كَفَفْتُ عن نَظْمِ القَصائد في مديحه. ثم أصبحَ يُؤْثِرُ رُفْقَةَ مَنْ يُوافِقُهُ في مِزاجِه المُتَطَلِّعِ إلى الدنيا. وقد اتَّخذَ من ابن زمرك الذي يَقْرُبُهُ في السِّنِّ خِدْنًا وصَاحِبًا، وتَلبَّس به ظاهرًا وباطنًا، ووافقَ هَواه بكثرة المدائح الطنَّانَة، واعتمد على أبي الحسن البُنّاهي قاضيًا ومُشيرًا. وما زال مثلُ هؤلاء يحذِّرونه من

الركون إلى الخُمول، ويُعظِّمون له شأنَ الظهور، ويَنصحونَه بأنّ المُلْكَ غَلَبَةٌ وآلَة، ولا بدّ لصاحب الرعِيَّة أن يَسوس بالقُوَّة، ويَظْهَرَ بمظاهر الغَلَبة حتى يُطاع، وحسَّنوا له الإكثارَ من نَعيم الدنْيَا، والابتعادَ عن الزهد وأصحابِه، فرضي ذلك منهم. ثم قدَّموا له بعض كتبِ الأَدَبِ التي تَفتحُ شَهِيَّةَ الحَيَاةِ الفَانية. ومن ذلك **دِيوانُ الصبابة** لابن أبي حجلة التلمسَاني المقيم في مصر، فأشارَ عَليّ بمُعارَضَتِه. وقد كنتُ خاملاً خلال هذه الفُتوح عن الكتابة والتَّقييد، وهاجني الشَّوْقُ إلى ذلك، فقرَّرتُ أن أَغتنمَ هذه الفُرصة لكي أنصحَ السلطانَ إلى سُلوك محَجَّةِ طريق الآخرة، وأُخَصِّصَ الكتابَ لموضوع الحُبِّ الإلٰهي الشريف، بدل أن أَقتفي طريقَ ابن حَجَلَة في الحديث عن أخبار العِشق والمحبّين ومَصارِعهم. شرعتُ في كتابته في قُبَّةٍ قربَ الشجرة التي غَرَسْتُ في جَنَّةِ العَريف. وقَسَّمْتُهُ تقسيمًا لم أُسْبَقْ إليه، مُستوحِيًا هذه القِسمةَ من شجرتي التي غَرَسْتُ في رَوضة العَريف، وسمَّيتُه **روضة التعريف بالحُبّ الشريف**، وجعلت موضوعَه أسمى من موضوع ديوان الصبابة الذي كان مخصَّصًا للحُبِّ البشري، بينما كتابي كان مخصَّصًا للحُبِّ الإلٰهي، الذي هو أَصلُ كُلِّ محبَّة في الوجود. «وجعلتُه شجرةً وأرضًا، فالشجرةُ المحبَّةُ. والأرضُ النفوس التي تُغْرَسُ فيها، والأغصانُ أقسامُها التي نَستوفِيهَا، والأَوراقُ حكاياتُها التي نَحْكيها، وأزهارُها ثمارُها التي نَجنِيها، والوُصولُ إلى الله ثمرتُها التي نَدَّخِرُهُا بفضل الله ونَقتَنِيها». وخلال كتابتي لهذا الكتاب كنتُ بين الحين والآخر أَفِرُّ إلى شجرتي في جنّة العريف، أُمْسِكُ بأوراقها وأَجلسُ إلى ظِلِّها، ويَأخذُني الحالُ ثم أَغيبُ. ومن أَشَدِّ ما حيَّرني جَهلي بهُويّة تلك

الشجرة على شِدَّةِ حِرْصِي في معرفة أنواع الشجر، فَمَرَّةً أَظنُّها سِدرَة إليها ينتهي المعنى، ومَرَّة أخرى إخَالُهَا نخلةً تُهْتَزُّ وتُجْتَنَى، ومرّة ثالثة أَحْسَبُهَا زيتونةً مباركة يُسْتَصْبَحُ بزيتِها الأَسْنَى، ومرّة رابعة أتوهَّمُهَا رُمَّانةً في الطعم والجَنَى، ومرّة خامسة أَتبيَّنُها سَرْوَةً كأنّها قَدُّ الغِيدِ في النَّقَا والمُنْثَنَى، ومرّة سادسة أَعقِلُها تِينَةً من أرض المَسْرَى والحُسْنَى، ومرّة سابعة أَجهل نَوْعَها وجنسها وحدَّها ورسمها واللَّوْنَ، وأراها قد أَخَذَتْ من كُلِّ نَوْعٍ لُبَابَه، فتبدأ في مُناوَشَتي ومُحاوَرتي، وتقول لي: إذا أردتَ مَعرفة النوع، فاعْرِفْ نفسَك أوّلاً، تَعْرِفْنِي ثانيًا، إنّما سُمِّيتُ شجرةً من التشاجر، فكيف تريد أن أُسْلِمَ لك نوعي وهُويّتي؟

فأَتَعَجَّبُ من نُطقِها رغم خَرَسِها. ثم تقول لي: كنْ كشجرة الصندَل، تُعَطِّرُ الفَأْس التي تَقْطَعُهَا، بل كُنْ كشجرة الزيتون تَمْنَحُ الغِذَاءَ والدهنَ والنور لمن هَزَّها، أو فَلتكُنْ كالنخلَة مُرتفعًا عن الأحْقاد، تُرْمَى بالحَجَر لكنَّها تُعطِي أَطْيَبَ الثمر عَذْبَ اللُّهَا.

فتزيد من حَيْرَتي في معرفة هُوِيَّتِها.

ثم تقولُ لي: يا ابنَ الخطيب، انظرْ في ذاتِك تَعرفْ شجرَتك. أَيّ أَرضٍ تَستَطيعُ أن تطأَها إذا لم تَغرسْ فيها شَجرَتك؟

فأَحَارُ في الجواب، لكنّي أُصَدِّقُ شجرةَ الخُلد، وشجرة التعريف في جنَّة العَريف. ثم تُنَبِّهُنِي قائلةً: جُزْ من التعريف لتصبحَ عينَه. ثم أَقِفُ كالأَبْلَهِ لا أفهمُ كلامَها، فتقول لي مرَّة أخرى: جُزْ من التعريف إلى العارف. وإيّاك أن تقنعَ بالتعريف، بل كُنِ العارف الذي يَدُلُّ الشجرةَ على منبِتِهَا وأرضِها، وبَايعْ تحت ظِلِّهَا فأسأَلُها

مرَّة أخرى: كيف أكونُ العارفَ في جنّة التعريف؟

فتُجيبني: كنْ كالطائر يقفُ على الشجرة، ويمسِكُ بأغصانها، فينال بذلك الجَسِّ خاصِّيَّةَ الإدراك، ويَشْعُرُ كما يشعُرُ القَلْبُ. ثم أتساءلُ مرّة أخرى: كيفَ يشعُرُ الحيوانُ بما يَشعُرُ به النبات؟

فتقولُ لي: بِسِرِّ الحياة الساري فيهما مَعًا، على الرّغم من اختلاف الصورة. فَكَمْ مِنْ شَجَرٍ يَفْتَرِسُ كالحيوان؟ وكَمْ من حيوان يَدِبُّ كالنباتِ والشجر، فأين الحُدود؟

ثم أُعاينُ تربتَها وعُروقَها وأَغصانَها وأَوراقَها والماءَ الذي به تَحْيا والنورَ الذي به تَصْلُبُ، والريحَ التي تَنْقُلُ لقَاحَهَا، فَأبقى مُتَعَجِّبًا منها، وتَزيدني عِلمًا وذَوقًا. ثم أَتذَكَّرُ الشجرةَ التي رأيتُ في مِعراجِ الذرّ، وأسألُها عنها، فَتُجيبني: تلك شجرةٌ لا أرض لها، مُعَلَّقَةٌ في بلاد القُرْب، فكيف لمن أَرْخَى عُرُوقَهُ في عُفُونَةِ الأَرضِ أن يَسْمُقَ إلى مَعرفة تلك الشجرة العَرِيَّةِ عن الجِهات والصفات؟

فأقول لها: كلّ أَشجارِ العالم تَعْرِفُ تلك الشجرةَ الأُمّ. ولولا النسيان لما كان جَهْلٌ وجُحُود. فعليكِ بالذكر والحضور.

فتسألُنِي: وكيفَ أَذْكُر؟

فأجيبُها: بالحال، لا بالمَقَال، يكونُ تَسبيحُ الشجر.

كانت الشجرةُ شَيْخَتِي في المحبَّة، وكنتُ شيخَها في المعرِفة، وخلال شهرين من الزمان أَكْمَلْتُ الكِتابَ، بفضل مجالستي للشجرة ومُذاكرتي معها، فَتُخْبِرُنِي عن أُمَّةِ الشجَر، وأُخبِرُهَا عن أُمَّةِ البَشَر، واكتمَلَتِ المعرفة، ونَضِجَتِ المحبّة، واستوى الكتاب قائِمًا،

فأهديتُه للسلطان فأُعْجِبَ به وَأَثْنَى.

ثم بعَد أيّام، بدأ مَوقِفُهُ يَتغَيَّر، وأَحْسَبُ أنَّ رِيحَ الحَسَدِ وَصَلَتْ إلى أُذُنَيْهِ وخَيَاشِيمِهِ مِنْ تَأْثِيرِ جُلَسَائِهِ، ولا سيَّمَا ابنُ زَمْرَك والبُنّاهي، كما أَخبرني بذلك بعضُ مَنْ أَثِقُ فِيهِمْ، حيث انتقدوا الكتاب، وبيَّنُوا أنّه مُخَالِفٌ لموضوع الأَمْرِ السلطاني بتأليف كتاب في موضوع العشق، بدل الموضوع الغَريبِ المَنْزَعِ الذي كَتبتُ فيه حَسَبَ قولهم، سِيَّمَا وأنّ الكِتابَ خُلِطَ بأقوال الحُكماء والفَلاسفة وغيرِهم من أهل البِدَعِ، كما قالوا.

عَجِبْتُ مِنْ هؤلاء المُدَاهِنِينَ الذين نَسُوا ما سَلَفَ مِنْ إِحْسَانِي إليهم، ثم تَذَكَّرْتُ ما كُنْتُ أَنْشَدْتُهُ لمّا كنتُ في مدينة سَلا:

تَلَوَّنَ إخواني عَلَيَّ وَقَدْ جَنَتْ عَلَيَّ خُطُوبٌ جَمَّةٌ ذَاتُ أَلوانِ

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّرُوا بِأَنَّ خِوَانِي كَانَ مَجْمَعَ خُوَّانِي

وَكَانَتْ وَقَدْ حُمَّ القَضاءُ صَنائِعِي عليَّ بما لا أرتضي شَرَّ أَعْوَانِ

وبعدما عَمِلْتُ على تَحْصِينِ البلاد، وعَقَدْتُ الصلْحَ مع الأَعْدَاء، واسْتَتْبَبْتُ السِّلْمَ والأَمْنَ، بَدَأْتُ أُفَكِّرُ جِدِّيًا في مُغادرة الأندلس، وأداء الفَرِيضة، ثم طَمِعْتُ في أَنْ تَنْسانِي غرناطَةُ التي سَهِرْتُ لَيْلَهَا، وعِشْتُ نَهارَهَا كَمَا لم يَفْعَلْ أَحَدٌ قَبْلي. زَادَ جَفَاءُ السلطانِ لي، وَوَصَلَتْنِي أَخْبَارٌ عن تَقَوُّلاتِ حُسَّادِي الذينَ أَبْلَغُوهُ انتِقَادَاتِي في بعض الأُمورِ المتَعلِّقَةِ بسياسة البلاد، ممّا هو مُعْتاد، فَغَضِبَ مِنْ تَجَرُّئي عليه، وفَاهَ بِكَلِمَاتٍ لم يَسْبِقْ أَنْ فَاهَ بِهَا في حَقِّي، ونَعَتَنِي بِنَعْتٍ قَبيح، فعَلِمْتُ أنّ الجَوَّ قد تلبَّد ضِدِّي، وقَرَّرْتُ

الرحِيلَ إلى المغرب، فَراسَلْتُ سِرًّا السلطانَ أبا فارس عبد العزيز في أَمر وُصولي إليه وطَلَبِ حِمايَتِه، فأجابني برسالة يُرَحِّبُ فيها بِمَقْدَمِي ويَحُثُّنِي على المَجِيءِ إليه، كما طلبَ منّي أن أُشِيرَ على الغني بالله بِحَبْسِ بَعْضِ الأُمَراء المُناوِئِينَ في غرناطة، سيّما الأمير عبد الرحمٰن، والوزير مَسعود بن رحُّو، فكلّمتُ السلطانَ في الأَمْرِ على مَضَضٍ، فَهَفَّ لذلك مُراعاةً للعَهْدِ الذي بين العُدوتين.

ذاعَ أَمْرُ كتابي **روضة التعريف**، وأرسلتُه مع كتاب **الإحاطة في أخبار غرناطة** إلى خانقاه سَعيد السعداء في القَاهرة. ثم حدث أنّ احتَدَمَ النقَاشُ في غرناطة بين الفُقهاء والفُقراء في مسألة اتِّخَاذِ الشيخ أو الاكتفاء بمطالعة الكُتب حتى تَراشَقَ الفريقان بالنعَالِ انتصارًا لمذاهبهم في هذه القَضِيَّة. وانبرى أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي في تحرير رسالةٍ بعثَ بها إلى فاس يَطلُبُ الفَتوى عنها. أرسلْتُ كتابي **روضة التعريف** لصديقي ابن خلدون، وأعلمتُه ببعض المستَجَدَّات في بلادنا، كما أخبرتُه عن النقاش المحتدِم بين الفقهاء والفقراء.

ثم عَزمتُ على مُغادرة الأندلس رغم أنّ بعض أصدقائي حاولوا ثَنْيِي عن هذا القرار، لكنّي قرّرتُ السفَر سرًّا بعد تَيَقُّنِي من عدم إمكانيّة استجابة الغني بالله لطلبي، بعد أن «صِرْتُ أَنظُرُ إلى الوُجوه فَألمحُ الشرَّ في نظراتها، وأَعتبرُ الكلمات فأتبيَّن الحَسَائِفَ في لُغاتها، والضغينةُ في كلّ يوم تَسْتَحْكِمُ، والشرُّ يتضاعَفُ، ونِعْمَةُ الوَلَدِ تُطْلِقُ لِسَانَ الحَسود، وشَبَحُ الكِلاب المُطِيفَةِ تُهَيِّجُ حَسائِفَ النمُور الجائعة والأُسود، والأَصحابُ الذين تجمَعُهُم المائدةُ كلَّ يوم وليلة يَفْتَنُّونَ في الإطراء والمديح، وتَحسينِ القَبيح،

والمحاولات في الغَيّ والتَّقَرُّب بالسَّعي، أَنظرُ إليهم يتناقَلون الإشاراتِ بالعُيون، والمغامَزة بالجُفون، والمخاطبةَ باللُّغوز، فإذا انصرفوا صَرَفَ الله قلوبَهم، قَلَبُوا الأمور، ونَقلُوا العُيوب، وأَفسدُوا القُلوب، وتَعلَّلوا بالأَحْلام وقَواطِعِ الأحكام». وقد أَوغروا قلبَ السلطان عليّ، فتيقَّنْتُ أنّ كُلَّ طلبٍ منّي سيزيدُ من شُكوكِه في وَلائي له.

كتمتُ قضيَّتي وعوَّلتُ على تحضير السفر في سِرِّيَّة تامّة، وتحيَّنتُ الفرصَةَ بوُقوع بعض القَلاقل في المناطق الغربيّة للمملكة. ذهبتُ إلى السلطان لأستأذنَ منه في الخُروج لتلك النواحي لِبَسْطِ الأَمْنِ وتَفَقُّدِ الثُّغُورِ والحُصُون، فَأَذِنَ لي. وخلا الجَوُّ لأعدائي كي يَزْمِرُوا على هَواهُم، ويَنْفُخُوا كِير الحِقْد والغَضَب ضِدِّي، والانتقام منّي.

ولمّا خرجتُ من عنده، وعُجْتُ على جنّة العريف، لأُوَدِّعَ شجرتي التي هي قِطْعَةٌ منّي. جئتُها، فوجدتُها منتفِضَة، فَعَزَوْتُ الأمر إلى النَّسيم، فزادَتْ انتفاضًا، بسبب جَهلي بمشاعرها، فأَدركتُ أن لا دَخْلَ للنَّسيم في حركتها وانتفاضتها، وإنّما هو شيء آخر، لعلّه إحساسُها بمغادرتي. وكيف تكونُ قطعةً منّي ولا تَشعرُ بما أَشعرُ به؟

قلت لها: سيّدتي، ومَنْ هِيَ بَعْضُ ذاتي، لقد أَتيتُ إليك لأخبرَك بمغادرتي غرناطة.

انتفضَتْ، وسمعتُها تقولُ بالكلام النفسي: لقد حضرَتْ نَوْبَةُ الأشباح يا أبا عبد الله.

فقلت: نعم، وسنتواصَلُ منذ الآن على نوبة الأرواح، فبيننا مسافات ودول. لقد قرَّرتُ الرحيل وتركتُ بعض ذاتي غُصنًا رطيبًا في جنّة الأندلس. ويشهَد الله أنّي ما تركتُ هذه البلاد إلّا لأنّي أُحِسُّ أنّ هذه الأرض سَتَلْفِظُ مَنْ دَرَجَ عليها، وتُنْكِرُ جميلَهُم. وسأسافرُ إلى أرض تُقِلُّنِي وسَماءٍ تُظِلّني، هما أرحم منّي بأرض وسماء الأندلس.

انتفضَتْ شجرتي وقالت بكلامها: لا مَفَرَّ اليوم يا أبا عبد الله، واحذَر منْ أن تأتيكَ الغَائلةُ مِنْ عَيْنِ ما فَرَرْتَ إليه.

فقلت: أما سَمِعْتِ كَيْدَ أعدائي تحت ظِلال هذه الأشجار؟ ألم تنقلْ لك أخواتُك ما يُخَطِّطُونَ له ضِدِّي؟

فقالت: بلى، ولعلَّ ما ينتظرُك أكثرُ ممّا تتوقَّعُ. فقد أحسنتَ إليهم وكفَلْتَهُم وربَّيْتَهُم وأَدَّبْتَهُم وحَذَّقْتَهُم، لكنّهم جَحَدوا النعمة وكَفَرُوا الصحبة، وباتوا على نار الحِقد ينتظرون الفُرصةَ للفَتْكِ بك.

فقلت: دعيني من هؤلاء يا بَعضَ ذاتي، وأَخبريني عن شَرْط نجاتي.

فقالت: أُقتلوني يا عداتي إنّ في قتلي حياتي.

استغربتُ قولَها، وأدركتُ بعضَ معناه، وأحسستُ كأنّي واحد بالأَصالة رغم شجريّتي، فلم أَعُدْ مُرَكَّبًا كما كنتُ في حيوانيّتي، ثم احتضنتُها، فنالني من بركة القُرب خيرٌ كثير، وأَحسستُ بالبَلَلِ على وجهي، فعلمتُ أنّ شجرتي كانت تبكي. أَمِنْ قَطْرِ النَّدَى كان

بكاؤُها أم من بَحْرِ ذاتي؟ وقام بي ما قام بها، وتَوَحَّدْتُ معها في مَشهَد برزخي، فرأيْتُني في جنّة عَدن على أرض الكَثيب، وسمعت الحقّ يتلو ﴿واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

وبينما نحن في ذلك الهَزِيع الأزلي، هَمَسَتْ لي شجرتي: ﴿وخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرَّحْمٰنِ فلا تَسْمَعُ إلّا هَمْسًا﴾. ثم أَرْدَفَتْ: طَأْ بِهِمَّتِكَ أرض النفوس، وَارْقَ في سماء الأرواح، وطُفْ بديوان الأسرار، فهناك اللقاء، هناك اللقاء، هناك اللقاء.

وأحسستُ وكأنّها انسلَّتْ من حِضْنِي إلى عالم الأرواح، ثم رأيتُ نفسي طائرًا أُحَلِّقُ إِثْرَهَا، ثم انقَطَعَ ذَلكَ البَثُّ، وعُدْتُ إلى أرض المحشر، فألفيت من كانت تكلّمني شجرة مثل سائر الأشجار، فعلمت أنّ رُوحَها رَحَل.

خرجتُ من غرناطة رفقةَ بعض رجالي المخلصين، وَوَلَدِي عَلِيّ الذي كان من مُنادِمي السلطان ومُخالِطيه، وقد كنت خِفْتُ عليه من الانتقام، فاصطحبتُه معي، وتَركتُ باقي أُسرتي في غرناطة على أمل اجتماعنا في وقت لاحق في فاس أو سلا ولمّا وصلتُ جبل الفتح، أرسلتُ رسالة إلى سلطاني أُخبِرُهُ بِنِيَّتِي في أداء الفريضة، وأَعتَذِرُ له عن خُروجي على هذه الصفَة، مُبَرِّرًا ذلك بخوفي من مُمَانعَتِه في السماح لي، ومن بعض ما اعتذرتُ به في رسالتي قولي له: قد «طرقتني الأفكار، وزَعْزَعَتْ صبري الرياحُ الخَواطر، وتذكّرتُ إشرافَ العُمْر على التمام، وعَواقبَ الاستغراق، وسيرةَ الفضلاء عند شُمولِ البَياض، فغلَبَتْنِي حالٌ شديدة هزَمَتِ التعشُّقَ بالشمْلِ الجَمِيع، والوطن المليح، والجاه

الكبير، والسلطان القليل النظير، وعَمِلْتُ بمقتضى قوله: مُوتُوا قبلَ أن تَمُوتوا». ثم ختمت الرسالة قائلاً: «ونختم لكم هذه الغَزارة بالحِلْفِ الأكيد أنّي ما تَرَكْتُ لكم وَجْهَ نصيحة في دين ولا في دنيا إلّا وقد وَفَّيتُها لكم، ولا فَارقتُكُم إلّا عن عَجْزٍ».

وتلقَّاني في جبل الفتح القائد المريني بعد أن أَمَرَهُ السلطان عبد العزيز بذلك، وكنت اتَّفَقْتُ معه سِرًّا على ميعاد مُسْبَق، فجهَّز لي سفينة في الحين أقلَّتني إلى سبتة، ومنها غادرت إلى طنجة، حيث كنت أنوي العودة إلى سلا، لكنّ رسالة وصلتني من أهلي وولدي في غرناطة، يستوحشون فيها من السلطان، ويتوقَّعون الإغراءَ بهم، فقرَّرْتُ صَرْفَ وِجهتي إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز، فَقَدِمْتُ عليه في تلمسان في شهر رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة.

لم أكن أَرغبُ في مُصاحبة السلطان، بل كنتُ أَتوقُ إلى أداء الفريضة بعد تَخْلِيصِ أَهلي في غرناطة، لكنّ طريقَ الحجّ لم يكن سالمًا، إذ كانت القَلاقل وقُطَّاعُ الطرُق تَحُولُ بين الحُجَّاج وأداء ما افْتُرِضَ عليهم. وقد توسَّط السلطان في تخليص أهلي، وكتب بشأن استقدامهم، فقدِمُوا عليّ. كان السلطان شابًّا يَرغبُ في رَجُلٍ يَملِكُ خِبرَتي ومَشورَتي، فبقيتُ بجانبه، أُسْدِيهِ النصْحَ، مُكرَّمًا معزَّزًا، ممّا أَحْنَقَ أَعدائي، فأَكثَروا من مَساعيهم لاستجلابي، لكنّ السلطان وقف بجانبي، ورَفَضَ تَسليمي لغرناطة.

أمّا ابن زمرك، فأصبح الوزير وكاتبَ سِرِّ الغني بالله بعد مغادرتي، واجتمع إليه رَهْطٌ من المُداهنين الذين كانوا يَكُبُّونَ على

يدي بالتقبيل، فصاروا اليوم يَرفَعونَ أصواتَهم بالقِيل والمَقِيل. ومن هؤلاء ربيبي ابن فَركون الذي حضنتُه، وأدخلتُه في ديوان الكتّاب، ولعلّه استعداني انتقامًا لأمّه التي طلّقتُها. وتلميذ آخر هو ابن قطبة الدوسي، فقد سلكوا في حِلْفِ المناوئين لي.

وأمّا البنّاهي الذي كان يسعى إليَّ سَعْيَ العبيد، ويلتزمُ تقبيل يدي، وينعتني بوليّ الله، فجاهر اليومَ بالعَداء، وأصدر فتوى يَتَّهِمُنِي فيها بالزندقة، ولفَّقَ لي القولَ بالحُلول والاتِّحاد، وسلوكِ مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد، والانخراط في سلك أهلِ الإلحاد، والطعن في الجناب النبوي والاستخفاف بالشريعة، وتحريم كتب التاريخ التي ألَّفتُها بدعوى أنّها غيبة ونميمة في حقّ السلَف، والفرار عن سلطاني واتّهامي بترك الأندلس أرض الجهاد والرباط، بدعوى أداء الفريضة وزيارة المدينة، وما شاكل هذه الترَّهات والتُّهم الرخيصة التي لا ترجَحُ في ميزان، ولا يرتاب في تَهَافُتِهَا عاقل أو إنسان، ممّا أثاره الحِقدُ والعَداوة والانتقام. ولم يكتف بتسطير فتواه، بل أرسلَها لي رسالة من غرناطة، فغاظتني خِيانَتُه، ورَدَدْتُ عليه في رسالة نَاضِحَةٍ بالسخرية، وذَكَّرْتُه بما سلَفَ من إحساني إليه، وأنّه لم يكن شيئًا مَذكورًا حتى نَوَّهْتُ به وقَدَّمْتُه. فأعاد الجواب، وتَعَلَّلَ بالقول إنّ الله هو المعطي والمانع والنافع والضارّ، وأَسرَفَ في تبرير موقفه المُخزي بدليل شهود وحدة الإيجاد والإمداد، حتى صار إِنْكَارُ الجَمِيلِ عنده مَذْهَبًا عَقَدِيًا وتَلَبَّس بمثل هذه المُغالَطات، وتَناسى ما يَحُضُّ عليه الشرعُ من أنّ شُكْرَ المُنْعِمِ واجب. وانصاعَ محمّد الخامس لأراجيفِ الأَعداءِ بعدما أخبروه بأنّ نَزعتي مرينيّة، وأنّي رَغَّبْتُ إلى السلطان عبد

العزيز في مُلْكِ الأندلس، وحَمَلْتُهُ عليه فواعدني عليه فَوْرَ عودتِه من تلمسان إلى فاس. لم يستطع أعدائي تَغيير قَلْبِ السلطان ابن الأحمر إلّا من جِهَةِ هذه التهمة الأخيرة، إذ اعتبرَها خيانة عظمى، ولو أنّني بريء منها، رغم أنّني أتمنّى في قَرارة نفسي أن تَتَّحِدَ مملكة غرناطة مع المغرب لِصَدِّ عُدوان القشتاليّين، وضمان حفظ وجود المسلمين في الأندلس. ووافق الغني بالله على حَرْق كتبي في غرناطة، وصادر أملاكي. وأرسل القاضي البنّاهي محمّلاً بهديّة لم يُسْمَعْ بمثلها إلى سلطان المغرب في شأن تلك الأَراجِيفِ الباطلات، فامتنع السلطان من إسلامي وإخْفَارِ ذِمَّتِي، وَرَدَّ على القاضي «هَلّا أَنْفَذْتُمْ فيه حُكْمَ الشرع وهُوَ عِنْدَكُمْ، وأنتم عالمون بما كان عليه؟»، وردَّه خائبًا ذليلاً، فألَّفْتُ كِتابًا أشبعتُهُ فيه ذَمًّا وقَدْحًا، عنونْتُه **خَلْع الرَّسَن في التعريف بأحوال ابن الحَسَن** ذكرتُ فيه مَثَالِبَهُ في قَبُول الرشوة، ونعوته الذميمة في المُداهنة والرياء والهَوادة والبُعد عن الحَشْمَة والتهالُك على الدنيا. وهو كتاب لا شيءَ فوقَه في الظرْف والاستظراف، يُسْلِي الثكَالَى، ونستغفر الله تعالى. ثم كتبت كتابًا آخر أُعرِّف بمآثر أُسرتي ونَباهة سَلَفي، وما لهم من المجد، أَرُدُّ به عمَّا بلغني عن المُجاهرين بعَدائي والمنتقِصِينَ من سَلَفي ونسبي، أسميتُه **المباخر الطيبيّة في المفاخر الخطيبيّة**. وألَّفت كتابًا آخر أسميته **الدُّرَر الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**.

كنتُ أَحِنُّ إلى لقاء صديقي ابن خلدون، فراسلتُه في الالتحاق بحاشية السلطان والاجتماع به في تلمسان، فأرسل يخبرني بأنّه سيصل من بِسْكَرَة بعد ربيع الثاني.

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان، وتوفّي السلطان أبو فارس عبد العزيز، وَ«دُكَّ الجبلُ العَاصِمُ من الطوفان، والمُمْسِكُ للأرض عند الرجَفَان» في شهر ربيع الآخر سنة ٧٧٤ هـ. وعقب الوفاة، انتقلتُ إلى فاس صحبةَ الوزير أبي بكر ابن غازي الوَصِيّ على السلطان الجديد، أبي زيّان محمّد السعيد. وكان عمره أربع سنوات، فبقي الوزير ابن غازي يُدِيرُ دَواليبَ الحُكم، وسلك معي سلوك السلطان عبد العزيز رحمة الله عليه. ولحق بنا ابن خلدون في فاس في حالة يُرثى لها، بعد أن تخلَّص بِمَشَقَّةِ الأَنْفُس من القَلاقل التي أَعْقَبَتْ وفاة السلطان عبد العزيز واحتلال مدينة تلمسان من قبل أبي حمو موسى من بني عبد الواد الزيانيّين. ولقي ابن خلدون من بِرِّ الوزير وكرمِه ما أنساه محنتَه.

كَثُرَ القِيلُ والقَالُ في هذه البيعة لصبيّ لم يَبْلُغْ سِنَّ الاحتلام، وتَكالَبَ أهلُ الأندلس وطَعَنوا في تلك البيعة، وهم ينوون بذلك إيصالَ حلفائهم من الأمراء المرينيّين المقيمين عندهم لحكم المغرب، فتجرَّدتُ للرَّدِ عليهم، ونُصرةِ الوزير وألّفت كتابًا أسميته **أعمال الأعلام في من بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، وبيَّنْتُ أنّ شواهدَ التاريخ والشرع دالَّةٌ على عكس ما قالوا

وبعدما لحق بي أهل بيتي، سكنتُ دارًا كبيرة في فاس، برياض بَهِيّ وبستان حَفِيل، فوظَّفْتُ رِجَالَ زيرارة(١) في نقل فَرْشِي وَمَتَاعِي إلى الدار الجديدة. ولم يتيسَّرْ لي الحجّ كما كنت قد قرَّرت.

---

(١) رجال زيرارة: رجال أقوياء، وظيفتهم الترحيل في مدينة فاس ذات الأزقّة الضيّقة. وكان على رأسهم أمين يسهر على حسن أداء مهمّتهم.

فاس مدينة عجيبة الشأن، بناها المولى إدريس وأرادها دار علم وفقه وصلاح. مدينة يخترقها وادي الجواهر، ويَقْسِمُهَا إلى قسمين، عُدوة القرويّين، وعُدوة الأندلس. تفخر على الدنيا بأن بها جامع القرويّين الذي بنته امرأة صالحة هي فاطمة الفهريّة، فصار قبلة للعلم والعلماء، وتخرَّج منه الفطاحل عبر الأزمان. كما ازدانت المدينة في عهد المرينيّين بمجموعة من المدارس العلميّة المنتشرة في مختلف أحياء المدينة. سكنت في حيّ الطالعة بالجهة الغربيّة للمدينة، أي في عدوة القرويّين، مجاورًا من جهة الخلف لدار صاحبي أبي زيد عبد الرحمٰن بن خلدون. هذه المدينة أشبه بالمتاهة من كثرة أزقّتها وأحيائها وحاراتها. وفيها من الصنائع والحِرَف ما يُبْهِرُ العُقول. ويَسكنها أقوام وأجناس من مختلف البلدان. وفيها تُعَظَّمُ الشريعة، وتُقْتَفَى الطريقة، وتُتَلَقَّى الحقيقة.

كانت أيّامًا سعِدت فيها سعادة بالغة، مُنَوَّهَ المجلس، نَابِهَ الرتبة، عريضَ الجاه. وبعد أن استقرَّ ابن خلدون في داره في حيّ الطالعة، مجاورًا لي، دعوتُه إلى داري، فلمّا استقرّ به المجلس خُضْنَا في الحديث، فقلت له: ها قد شاء الحقّ تعالى أن نلتقي مرّة أخرى في فاس، أَذْهَبَ الله عنها كلّ بَاس.

فقال ابن خلدون: وأذهبَ عنّا بالأخص كلّ بَاس.

فقلت: صدقتَ يا أبا زيد، ففاس، كما هي غرناطة، كما هي مراكش أو سلا أو تلمسان أو غيرها من المدن والحواضر. وإنّما الشأن شأنُنا نحن، وتقلُّبُنا من واحدة إلى أخرى، وما نلاقيه في تقلُّبِنا من أهوال ومتاعب، فكأنّ كلَّ واحدة منهنّ تَضِنُّ بنا على

صاحباتها. وإذا قَلَبَتِ الأيّام لأحدِنا ظَهْرَ المِجَنّ وسعى في التغريب إلى حاضرة جديدة، رأيتَ حاضِنَتَهُ تنقلِبُ عليه، وتُغري به الأعداء، انتقامًا منه في رغبته الانصراف عنها. وهذا قدَرُنا يا أبا زيد. لكن، دعنا من هذا، وأخبرني عن كتابِك العجيب الذي ألّفت عن التاريخ، وأهديتَه للسلطان عبد العزيز.

فأجاب ابن خلدون: لقد كان لتقلُّباتي بين الحواضر أثرُها في نفسي، إذ سئمتُ السياسة واعتزَلْت، وتوجَّهْتُ للتأليف، فوضعتُ قانونًا للتاريخ، في كتاب أسميته **مقدّمة في علم التاريخ**، يُجْمِلُ العناصر المحرِّكَة للتاريخ والفاعِلَة فيه.

فسألته: وما هي في نظرك تلك المحرّكات الكبرى التي رصدتَها في تاريخ الأمم؟

فأجاب: إنّ العمرانَ البشري بشِقَّيْهِ الحَضَري والبدوي، يقوم على العصبيّة، وتَمُرُّ الدُّول من عدّة أطوار، طور التأسيس، وطور الازدهار، وأخيرًا طور الأُفول. والعامل الأقوى في بقاء الدول هو العصبيّة، إذ كلّما كانت قويّة كانت الدولة أقوى، وكلّما استمرّت تلك العصبيّة استمرّت الدولة. وقد كنّا تحدّثنا عن هذا في غرناطة.

فقلت: إنّي أذكر ذلك، لكنّ هناك مسألة ما زلت أتحيَّر فيها، حيث أجد كتب التاريخ حافلة بأخبار لا يقبلُها العقل، لكنّنا لا نملك أن ندفعَها، فهل لك قانون في كيفيّة التعامل مع هذه الأخبار؟

فأجاب: إنّ «القانون في تمييز الحقّ من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو

العمران، ونميّز ما يلحقه لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضًا لا يُعْتَدُّ به، وما لا يمكن أن يعرض له، وإذا فعلنا ذلك، كان ذلك لنا قانونًا في تمييز الحقّ من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب بوجهِ بُرهان لا مَدْخَلَ للشكّ فيه، وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نَحْكُمُ بقَبولِه ممّا نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معيارًا صحيحًا يتحرَّى به المؤرّخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه».

ثم سألته: وما هي العوارض الموضوعيّة أو الذاتيّة التي تعرض للتاريخ، وبمقتضاها نستطيع أن نُعَلِّلَ الوقائع؟

فقال أبو زيد: إنّ «الاجتماع الإنساني. هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة هذا العمران من الأحوال، مثل التوَحُّش والتأَنُّس والعصبيّات، وأصناف التغلُّبات للبشر بعضِهِم على بعض، وما ينشأ عن الكسب والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال». والدعامة الأساسيّة التي يستند إليها المُلك وحكم الدول هي العصبيّة كما ذكرت لك. وكلّ الأحداث والوقائع والتحوّلات التي تطرأ على العمران الحضري أو البدوي مرتبطة بوجود أو فقدان العصبيّة. وهي نزعة طبيعيّة في الإنسان، تتولّد من النَّسَب والقَرَابة، وتتجاوزهما لتشمل الولاء للقبيلة أو الأحلاف. وإذا ضَعُفَ النسب أو جُهِلَ لدى الناس، فإنّ العصبيّة تختفي. وهذا نادر الحدوث في الأنساب البدويّة لأنّ القبائل تعيش حالة عزلة عن غيرها، فتحتفظ بقوّتها وعصبيّتها. وتدوم الرئاسة في العمران البدوي أربعة أجيال. أمّا في العمران المدني، فإنّ عصبيّة القبيلة قد

تتطوّر لبسط هيمنتها على باقي القبائل عبر الحروب للوصول إلى مرحلة الملك. وحين تصل القبيلة المتحكّمة إلى هذه المرحلة، يبدأ العمران الحضري. وهنا تأخذ الدولة الناشئة بعين الاعتبار عصبيّات القبائل المختلفة، فيضعف دَوْرُ النسب فيها، ويتخطّى المُلْكُ عصبيَّتَه الخاصّة، ويستند إلى عوامل أخلاقيّة واجتماعيّة هي ما أُسَمِّيه الخِلال. وتَمُرُّ الدول في العمران الحضري من خمسة أطوال، ابتداء من الاستيلاء على الملك، ومرورًا بالاستبداد، ثم الفراغ والدَّعَة، ثم القنوع والمسالمة، وانتهاء بالإسراف والتبذير، الذي تَهْرَمُ عنده الدولة، لِتَحُلَّ محلَّها دولةٌ جديدة».

فقلت: إنّ هذا القانونَ غير مَسبوق يا أبا زيد، فلم أقرأْ في كُتُبِ التاريخ وغيرها عن مثل هذا الذي تتحدَّث عنه، وبقي عليك أن تُبَرْهِنَ على صِحَّةِ قوانينِكَ بإنزالها على تواريخ الأمم.

فقال: نعم، صدقتَ يا أبا عبد الله. وقد تمكَّنْتُ خلال تَنَقُّلاتي في بلاد المغرب والأندلس أن أبدأ في تَحرير مثل ذلك الكتاب. لكنّي انشغلتُ مؤخّرًا بالنقاش الذي احتدَمَ في الأندلس بين الفقهاء والفقراء حول مسألة الوصول إلى طريق المعرفة الذوقيّة، ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تَعَلُّمًا من الكتب الموضوعة في هذا الفنّ، أم لا بدّ من شيخ يُبَيِّنُ دلائلَ الطريق، ويُحَذِّرُ من غوائِلِهِ، ويُمَيِّزُ للمُرِيدِ، عند اشتباه الواردات والأحوال، مسائلَه.

فقلت: لقد كتبتُ كتابًا أسميته **ترتيب الشبه وتحرير الشبه** في الرجوع بمتفقِّرَةِ الربُط في الأندلس إلى عدم التعَلُّق بالواهي من الشبهات، والتهويل بالفيوضات والكمالات، والإقبال على الجهاد

وتحرير أرض الأندلس من الروم، وعدم الركون إلى الجمود والكسل وترك الدعوة إلى الله. وأحببت أن أوقظ هِمَمَهُم لما هو أولى وأجدى بدل تضييع الوقت في مثل هذه النقاشات.

لكنّي كنت قد أخبرتك برسالة أبي إسحاق الشاطبي إلى علماء المغرب. وقد أفتى في المسألة صاحبُنا الزاهد الوَرِع ابن عبّاد الرندي شارحُ الحِكَم، والشيخ أبو العبّاس القبّاب.

فقال ابن خلدون: وماذا كان جوابهما؟

فقلت: لقد أفتيا بضرورة الأخذ عن الشيوخ، لأنّ المرء لا يسافر في القِفار المخيفة اعتمادًا على مُجَرَّدِ وصف الطريق. وكذلك الشأن في سلوك طريق الإرادة لا يكون من دون شيخ بصير بأهوال الطريق، مع تفصيل في ذلك. فالقبَّاب يُعنى به شيوخ الفقه الذين يَدلُّونه على عمل الصالحات بعد أن يحقّق التوبة، التي ليس بعدها مَقام، حسب القبّاب. وإذا لم يجد الطالب مثل هذا الشيخ، جاز له أن ينظر في كتب الفقه، وبعض كتب الهداية مثل كتاب **الرعاية** للمحاسبي. بينما يرى ابن عبّاد أنّ الشيوخ قسمان، شيوخ تعليم بلا تربية، وشيوخ تعليم بتربية. ثم يبيّن أنّ ما يحدِّدُ الاعتماد على هؤلاء أو أولئك مرتبط بنفسيّة كلّ طالب ومريد حقّ. فهناك من السالكين من يقتصر على شيخ التعليم، لكنّ آخرين يلزمهم شيخ تربية يبيّن لهم غوائل الطريق، ومتشابهات الأحوال والمقامات.

لكن، لماذا أنت مهتمّ بهذه المسألة، وأنت لم تُسْتَشَرْ فيها، ولستَ من أهلها المرجوع إليهم؟

فأجاب: صدقتَ يا أبا عبد الله، إنّي لستُ من أهل هذا الفنّ،

لكنّي رأيتُ أنّ له علاقةً بما اهتديت إليه من القوانين حول العمران البشري، كما بيّنْتُهُ في المقدّمة، حيث قدَّمْتُ المسألة العمليّة على المسألة المعرفيّة. ورأيت أنّ النقاش في مسألة سلوك طريق الإرادة سواء بالاستناد إلى كتب الهداية أو اتّخاذ الشيخ المربّي، يسنح لي بالتمثيل على المرتكزات الفكريّة في المقدّمة بشكل أوضح وأجلى، في مسائل السلطان السياسي والروحي.

فسألته: وما هي مصادرك في الحديث عن هذا الموضوع؟

فأجاب: مصادري هي كتب القوم كـ **الإحياء والقوت والرسالة**، كما أنّي أفدت كثيرًا من كتابك **روضة التعريف**، في الوقوف على حقيقة التصوّف ضمن مسيرة الفكر البشري. كما تبيّنت كثيرًا من الفروق بين مختلف مذاهب القوم، لكنّي أغتنم هذه الفرصة لأنصحك بالحذر من أعدائك الذين يتربَّصون بك الدوائر. وقد وصلتني أصداء عن التهم الباطلة التي لفَّقوها ضدّك. ومن الأفضل أن تُحَصِّنَ دفاعاتك بعد أن غادرتَ الأندلس.

فقلت: وكيف ذلك؟

فأجاب: أنت تعلم أنّ الوضع في المغرب غير ثابت بعد تنصيب السعيد سلطانًا على البلاد، ولن تعدمَ من يطعنُ في هذه البيعة، ويرفضُ البيعة لصبيّ، ويرى نفسه أحقّ بها من إخوة السلطان عبد العزيز الذين احتجزهم في طنجة، أو الأمير عبد الرحمٰن المحتجَز في غرناطة مع وزيره مسعود بن رحو، الذي اعتُقِلَ بمشورتك. ولا محالة سيستعملهم الغني بالله في مُقايضتك مع فاس.

فقلت: هذا محتمل يا أبا زيد، لكنّي أظنّ بأنّي لم أعد أُشَكِّلُ خطرًا على أعدائي في الأندلس. مكتبة الرمحي أحمد

فقال: لا أعتقد ذلك، وإلّا كيف تُفَسِّرُ إرسالَ الرسُلِ إلى سلطان المغرب لتسليمك إلى غرناطة؟ يا أخي، إنّ هؤلاء القوم مُصِرُّونَ على النيْلِ منك، وسوف لن يتورَّعَ هؤلاء المطالبون بحكم المغرب في تسليمك إلى سلطان غرناطة، متى ما وصلوا بمساعدته إلى الحكم.

فقلت: وما هو الحلُّ في رأيك؟

فأجاب: أن تسافرَ إلى بني عبد الواد.

فقلت: إنّهم أعداء المرينيّين، وكيف أخونُ من آواني ورعاني؟

فقال: إنّها ليست خيانة، وإنّما زيارة في طريق الحجّ.

فقلت: لا أستطيع أن أفعلَ هذا بالوزير ابن غازي، في هذا الوقت الذي يحتاجني فيه.

فقال: على كلّ حال، فهذا هو الرأي عندي.

فقلت: دعنا من هذا يا أبا زيد، فإنّك فتحتَ جِراحًا في قلبي. وكم أتمنَّى أن ينساني هؤلاء القوم.

ثم خرجنا نتنزَّهُ في البستان.

* * *

رغم تحذيرات ابن خلدون، إلّا أنّي كنت واثقًا من حِماية المرينيّين، بعدما بعث السلطان ابن الأحمر سفراءَه إلى الوزير ابن

غازي في شأني، فأبى الوزير تسليمي إليهم وأغلظَ القولَ لهم. أظلمَتِ الأمورُ بين غرناطة وفاس، وجَهَّزَ ابن غازي بعضَ قرابة الغني بالله للهجوم على مملكة غرناطة، فبادر ابن الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرحمٰن ووزيره، المحبوسين عنده بمشورتي لمّا كنت وزيرًا، وذلك أيّام السلطان عبد العزيز. فبعثهما للمطالبة بملك المغرب، فجازا إلى العدوة وقامت بعض القبائل ناحية وادي ملويّة بدعوة الأمير عبد الرحمٰن. ثم قام ابن الأحمر فحاصر جبل الفتح، ومحا دولة بني مرين ممّا وراء البحر. ولمّا بلغَتْ هذه الأخبار إلى الوزير ابن غازي، القائم بدولة بني مرين، جهَّزَ ابن عمِّه محمّد بن الكاس إلى سبتة لإمداد الحامية المرينيّة التي تعسكر في جبل الفتح. ثم قام الوزير بنفسه إلى الأمير عبد الرحمن لمحاربته، فبلغه أنّه احتلّ مدينة تازة، فحاصره هناك بدون جدوى.

أمّا ابن عمّ الوزير، محمّد بن الكاس فقد وقعت المراسلة بينه وبين ابن الأحمر، وعاتبه الغني بالله على تولية غلام على ملك المغرب، بينما هناك من هو أولى، فاستعتب له محمّد بن الكاس، وحمله ابن الأحمر على أن يُبايع لأحد الأمراء المرينيّين المحبوسين في طنجة. وقد كان الوزير ابن غازي قد أوصى ابن عمّه إن ضاق عليه الأمر من قِبَلِ الأمير عبد الرحمٰن، أن يُبايِعَ لأحد أولئك الأمراء، فبادر ابن الكاس إلى الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم، وقد كان وزيرًا له فيما خلا، فأفرج عن مُستَوْزِرِهِ وبايع له، وأعلمَ ابن الأحمر بذلك، طالبًا منه المَدَد وأن يَنْزِلَ له عن جبل الفتح، فأمدَّهُ ابن الأحمر بالمال والعسكر، وقام

إلى جبل الفتح فدخله. أمّا الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم، فقد كان تعاهد مع إخوته الآخرين لمّا كانوا في الحبس في طنجة، أنّ مَنْ صار الملك إليه منهم، يُجيزُ الآخرينَ إلى الأندلس، فوفّى الأمير بعهده لإخوته وأرسلَهم إلى غرناطة، فنزلوا عند السلطان ابن الأحمر، فأكرمَهم. وبلغ الخبر إلى الوزير ابن غازي، فأحنَقَهُ ما فعله ابن عمّه وتوعَّده وهدَّده، ثم قَفَلَ راجعًا إلى فاس بعدما فَكَّ الحصار عن تازة. ولمّا خاف محمّد بن الكاس من ابن عمّه الوزير، راسل ابن الأحمر ليُمِدَّه بالمال والرجال والسلاح حتى يُنازلَ ابن عمّه، فاستجاب له الغني بالله، فقام ابن الكاس واحتلَّ جبل زرهون القريب من فاس وعسكر به. ولمّا علم بذلك الوزير ابن غازي، قام إلى زرهون فقاتل ابن عمّه، فهُزِم وعاد مَفْلولاً إلى فاس. أمّا ابن الكاس، فقد كان ابن الأحمر قد طلب منه الاستعانة بالأمير عبد الرحمٰن، فراسله واتّفقا على الاجتماع ومحاصرة الوزير ابن غازي، الذي أذعن للصلح بعدما أجهدَه الحصار، ووافق على خلع الصبي المنصوب عن حكم المغرب، ومبايعة أبي العبّاس أحمد بن أبي سالم سلطانًا جديدًا على المغرب. أمّا الأمير عبد الرحمٰن فقد تنازلوا له عن مراكش وسجلماسة ودرعة.

ودخل السلطان الجديد إلى فاس فاتح ستّ وسبعين. وكنت أعتزم مبايعة السلطان الجديد، فخرجت رفقة جاري ابن خلدون، لكنّهم قبضوا عليّ لأوّل دخولهم إلى فاس، وأحنَقَهُم أنّي كتبت كتابًا في الانتصار لمبايعة غلام لم يبلغ الحلم، سلطانًا على ملك المغرب.

أمّا ابن خلدون فقد كان مُتلبِّسًا بالأمير عبد الرحمٰن، مُشايعًا له، فأحنق ذلك السلطان الجديد ووزيره ابن الكاس. فلمّا غادر الأمير إلى إيالته في مراكش، قبضوا على ابن خلدون وأودعوه في السجن، فعاد إلى جواري في الحبس مثلما كان جاري في السكنى، مخافة أن يقوم بدعوة الأمير عبد الرحمٰن على حساب السلطان الجديد أبي العبّاس أحمد. لكنّ الأمير عبد الرحمٰن سمع باعتقالهم لابن خلدون، وبعث وزيره مسعود بن ماساي فأطلقوه من الغد، وبقيت وحدي في السجن، أنتظر ما يفعل الله بي. وقد أوصيتُ ابن خلدون أن يعملَ في الشفاعة لي متى وَسِعَهُ الأمر. وكان ينوي الذهاب إلى الأندلس بقصد القَرار وتدريس العلم، فلم يُسعفوه إلى ذلك إلّا بعد مُطاولة وكُرْهٍ من الوزيرين محمّد بن الكاس، وسليمان بن داوود، وأبقوا أهله وأولاده رهائن في فاس. وأبلغني أنّه استطاع الجَواز إلى الأندلس في ربيع سنة ستّ وسبعين. وأرسل لي رسالة يخبرني بأنّه التقى ابن زمرك في جبل الفتح مُوفَدًا من قِبَلِ سلطانه ابن الأحمر إلى فاس لتهنئة السلطان أبي العبّاس، وكلَّمه بشأني، فأبلغه أنّ أمر ابن الخطيب بيد السلطان ابن الأحمر وحده. ثم أخبرني ابن خلدون أنّه أوصى ابن زمرك أن يستقدم له أهله وولده إلى الأندلس الذين تركهم رهائن في فاس. ثم طمأنني بأنّه حالما يصل إلى غرناطة سيشفع لي عند السلطان ابن الأحمر.

بقيتُ أُداعب هذه الآمال، رغم أنّي أعلم أنّ التحوّلات الأخيرة تركتني بلا سند، فلم يبق في ملوك العدوتين من يعطف عليّ، وبدا وكأنّ الدنيا أظلمَتْ في وجهي، فاحتسبتُ أمري لله.

وخلال مُكثي في السجن، حاولتُ يائسًا مكاتبةَ ملك تلمسان لتخليصي من قبضة أعدائي، واستصرختُ به نثرًا ونظمًا، طالبًا شفاعته لدى السلطان الغني بالله، فلم يستجب لي لأنّه لم ينس مدائحي للمرينيّين وتهنئتهم على هزيمة بني عبد الواد، فكان استصراخي لديه صيحة في واد.

ضاقت الأرض عليَّ بما رَحُبَتْ، وانهدَّ ما بقي من هيكلي وكياني، ووضعوني في الأصفاد مُكبَّلاً ذليلاً صَاغِرًا وقد هان عندي الأمر، ولم أَعُدْ أهتمُّ بموتي أو حياتي، وركبني تركيب جديد حول خِسَّة الحياة التي يَكُدُّ المرء في اقتناء مسرَّاتها ومباهِجها، حتى إذا حان أَوَانُ الإثمار، قطفَتْهُ المنايا. يَئِستُ من الخَلق ومن خِسَّتِهم، واستحييتُ أن أسأل نفسي سؤالاً ضَجَّ بي: كيف يَسمَحُ هؤلاء بقتل العلماء والأدباء؟ وكيف ينتقم منّي سلطان ربَّيته في حِجري وعلَّمته قواعد فنّ السياسة والحُكم، ونصرتُه، حتى أصبح أكبر سلطان في دولة بني الأحمر؟ وماذا جنيتُ لأعامل بهذا الخِزي والعَار؟ وكيف ينقلب عليّ تلميذ رعيتُه ورقَّيتُه على يدي حتى دَرَجَ؟ أم كيف يتحوّل عنّي قاض صديق، أقمتُه في خُطَّته وحلَّيته بأسنى الأوصاف، ثم يتنكَّر لي ويفتح باب الفتنة عليّ؟ لماذا يتحوَّل الناس إلى هذه الدرجة من الحقد، ويتناسوا الفضل والإحسان؟

استطاع أبنائي عبد الله ومحمّد وعلي زيارتي في السجن بعد أن نقدوا الحرس بالدرهم والدينار، فدخلوا عليّ. ولمّا رأوني على تلك الحال، أَنِفُوا من النظر إليّ في الأصفاد، وأجهشوا

بالبكاء، فقلت لهم: لا عليكم أبنائي الأعزّاء، فهذا حال الدنيا، ولتفتخروا بوالدكم ما حَيِيتُمْ. أمّا هذه الأصفاد، فسنقف أمام الحقّ يوم القيامة، وسيقتصُّ منهم على هذه الإهانة والظلم. ثم نصحتُهم بالابتعاد عن أهل السياسة وحفظ اللسان، وسكنى المغرب لأنّ حال الأندلس إلى زَوال.

ثم أنشدت باكيًا مُبكيًا:

بَعُدْنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا البُيُوتْ وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتْ
وَأَنْفَاسُنَا سَكَنَتْ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصَّلاةِ تَلاَهُ القُنُوتْ
وَكُنَّا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَا نَحْنُ قُوتْ
وَكُنَّا شُمُوس سَمَاءِ العُلا غَرَبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السُّمُوتْ
فَكَمْ جَدَّلَتْ ذَا الحُسَامِ الظُّبَا وَذُو البَخْتِ كَمْ جَدَّلَتْهُ البُخُوتْ
وَكَمْ سِيقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ فَتَى مُلِئَتْ مِنْ كُسَاهُ التُّخُوتْ
فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الخَطِيبِ وَفَاتَ وَمَنْ ذَا الَّذِي لاَ يَفُوتْ
فَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ فَقُلْ يَفْرَحُ اليَوْمَ مَنْ لاَ يَمُوتْ

وبعد أن تحادثنا وكتبوا هذه القصيدة المؤثّرة، خرجوا يَجُرُّونَ ذُيولَ الإحباط والحزن.

راودتني أسئلتي، فلم أكن أملك أجوبة عنها، وأقصى ما انتهى إليه أمري أنّ في الإنسان شيئًا من الشَّقاء يجعله يتصرَّف على هذا النحو. لقد مَلَكْتُ أَزِمَّةَ الأدب والسياسة كما لم يملكهما أحد قبلي، لكنّي لم أتجَبَّرْ إلى هذا الحدّ، ولم أَخُن إلى

هذه الدرجة، ولم أَصِرْ إلى نُكران الجميل كما حصل لهؤلاء جميعًا. تعجَّبت كثيرًا من هؤلاء الأولاد يقتلون أباهم الذي ربَّاهم.

وهل طاوَعَتْهُم نفوسُهم حتى تركوا تدبير أمور الحكم من أجل رجل لا ذنبَ له سوى أنّه أرادَ اعتزال السياسة؟ لا بدّ للأديب أن يبقى أديبًا وأن لا يخالطَ أهل السياسة، وإلّا فإنّهم لا يسمحون له باعتزالها واعتزالهم. لقد كان كلّ ذنبي أنّهم لم يغتفروا لي أن أطلبَ النجاة لنفسي من ألاعيب السياسة، فكأنّ انتقامَهم منّي انتقام السياسة من الفكر والأدب.

لقد وُلِدتُ في لُوشَة ثم نشأتُ ودَرَجْتُ في غرناطة، ووصلت ذُرَى المجد فيها، لكنّي أعرضتُ عن كلّ هذا، ووضَعَ الله في طريقي من كان سببَ هدايتي وإعراضي عن زخارف الدنيا. لكنّ الحياة راودتني مرّة أخرى، فعدتُ إلى سابق عهدي بل ظَفِرتُ بمجد أعلى وأرقى. فلمّا رأيتُ استحالةَ إصلاح حالي مع استمرار تَمَرُّغِي في السياسة، قرَّرتُ النجاةَ بنفسي، فجزتُ إلى العدوة أبحثُ عن سعادة تجبر تركيبي. فلمّا كدتُ أظفرُ ببغيتي، انقلبتِ الأمور، وسعى أعدائي بكلّ ما أُوتُوا للإيقاع بي. فما أهونَ الموت إن كان فيه راحةُ بدني؟ أمّا روحي فبعتُها لربّي لمّا بايعت تحت ظلّ شجرتي. ولم يعد يهمُّني متاعُ الدنيا، بل لبستُ المخصوفَ من النعال، واشتمَلْتُ على البالي من الثياب، واتَّخذتُ المِنْسَاةَ أَتَوَكَّأُ عليها، وكأنّي غصن من تلك الشجرة الأزليّة، التي لا نَوْعَ يَحُدُّها، ولا رَسْمَ يُصَوِّرُها، فقد جمعَتْ من

كلّ نوع جوهرَه ومادَّته، فتارة سدرة، وأخرى زيتونة، وثالثة نخلة، وهَلُمَّ دواليك.

ورأيت نفسي أُساقُ إلى الموت، ثم ما لبثَ الموت نفسُه أن ذُبِحَ، فرأيت الحياة الأزليّة. وبكيتُ على نفسي بدموع حَرَّى، وجفون مريضة ذابلة، وجاشتْ نفسي بالبكاء، فسال الدمعُ على خَدَّيّ وخَضَبَ لحيتي، وتمنَّيتُ الموت مَرضاة لربّي.

وصل ابن زمرك إلى فاس لتقديم التهنئة للسلطان الجديد، والحقّ أنّه قدم للتعبئة ضدّي، ثم أخرجوني من السجن مُكَبَّلاً في السلاسل، وعقدوا مجلسًا في المشور. وصلت إلى المجلس الذي جلس فيه بعض مترسّمة فقهاء الدولة، مع جمع من مُتَرَسِّمَة فقهاء الأندلس الناقمين. أمّا مَنْ أعرِفُهم من العلماء الأتقياء، فلم يُدَنِّسُوا صحيفتهم بشرور حضور هذا المجلس، وما يُسمَع فيه من تُهَم باطلة وشهادات زور آثمة. وقد بلغني أنّ القبّاب الذي زهِدَ وتَصَوَّفَ في آخر حياته، رفض حضور هذا المجلس، على الرّغم من توجيه الدعوة إليه، وتَعَلَّل بأنَّ ما حصل بيني وبينه من خلاف سابقًا يمنعه من أن يكون حَكَمًا في مثل هذه القضيّة، وهو توجيه يُفْهَمُ منه أنّه يأبى لنفسه تَحَمُّلَ وِزْرِ تهمتي وظلمي. وقفتُ أمام هؤلاء الذين شابتْ لحاهم، ولم يَرُعْهُمْ أنّهم سيقفون أمام ربّهم كوقفتي هذه، وسَيُسْأَلُونَ عمّا اقترفوه من ذنوب، وما اجترحوه من آثام.

جلس ابن زمرك بجانب وزراء العهد الجديد، فنظر إليّ نظرة تَشَفٍّ وظَفَر، لكنّه لم يستطع أن يُديمَ النظر، إذ لم يحتَمِلْ ما

تَحْمِلُهُ نظراتي إليه من أرطال من اللوم والاحتقار. فها هو الولد الذي ربَّيته وعلَّمته وقدَّمته يَحْمِلُ صَكَّ تهمتي ويسعى في هلاكي. كانت نظراته مرتعشة، وحركاته متسارعة، فلا تراه إلّا قائمًا مرتحلاً مع أنّه لم يبرح مكانه، مِنْ شِدَّةِ ارتباكه وحَرَجِهِ. هذا الذي كان يُقَبِّلُ يدي ويجثو أمامي ويتذَلَّلُ في إرضائي، ويأتيني بشِعْرِهِ المفكَّك أُصَحِّحُه له حتى أصبح شاعرًا، يقف ماثلاً في محاكمة بائسة يائسة، ولو أنّ الحقَّ حَقٌّ، لكان هو من يجب أن يَمْثُلَ اليومَ في هذه المحكمة بتهمة العُقوق والتزوير. ولو أنّ البشر كانوا يُحاكمون المثالِب الأخلاقيّة لحكموا على حسده وخِيانته، لكنّهم استَمْرَؤُوا أن يفعلوا هذا، وتآمروا على تقديم ابن الخطيب، ولسان الدين والدنيا، الذي ملأ الأرضَ وفِجاجَها بالقول النثير، والنظم الأثير، فلم يُجَارِهِ في ذلك قائل منذ أن ظهر كُتَّابُ اللسان العربي والبيان الأدبي على وجه العمران البشري، كما يقول صاحبي ابن خلدون. لم يكن يَعْنيني أن أَنظرَ إلى سَدَنَة الزور، وكَهَنَة البُهتان الجالسين أمامي، لكنّي أردتُ أن تلاحقه هذه النظرات المزلزلة إلى الأبد. وكلّما أمعنتُ التحديقَ فيه، كلّما تَلَوَّن كالحِرباء في ديباجِه حتى لكأنّه شَمْلَةُ أَطْمَارٍ سَوداءَ مُلِئَتْ خَطَايا وكَثُرَ تَمَلْمُلُهُ كالثعلب السخيف، أو اليَربوع الرجيف. ثم رأيته يلتَفِتُ إلى الوزيرِ سليمان ابن داوود، في الدولة الجديدة، وأَحَدِ أعدائي الألِدَّاء، وعَدُوّ ابن خلدون، بل عدوّ كلّ نَباهة وكَفاءة، إذ لا يرى لنفسه مثيلاً، ولا مَنْ على شَاكِلته شَبيهًا أو نظيرًا أو مَثيلاً ثم رأيتُ الحَسَائِفَ على وجهِهِ، والتكشير باديًا من ثُقْبِ فَغْرِهِ. وكان يَنقِمُ عليّ لأنّه كان يُمَنِّي نفسَه

بمنصبِ شَيْخ الغُزاة في الأندلس، فَحُلْتُ بينه وبين هذا المنصِب لمّا كان الرأي رأيي، لعدم أَهْلِيَّتِه، فأَسَرَّهَا في نفسه إلى هذا اليوم.

وبعد أن عَاينتُ سَفَرَةَ الزور واحِدًا واحدًا حتى أَخْزِنَ صُوَرَهُم ليوم الحِساب والعَرْض، تَوَلّى أحدُ غِربانهم، قراءةَ ما سطَّره البنّاهي وابن زمرك من تهم وزُور. فلمّا أنهى نعيقَه، قامَتْ شَيْبَةُ سُوءٍ من هؤلاء الجِلَّة، فسألني:

ـ ما جوابُك عن هذه التُّهَم يا ابن الخطيب؟

ـ إنّي أرفضُها جملة وتفصيلاً، وإنّما هي تهم باطلة، وتهويلات لا تخفى على كلّ نبيه.

ـ أَوَتَتَّهِمُ هذا المجلس بالجَهل والغَفْلة وعَدَمِ النباهة؟

فقلت له بلسان ساخر: أيّها الجليل، إنّما أدفعُ عن نفسي تهمًا باطلة.

ـ لقد حرَّر مَحْضر هذه التهم، قاضي الحضرة في غرناطة، وأشهدَ عليه جملةً من فُقهاء الأندلس، وأمضى عليه السلطان ابن الأحمر، والوزير أبو عبد الله بن زمرك، فهل تَتَّهِمُ جملةَ هؤلاء في عَدالَتِهم؟

ـ أيّها الجليل، إنّي دُعِيتُ مُكَبَّلاً في أصفادي أمام هذا المجلس، ولست هنا لأطعنَ في عدالة أيٍّ كان، بل لأدفعَ عن نفسي هذه التُّهم. فبالأمس القريب كنتُ وَزيرًا نافذَ الكلمة، وقد حصَّنتُ الثغور وأَسْدَيْتُ النصيحة، وتركتُ بيتَ الخزينة مليئًا

بالأموال، وسلكتُ سلوكًا مَرضيًّا، بشهادة القَريب والبعيد. لكنّي تعبتُ من السياسة وأحببتُ الاشتغالَ حَدَّادَ نفسي، فلم يَرُقْ هذا لوُلاة أمري، وظَنُّوه خيانةً منّي، وليس الأمر كذلك، وإنّما هو عَهْدٌ اشترطتُه قبل سنوات على سلطاني، فلم يُوَفِّنِي إيّاه، فلمّا أعيتني الحيلةُ والإلحاح، خرجتُ مُيَمِّمًا بلادَ المغرب حتى أجوزَ منها لأداء الفريضة، لكنّ قُطَّاعَ الطريق من البَدْوِ عَطَّلوا الوُصولَ إلى الفَريضة بكثرة تَعَرُّضِهِم للحُجَّاج، فأجَّلتُ نيَّتي في الحَجِّ إلى أن تَسْلَمَ الطريق، وأَحْصُلَ على الصُّحبة والرفيق. ثم حَدَثَتْ أمورٌ في هذه الدولة السعيدة، فأصبحَ نهاري ليلاً أسود، وانقلبَ نُورُ خُمولي ظلامًا سَرمدًا. فما هو إلّا يوم وليلة حتى رُمِيتُ في حُفرةِ السجن، وصُفِّدْتُ بالسلاسل كاللصوص. ولا أَعلمُ سببًا لهذا التحوّل، بعد أن كنتُ مُبَوَّأَ المكانة، محفوظَ الرتبة في هذه الدولة العليّة. فلماذا لم أُتَّهَمْ بهذه التّهم لمّا كنت وزيرًا في غرناطة؟

لم يكن ذو الشيبة يُريدُ أن يَنْجَرَّ إلى الحديث عن تقلُّبات الحُكّام، لأنّه كان يعلمُ في قَرارة نفسِه أنّ الأمر مبيَّتٌ بليل، ولكي يبرِّرَ موقفَه وموقفَ نُظرائه من هذه المحاكمة الهزيلة، أخرجَ تهمة الزندقة، وغيرها من الترَّهات التي يَشهد الله أنّي بَراءٌ منها. وما إن تَفَوَّه بِصَكِّ التهمة حتى بدأ الجِلَّة المنافقون في الحوقلة والتبرّي والبَراء حتى يزيدوا من مأساويّة اللحظة، ويُحبِطوا نفسيّةَ المتَّهم في الدفاع وردِّ الباطل.

لم أتمالكْ أن أبتسمَ ابتسامةً ساخرةً من هذا المشهد العجيب، فزاد حَنَقُ فقهاءُ السوء عليّ، وقرَّعوني على استهزائي

بهم واستخفافي بالشريعة.

عجبتُ لأمرهم يُحَمِّلُونَ خساسَتَهُم على كاهل الشريعة، إذ كلَّما طَرَقَهُمْ أَمْرٌ أو أَلَمَّ بهم حَدَثٌ، اتَّهَمُوا الخُصومَ بالطَّعْن في الشريعة الغَرَّاء. فلو نَطقَتْ لَسَفَّهَتْ أحلامَهُم ولَرَدَّتْ عليهم، وتبرَّأَتْ من فِعَالهم، ولطالَبَتْهُم بالاحتكام إلى حَمَلَة الشريعة الحقيقيّين الذين زَهِدُوا في مثل مَناصِبِهم، ونَفَرُوا من مثل مجالسهم، ابتغاءَ مَرضَاةِ ربّهم. فأينَ القَبّاب؟ وأينَ ابن عبّاد؟ وأين فُحول العلماء، وكبار الفقهاء ممّن يخافون الله ويخشون عذابه؟

لم أُرِدْ أن أُواجِهَهُم بهذه الحقيقة، فهم يعلمون أنّهم آثروا الدنيا على الباقية، وباعُوا نفوسَهم بأرخص الأثمان، وزيَّنوا لوُلاة الأُمور الانتقامَ من الأبرياء بِشُبَهٍ لا اعتبارَ لها في ميزان الشرع.

ثم سَرَدَ سارِدٌ منهم مسألةَ علم الله بالجزئيّات التي كان يتّهم بها الشيخ ابن هذيل، ولا تُدركها أفهامُهم السقيمة، وشدَّدوا النكير، وحمَّلوني حكايةَ الكُفْر في أمورٍ ليستْ من اختصاص الفُقهاء، ولا عِلْمَ لهم بها، ولا رَأْيَ لهم فيها. وبدا وكأنّ القضيّة قد حُسِمَتْ من الأَوَّل، وأنّ هذا المجلس ما هو إلّا مَهزلةٌ يُرادُ منها تَبريرُ الانتقام من ابن الخطيب بأيّ طريقة كانت.

ثم نظرتُ ناحية ابن زمرك واخترَقَتْهُ نَظراتي فلم يُطِقْ ذلك وانكمَشَ في جلسته، والتفَتَ يُدَارِي، بالحديث مع جاره. وكان قصدي أن ترتسِمَ هذه النظرات في ذاته، وتبقى تُؤَنِّبُهُ حتى آخر يوم من أيّامه، وقد أدركَ القصدَ فلوى رأسَه إلى ناحية ثانية.

أكثر الفقهاء من النكير واستعظَموا جريرةَ أعمالي وآرائي في **روضة التعريف** الذي ألَّفتُه بطلب من السلطان، وها هو اليوم يُحَمِّلُنِي حكايةَ أقاويل حكماء اليونان وفارس والهند. فلو فرضنا أنّ تُهَمَهُم صحيحة، لَلَزِمَ هؤلاء اعتبار المسؤوليّة الشرعيّة، ولوجَّهوا التُّهمة أوّلاً إلى سلطان غرناطة لأنّه من طلب الكتاب، لكنّي لم أكترِثْ بهذا ولم أُكَلِّفْ نفسي بالردِّ عليهم، وبقيتُ ذاهِلاً عن سَخافة هذا الموقف.

تكلَّم بعض الحاضرين، وبدا عدمُ اقتناعهم بالتهَم الموجَّهة إليّ، لكنّهم كانوا يلعبون أدوارًا سالفة تَمَّ الاتِّفَاقُ علَيها. كان ضمنَ هؤلاء فقهاءُ رسومٍ من الأندلس والمغرب. وكان أشدُّ الناس عليَّ مترَسِّمَةَ الأندلسِ الذين جاؤوا بخُطّة مُعَدَّةٍ سلَفًا باتّفاق بين البنّاهي وابن زمرك. أمّا مترسِّمَةُ المغرب، فقد بقي أغلبُهم صامتًا يَرْقُبُ ما يجري.

ثم رأيتُ ابن زمرك يتباحثُ مع سليمان بن داوود. وفجأة تكلَّم هذا الأخير وتوجَّه إلى الفقهاء قائلاً: لا بدّ أيّها الجِلَّة من إصدار حكم في هذه القضيّة، إمّا بالبراءة أو بالتّهمة.

وبمجرّد أن فاه الوزير سليمان بكلامه، أيَّدَهُ مترسِّمَةُ الأندلس بهمهماتهم. ثم تكلَّم كبيرهم ووجَّه السؤال إليهم حول الحُكْم الذي توصَّلوا إليه، فأجابه أحدُهم قائلاً: إنّ التُّهَمَ الموجَّهة لهذا الرجل خطيرة، وهي التي حرَّرها قاضي حضرة غرناطة، وأشهدَ عليها جَمْعًا من فقهاء الأندلس، وكلّ تهمة لوحدها تستوجب القتلَ، ومنها القولُ بالحلول والاتّحاد، وسلوك مذاهب الفلاسفة

في الاعتقاد، والانخراط في سلك أهل الإلحاد، والطعن في الجناب النبوي، والاستخفاف بالشريعة، والغيبة والنميمة في حقّ السلف، والفرار عن السلطان وعن الجهاد والرباط في الأندلس. وبناء على ما تقدّم، فإنّنا نطالب بقتل المتّهم.

ثم توجّه كبير المترسّمة إلى فقهاء فاس، فقام أحد شيوخهم وقال: إنّ التّهم الموجّهة إلى المدَّعَى عليه خطيرة، وتستوجب القتل كما قال السيّد الفقيه، لكن يصعب اتّهام المدَّعَى عليه بها، وإن كان في كتبه سوء أدب وإشهار لآراء الفلاسفة والملحدين، لكنّها تبقى على الحِكاية، وحاكي الكفر ليس بكافر، ولا يمكن مؤاخذته بها شخصيًّا. وأقصى ما يمكن أن يُوجَّه إليه من حُكْم هو التعزير والتأديب.

على الرّغم من أنّي كنت هازئًا بهذا المجلس وأصحابه، لأنّي أعلم أنّهم إنّما اجتمعوا في مؤامرة حبَكَها البنّاهي وابن زمرك والوزير سليمان بن داوود، إلّا أنّي حمِدت لفقهاء المغرب حذَرَهم وحِرْصَهم على عدم الضلوع في هذه المؤامرة الخسيسة.

ثم توجَّه إليَّ رئيس المجلس: ما قولُك في التّهم الموجّهة إليك؟

فأجبتُ: إنّني لا أعترف بهذه التهم، وأُشهِد الله أنّي بريء منها، وإنّما هي مؤامرة من بعض أعدائي عليّ. ومن أراد الوقوفَ على عقيدتي، فلينظرْ كُتُبِي التي أَلَّفْتُهَا في الذَّبِّ عن الشريعة، ككتاب **مدّ الذريعة في تفضيل الشريعة**.

هَمْهَمَ مترسّمة الأندلس، وأظهروا الغيظَ والامتعاضَ من أقوالي. وبعد أن يئسَ المجلس من إقراري بشيء من تلفيقاتهم الباطلة، أمر الوزير سليمان بن داوود وَزَعَتَهُ من الجلّادين فَنَكَّلُوا بي أمام الملأ، وَضُرِبْتُ وَعُذِّبْتُ وصُفِعْتُ، لكنّي لم أَفْقِدْ كرامتي، ولم أَتَخَلَّ عن كبريائي، وبَقِيتُ صامدًا صابرًا محتسِبًا، شاخصَ النظرات، كأنّما قد استَرَقَنِي هَاذِمُ اللذّاتِ قبل الممات.

ثم ساقوني إلى سجني، ورموني على كُومَةٍ من التبْنِ كالدوابّ، واغرَوْرَقَتْ عيناي بالدموع، وأَنِفَتْ نفسي من الحياة، وتمنَّيتُ الموت، ثم قام بي الاعتبار، ولم أستسلِمْ لهذا الاختبار، وجاءني واردٌ إلٰهي، فهاجَنِي الشِّعْرُ، ورفعتُ كفِّي ونَظمي إلى مولاي منشدًا:

إليك مَدَدْتُ الكَفَّ في كُلِّ لَأْوَاءِ   وَمِنْكَ عَرَفْتُ الدَّهْرَ تَرْدِيدَ نَعْمَاءِ
وَيَسَّرْتَنِي قَبْلَ ابْتِدَائِي وَنَشْأَتِي   لِشِقْوَةِ بُعْدِي أَوْ سَعَادَةِ إِدْنَائِي
تَعَالَيْتَ يَا مَوْلَايَ عَنْ كُلِّ مُشْبِهٍ   فَيَا جَلَّ مَا طَوَّقْتَ مِنْ غُرِّ آلَاءِ
إِذَا اعْتَبَرَتْ نَفْسِي سِوَاكَ بِفِكْرَتِي   فَيَا خُسْرَ أَوْقَاتِي وَضَيْعَةَ آنَائِي
وَإِنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَايَ غَيْرَكَ فَاعِلاً   فَقَدْ تهتُ للأوهام في جُنْحِ ظَلْمَاءِ
بما لكَ مِنْ سِرٍّ بَدَأْتَ بِهِ الوَرَى   وَعِلْمٍ مُحِيطٍ بِالوُجُودِ وَأَسْمَاءِ
أَعِنِّي وَطَهِّرْنِي وَخَلِّصْ حَقِيقَتِي   إِلَيْكَ وَأَيِّدْ نُورَ سِرِّي وَمَعْنَائِي

بقيت في سجني ذلك اليوم مُرْمًى كقطعة طين يابسة، فحنَّتِ الطينةُ إلى الطين، وسألتُ الله أن يأخُذَني إليه شهيد المحبّة. لقد

كان فتحي على يد الوليّ سيّدي أحمد بن عاشر، وطلعَتْ لي في خلوتي سورة طٰه، وتحقَّقْتُ اسمًا ورَسمًا بهذا النَّعت القرآني والوصف الفرقاني، فكنت الطاء، وكانت أمل الهاء. أفلا أستحقّ حكم الطاء، وأرجع إلى الطين، حمأً مسنونًا محترقًا كجدّ البشريّة جمعاء، آدم عليه السلام؟

شرعتُ في الذكر، وانتابتني الأحوال، ورَأَيْتِنِي أَدْخُلُ لولبًا زمنيًّا مُفارقًا لِلَوْلَبِ زمان الدنيا، فسعِدتُ بتلك الحرّيّة، ثم رأيتُني مِتُّ وقد دخلتُ قبري، وهِيلَ عليَّ التراب، فسمِعْتُ مَلَكًا يُقال له رُومَان يَجُوسُ خلالَ المقابر، كأنّه رُوحُ شيخي أبي العبّاس أحمد ابن عاشر الذي كان يجلسُ بين القبور. سمعتُه يقول لي: اكتُبْ عملَك. فأجبته: ليس معي دَواة ولا قِرطاس، فهلّا قَطَعْتَ لي قلمًا ولِحَاءً من شجرة الرمَّان يا رُومَان؟ فيجيبني: هيهات، كفنُكَ قرطاسُك، ومدادُك ريقُك، وقلمُك إصبعك. فقطع لي قطعة من كفني، فوضعتُ إصبعي في فمي، وكتبتُ كلَّ ما أَعقِل من عملي في دار الدنيا كلّه، حسنِه وسيِّئِه، كأنّه عمَل يومٍ واحد. فلمّا أنهيتُ أخذَ ذلك الملَك القطعة المكتوبة وعلَّقها في عنقي.

ثم أتاني شخص حسن الثياب، في أحسن صورة، وأطيب ريح، يؤنسني ويحدّثني ويملأ قبري نورًا فقال لي: أما تعرفني؟ فقلت له: من أنت الذي منَّ الله عليَّ بك في غربتي؟ فأجابني: أنا عملُك الصالح فلا تحزَن، ولا تَوْجَلْ، وعمَّا قليل يأتيكَ مُنْكَر ونَكِير، فيسألانك فلا تَدْهَشْ، ولَقِّنني حُجَّتي، ثم غاب عنّي.

وجاء الفتّانان الأسودان يخرقان الأرض بأنيابهما، لهما

شعور مسدولة، بيد كلّ منهما مِقْمَعٌ من حديد. ارتعدَتْ نفسي وَوَلَّتْ هاربة، ودخلَتْ من مِنْخَرِي، فَعُدْتُ حيًّا كما كنت، ثم سألاني أسئلة، فوفَّقني الله للجواب. فقال أحدهما لصاحبه: صَدَقَ فلان، ولقد كُفِي شَرَّنا. ثم ضربا على قبري قُبَّةً عظيمة، وفتحا لي بابًا إلى الجنّة من جهة اليمين، وفَرَشَا لي من حَريرها ورَيْحَانها، ودخل عليَّ من نسيمها ورَوْحِها.

ورأيتُ أنّه بمجرَّد أن دخلتُ قبري، ركِبَتْ نفسي طائرًا عجيبًا أخضر اللون مثل الذي رأيت في خلوتي في دار الدنيا، فنزل بي في جنّة عدن، ووقف على غصن من الشجرة التي رافقتني في فتحي في دار الدنيا، فعلمتُ اليوم نوعها ورسمها، وأسفرَتْ لي عن رتبتها ونُعوتها، وسمَّتْ لي نَفْسَهَا **طُوبى**.

ثم رأيت كأنّ الساعةَ قامت، وسمعتُ نفخةً عظيمة من الصور، فإذا الجبالُ تتطاير وتَسير مثلَ السحاب، وإذا البحارُ تتفجَّر، والشمسُ قد كُوِّرَتْ فعادت سوداء، وسُجِّرَتِ البحار، وامتلأ عالم الهواء ماء، وانتثرَت النجوم، وعادت السماء كَدُهْنِ الوَرْدِ تَدور كَدَوَرَانِ الرَّحَى، قد زُلْزِلَتْ زلزالاً شديدًا، فأذهب الله أرواحَ جميع الكائنات. وخَلَتِ الأرضُ من عُمَّارِهَا، والسَّماءُ من سُكَّانها، وتجلَّى الحقُّ في الغَمَام، وقبَضَ السماوات بيمينه، والأَرَضِين بيده الأخرى، ثم أثنى على نفسه، وقال لمن المُلْكُ اليَوْم؟ فلم يُجِبْهُ أَحَدٌ، وأجابَ نفسَه قائلاً: لله الواحد القهّار.

ثم كُشِفَ عن بئر في سَقَر، فخرج منها لهب النار، فاشتعلت البحار والأرضون، حتى إذا همَّ اللهب أن يَعْلَقَ بِعنَانِ السماوات،

زجرَه الحقّ تعالى زجرة واحدة، فخمدت النار ألف عام، فلم يرتفع لها لهيب. ثم فتح سبحانه وتعالى خزانة من خزائن العرش فيها بحر الحياة، فأمطر به الأرض كأنّه مَنِيُّ الرجال، فاهتزّتْ وحَيِيَتْ بعد أن كانت عطشانة هامدة ميتة، ولا يزال الماء عليها أربعين ذراعًا حتى نبتت الأجسام من العُصْعُص أو عُجْب الذَّنَب، وهو عظم كالحُمُّصة ليس فيه مُخّ، فمنه نبتت الأجسام في مقابرها، ثم اشتبكت أعضاؤهم واختلطت، فإذا رأس هذا في منكب الآخر، وذراع هذا في جنب ذاك.

ولمّا تمّت النشأة، أمر الحقّ أن تَهُبَّ ريح من الأرض ليس فيها عِوَجٌ ولا احْدِيدَاب، وقد أصبحتِ الجبال كثبانًا مَهيلة، فأحيا الله تعالى إسرافيل، فنفخ في الصور من صخرة بيت المقدس. وهو عبارة عن قَرْنٍ من نُورٍ له أربع عشرة دائرة، كلّ دائرة كاستدارة السماء والأرض، فيها ثُقَبٌ بعدد أرواح البشريّة، فيخرجون من تلك الثقب، يُسمعُ لهم أَزِيزٌ كَدَوِيِّ النحل، فذهبت كلّ رُوحٍ إلى جُثَّتِها. ثم نفخ إسرافيل نفخة ثانية، فإذا جميع الخلق قائمون ينظرون في أرض سهلة تسمّى الساهرة. وقعد كلّ واحد على قبره عريان، متفكّرًا متعجّبًا مُطرقًا معتبرًا

كنتُ مِثْلَ غيري حافيًا عاريًا، إلّا أنّي كنت مختونًا، وأغلب الخلق كانوا غُرْلاً غير مختونين، فسألت عملي الصالح، فقال لي: هكذا حال الشهداء الذين قُتلوا في الغربة مؤمنين لم يُكَفَّنُوا، فإنّهم يُحشَرون، وقد كُسُوا ثيابًا من الجنّة، فَعَلِمْتُ أنّي قُتِلْتُ شهيدًا. وجلس الناس على قبورهم كلّ له نور بحسب صلاحه،

أو له ظلمةٌ بحسب فساده. ورأيت جماعة منهم ابن زمرك والبنّاهي وسليمان ابن داوود في ظلمة غاسقة لا يستطيعون رفع رؤوسهم والنظر في ما كساني به الحقّ من النور. وبقينا على هذه الحال ألفَ عام حتى ظَهَرَتْ من المغرب نار لها دَوِيٌّ عظيم، ثم أتاني عمَلي، فقال لي: قُمْ إلى المحشر. ورأيتُ الخلائق، منهم من يمشي على وجهه، ومنهم من كان راكبًا. وقد رزقني الله نورًا بين يديّ وعن يميني، يكشفُ لي عن ظلمات تلك البلاد، وعن شمالي ظلمة حالكة لا يستطيع البصرُ النفَاذَ إليها. وساقَ الملائكةُ الخلقَ بين يدي الله تعالى، حتى جمعوهم في صعيد واحد، ثم أمرهم الجليل، فأخذ كلّ مَلَك إنسانًا أو واحدًا من المخلوقين، وأتى به إلى أرض بيضاء، وأحاط بهم ملائكة السماوات السبع حلقة وراء حلقة، حتى لم يبق موقع قدم، وكثر الزحام وخاض الناس في العَرَق، منهم من وصل إلى ذقنه، ومنهم من وصل إلى صدره، ومنهم من وصل إلى ركبتيه، ومنهم من أصابه رشح يسير، ومنهم من أصابته البَلَّة، واقتربت الشمس من الرؤوس حتى لو مَدَّ الواحد يده لتناولها، وتضاعف حَرُّها. وبينما نحن نموج في تلك الأرض البيضاء التي قال عنها تعالى ﴿يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غير الأرض﴾، جاءني ولدي محمّد بشربة ماء من الجنّة، وقد مَدَّ الله لي ظلًّا مع قوم، يمنعنا من الحَرّ، وبقينا على هذا الحال ألف عام حتى سمعنا نَقْرَ الناقور، فَوَجِلَتِ القلوب وخَشَعَتِ الأبصار، وإذا بالعرش يحمله ثمانية أملاك حتى وضعوه في تلك الأرض البيضاء. وبينما نحن كذلك إذ غَشِيَنَا نورٌ يغلبُ نورَ الشمس، والناس يموجون بعضهم في بعض ألف عام، والجليل لا يكلِّمُنا.

ثم قام قوم فذهبوا إلى آدم، أبي البشريّة، يشتكون إليه طولَ المُكْثِ، ويطلبون شفاعتَه، فاعتذر، ودَلَّهُم على نوح فذهبوا إليه، وذكروا له مثل ما ذكروا لآدم من طول المقام، وشدّة الزحام، فاعتذر. ثم دلّهم على إبراهيم فتشاوروا فيما بينهم ألف عام ثم أتوه يسألونه الشفاعة، فاعتذر لهم. ثم دلّهم على موسى فأتوه، لكنّه اعتذر هو أيضًا، ودلّهم على عيسى فأتوه، وقالوا له: أنت رُوحُ الله وكلمَتُه فاشفع لنا، فيعتذر لهم. ثم دلّهم على سيّد المرسلين، وقال لهم: إنّه ادَّخَرَ دعوتَه شفاعة لأمّته، فيأتون إلى منبره، فيقولون له: يا رسول الله أنت حبيب الله فاشفع لنا عند الجليل، فيجيبهم: أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ثم ينطلق إلى سرادقات الجلال فيستأذن فيؤذن له، ثم يرفع الحجاب ويلِجُ العرش ويخِرُّ ساجدًا، فيمكث ألف عام في سجوده يحمد الله بمحامد ما حمده بها أحد قطّ، فيتحرّك العرش تعظيمًا له، والناس في ضيق شديد وحَرٌّ عظيم وكرب جسيم، فينادي الجليل جلّ جلاله: يا محمّد ارفَعْ رأسَك، وقلْ يُسْمَعْ لك، واشْفَعْ تُشَفَّعْ. فيقول حبيب الله: يا ربّ، اِفْصِلْ بين عبادك فقد طال مقامهم، وقد فَضَحَ كلُّ واحدٍ بعملِه في عَرَصَاتِ القيامة، فيأتي النداء: نعم يا محمّد.

ثم يأمر الحقّ تعالى الجنّة فَتُزَخْرَف، وَيَهُبُّ منها نسيم طيِّب، فَتَبْرُدُ النفوس، وتحيا القلوب، إلّا من كانت أعمالهم سيّئة، فإنّهم مُنِعوا من تلك الريح الطيّبة، ثم تُوضع عن يمين العرش. ثم يأمر تعالى النار فيؤتى بها تمشي على أربع قوائم، تُقاد بسبعين ألف زمام، في كلّ زمام سبعون ألف حلقة، يمسك بها زباني من

زبانيّتها، وإذا لها زفير وشهيق وشَرَرٌ ودخان، تَفورُ حتى تَسُدَّ الآفاق ظلمة، فترى الخلق في فزع ورُعب، ثم تَفَلَّتَتْ من سائقيها لعظمها، وجثا الخلق جميعًا على الرُّكَب ضارعين ﴿وترى كلَّ أُمَّةٍ جاثية، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتَابِها﴾، ويتعلّق إبراهيم وموسى وعيسى بالعرش، وكلّ واحد منهم يقول: يا ربّ نفسي نفسي، فيقول سيّد الخلق: أمّتي أمّتي يا ربّ سلِّمْهَا وَنَجِّهَا، ثم يأخذ بِخُطَامِ جهنّم ويقول لها: ارجعي مَدحورة إلى خلفك حتى يأتيك أفواجك، فتقول له: خَلِّ سبيلي يا محمّد، فإنّك حَرَامٌ عليّ، فينادي مُنَادٍ من سُرادِقات الجلال: اسمعي منه وأطيعي له، ثم تُجْذَب وتُجْعَل عن شِمال العرش. ثم يُنْصَبُ الميزان عن يمين العرش. وهما كفَّتان، واحدة من نور، والأخرى من ظلمة، ثم يكشف الجليل عن ساقه فيسجدُ الناس كلّهم تعظيمًا له وتواضعًا لكبريائه، إلّا الكفّار فلا تطاوعُهُم أصلابُهُم على السجود ﴿يوم يُدْعَوْنَ إلى السجود فلا يستطيعون﴾. وبينما هم ساجدون: يقول الجليل: أنا المَلِك أنا الدَّيَّان، لا يجاوزني ظلمُ ظالم، فإن جاوزني فأنا الظالم، ثم يحكم بين البهائم، ويفصل بين الوحش والطير، ثم يقول لهم: كونوا ترابًا، فَتُسَوَّى بهم الأرض. فحينئذ ﴿يَوَدُّ الذين كفروا وعصوا الرسولَ لو تُسَوَّى بهم الأرض﴾. ثم يخرج النداء مِنْ قِبَلِ الله: أين اللوح المحفوظ؟ فيؤتى به وله هَرَجٌ عظيم. فيقول الله تعالى: أين ما سَطَّرْتُ فيك من توراة وزبور وإنجيل وفرقان؟ فيقول: نقله منّي الرُّوح الأمين، فيؤتى به تَرْعُدُ فرائصُه، وتَصْطَكُّ ركبتاه، فيقول الله تعالى: يا جبريل، هذا اللوح يزعم أنّك نقلتَ منه كلامي ووحيي، أَصَدَق؟ قال: نعم، يا ربّ.

فيقول: فما فعلتَ فيه؟ فيجيب: أنهيتُ التوراة إلى موسى، وأنهيت الزبور إلى داوود، وأنهيت الإنجيل إلى عيسى، وأنهيت الفرقان إلى محمّد ﷺ، وأنهيت إلى كلّ الرسل رسائلهم، وإلى أهل الصحف صحائفهم. فإذا النداء بالأنبياء والمرسلين، كلّ واحد منهم على حدة حتى يوقفهم أمام قومهم، ويُدْلُوا بحججهم، ثم ينادى على محمّد عليه الصلاة والسلام، فيقرأ القرآن على منبره، فيستبشر به المؤمنون المتّقون، فإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة، والمجرمون وجوههم مُغْبَرَّةٌ مُقْتِرَة.

فإذا فرغ الرسل من قراءة الكتب، خرج النداء من سرادقات الجلال ﴿وامتازوا اليومَ أيّها المجرمون﴾ فيرتَجّ الموقف، ويقوم فيه رَوْعٌ عظيم، والملائكة قد امتزجت بالجنّ، وهؤلاء ببني آدم، والكلّ لُجَّةٌ واحدة. ثم يخرج النداء إلى آدم بِسَوْقِ المجرمين إلى جهنّم، فيحتجّون بأنّهم ظُلِمُوا، فيؤتى بأعمالهم مكتوبة في كتاب عظيم، ويحاسبون فردًا فردًا، فإذا الجوارح تشهد، فإذا قامت عليهم الحجّة، دُفِعوا إلى خزنة جهنّم فتضِجّ أصواتهم بالبكاء والعويل. فإذا لم يبق في الموقف إلّا المسلمون والمؤمنون والمحسنون والعارفون والصدّيقون والشهداء والصالحون والمرسلون، ليس فيهم مرتاب ولا زنديق ولا منافق، فيسألهم الجليل: مَنْ ربُّكم؟ فيقولون: الله. فيقول لهم: أتعرفونه؟ فيقولون: نعم. فيتجلّى لهم ملَك عن يسار العرش، فيقول لهم: أنا ربّكم، فيتعوّذون منه. ثم يتجلّى لهم ملَك عن يمين العرش، فيقول لهم: أنا ربّكم، فيتعوّذون منه. ثم يتجلّى لهم الربّ سبحانه وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفونه عليها، فيقول لهم: أنا

ربّكم، فيتعوَّذون بالله عزّ وجلّ منه. ثم يتجلّى لهم الربّ جلّ جلالُه في الصورة التي كانوا يعرفونه فيها، ويسمعونه وهو يضحك، فيسجدون له جميعهم، فيقول لهم: أهلاً بكم. ثم ينطلق بهم سبحانه وتعالى إلى الجنّة، فيتبعونه، ويمرُّ بهم على الصراط والناس أفواج، فمنهم من يجوزه على مائة عام، ومنهم من يجوزه في ألف عام، ومنهم من يجوزه كالبرق الخاطف. لكنّ النار لا تحرق من رأى ربَّه عِيانًا، ولا يُضَامُ في رؤيته. وكثر مرور المسلمين والمؤمنين والمحسنين، وقد تفتّتَتْ أكبادُهم من الجوع والعطش، ولهم نفَس كالدخان، فيشربون من الحوض.

وفي هذه اللحظة، أفقتُ من هذا المشهد البرزخي، وفي يدي كُوزُ ماء بارد لم أدر كيف وصل إليَّ في سجني، فشربتُ منه هنيئًا مريئًا، وحمدت الله بمحامد لم تجر على لساني من قبل.

كان الليل قد مَرَّ أكثره، قمتُ فأسبغتُ الوضوء، كما لم أفعل من قبل، وتلبَّثْتُ في كُلِّ أطواره، وكأنّي مُفارق من ليلتي. ثم صلَّيت ركعتين، وجلست القرفصاء، وشرعت في ذكر الاسم المفرد، فَزُجَّ بي من ساعتي في جنَّة عَدْن، ووجدت نفسي مع شيخي أبي العبّاس أحمد بن عاشر، وأبي مهدي عيسى بن الزيّات، وجماعة من الصالحين فوق كثيب من مِسْكٍ أبيض. توغَّلتُ في تلك الجنّة حتى وصلت إلى أعلاها، فوجدت شجرة عظيمة تدعى **طوبى**، فرأيت اسمي مكتوبًا على إحدى أوراقها، وهي ممتدّة إلى سقف الجنّة، ورأيت طيورًا خضرًا على أغصانها، تشدو بالتسبيح، والشجرة تتواجد لشدو الطيور، وتهتزّ، فكأنّها

فقير من الفقراء في طَبَقِ عِمَارة الذِّكر. كنت مسترسلاً في ذكر الاسم المفرد مع الشجرة، وكان اسمي على الشجرة يذكر وكأنّه شخص روحاني. وبينما كنت خائضًا في لجّة الأذكار، كساني الحقّ تعالى من خزانة اسمه الوهّاب بأربع عشرة حلّة باطنيّة، ثم كساني من خزانة اسمه الجواد بأربع عشرة حلّة ظاهريّة. وكان اسم كلّ حُلَّة على أسماء الحروف الثماني والعشرين، فعلمت أنّي حظيت بحُلل نَفَس الرحمٰن، وتحقَّقتُ بالكمال في جمعيّة هذين الاسمين الإلٰهيّين. ثم رأيت الشجرة قد استحالت في صورة روحين متناظرين من طٰه، أحدهما بإزاء الآخر بحيث كان الطاءان في الطرفين، والهاءان في الوسط (ط ه ه ط). ثم رأيت من الأنبياء، النبي العربي صالح، عليه السلام يحمل بالنيابة عن الحقّ قِلادَة طٰه، وعليه صفات الحزم والقوّة والبطش، وأكثر علومه في التنزيه والإحاطة. ثم رأيت رجالاً كأنّهم أوتاد الجنّة، أحدهم في رِكَابِ صالح، عليه السلام. أمّا الآخرون فيحملون صناديق المُلْك والكهف والواقعة. ورأيت في إثر ذلك الوتد أربعة وعشرين رجلاً يحملون أعلامًا، ويحمل على كتفه أربعة أقواس، ويمشي من خلفه اثنا عشر حمَلاً، وثمانية أسود. وكلّما خطا خطوة، انصبغ أحد الأعلام التي تمشي خلفه بلون معيّن، ولاح فيه عِلْم مكنون من الاصطلام والوجد والعشق والسبحات والحشر والنشر وموازين الأعمال. وعجبت كيف أنّ الأعمال وهي أعراض توزن بميزان ملكوتي، عكس ما عليه الأمر في عالم الدنيا. وفجأة رأيت طٰه سيّد الخلق، فقال لي: لا تبتئس يا أخي، فقد سامتني قريش بظلمها، وتأسَّفْتُ على كفرها، وقمتُ الليل

حتى تورَّمَتْ قدماي، فقالوا «شَقِيَ محمّد بالقرآن»، فأراحني الحقّ تعالى، وأنزل عليّ سورة طٰه قائلاً ﴿طٰه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وبشَّرني بالسعادة الأبديّة. وقال لي الحق تعالى «**طوبى** لمن اهتدى بك».

@ktabpdf تيليجرام

ثم أردف عليه الصلاة والسلام: لا تبتئس يا ابن الخطيب، فقد أعلى الله شأنك، وتفضَّلَ عليك بالشهادة، فأنت شهيد المحبّة. أيّها الطبيب، قد مارستَ الطِّبَّ الجسماني الطيني، فلك منه الطاء، ونَفَحَكَ الحقُّ بمزيّة القرب، فألَّفْتَ **روضة التعريف بالحبّ الشريف**، في الطبّ النفساني، فلك الهاء. فها قد جمعت الطاء والهاء، وحُقَّ لك أن تُسَمَّى «طٰه» وراثة كاملة، ونلت شجرة طوبى. وقد محَّصَكَ الله وأخرجك من سجن الدنيا إلى سَعَةِ الآخرة، وتفضَّلَ عليك بالطهارة والهداية. فَطَأْ بهمَّتِكَ كُلَّ حجاب، وتَطَهَّرْ من كلّ الأوهام، تحصل لك الهداية لرؤية الحقّ.

وما إن أكمل حديثه الشائق حتى تجلَّى علينا الرحمٰن في ذلك المشهد الأَخَّاذ من سُرادِقات الجلال، في أعلى جنّة عدن، وتلا سورة طٰه على عباده الذين اصطفى. فلمّا استوفاها، تحقَّقْتُ بما فيها من المنازل واستوفيتُها، وأحسستُ بسعادة أبديّة لا نَظير لها، ووقعَتْ لي البشرى بأن لا أتأسَّفَ ولا أَحْزَنَ ممّا فعله معي قومي، وما ساموني به من الخَسْفِ والعذاب والظلم، فكلّ ذلك فان، ويبقى وجه ربّك. وبينما كان الحقّ يتلو سورة طٰه، كان ينشأ عن كلّ حرف من حروف الطاء التي في هذه السورة رجل روحاني. وكذلك الشأن في كلّ حروف الهاء التي في السورة نفسها. فلمّا

استوفى قراءتها، وقف كلّ رجال الهاء بإزاء الرسل، وانضاف إليهم أهل بدر، فكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر. ثم قام رجال الطاء، فكان عددهم ثمانية وعشرين، وانتصبوا على شكل الحروف العربيّة الأزليّة، لكنّهم كانوا مثل الآدميّين. ووقف المصطفى في قلب الكلّ، وأمرني بأن أقف بجانبه، ففعلت.

ثم بدا لي أن أسأله عن إمام سورة طٰه، كما أخبرني بذلك الشيخ ابن عاشر في مدينة سلا، فقال لي: صَدَقَ الشيخ يا ابن الخطيب، فلكلّ سورة إمام، وإمام سورة طٰه في الآية أربع عشرة ومائة، وله الإحاطة، وآيته ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. ولك منه نصيب، فقد أَلَّفْتَ **الإحاطة في أخبار غرناطة**.

وفي هذه اللحظات، سمعتُ المؤذّن ينادي لصلاة الفجر، فقمتُ وصلَّيت الركعتين، ثم أقمتُ فَصلَّيتُ صلاة الصبح، وتَلَبَّثْتُ في دعاء القُنوت في الركعة الثانية، ثم سلَّمت.

وما إن أنهيتُ حتى عاجلني زعانفة الوزير سليمان بن داوود، وانقَضُّوا على عنقي يخنقونني، فابتسمت: وقلت في سرّي: مرحبًا بالشهادة. وتذكّرت في هذه اللحظة حفلَ عقيقةِ السلطان أحمد لمّا كان صبيًّا، وقد أخذ بخناقي، وتشاءمتُ آنذاك من فعل الصبي. وأدركتُ أنّ الله أخبرني بكيفيّة قتلي وقتَها، فلم يتحقَّق الخبر إلّا في هذا اليوم، في إيالة هذا السلطان في فاس.

ضغط عليَّ الزعانفة وكبسوني. وكان سليمان بن داوود، ومن خلفه ابن زمرك وقتلةٌ من أهل الأندلس، يُعاينون مَصْرَعِي، وهَالَهُمْ انصِيَاعِي لطُغاتي، وحَضَرَنِي قولُ شجرتي لمّا ودّعتها في غرناطة:

اقتُلوني يا عداتي   إنّ في قتلي حياتي

أيّها الجبناء تلذّذوا بارتكاب هذه الجريمة في جنح الليل، فلنا لقاء قريب، فقد رأيتُ سَحْنَاتِكُم الشقِيَّة في نار جَهَنَّم، فلا تَفرَحُوا كثيرًا بقتلي واغتيالي، فعمَّا قَريب تَلْحَقُونَ بِأَهْلِ الشقَاء.

وإيَّاكُمْ أَنْ تَتَوَانَوْا في إِحْرَاقِ جُثَّتِي بَعْدَ مَوْتِي، فأنا شَجَرَة. فَأَحْرِقُوا حَطَبِي، فإنّ نُورَ الهُدَى يأتي من نارِ شَجَرةِ المكَلَّمِين.

رفعتُ سبَّابتي، وأشرتُ إلى الرفيق الأعلى، وانقطع نفَسي، وصرت جُثَّة هامدة، لكنّي رأيتُ روحي يخرج من بدني طائرًا أخضر اللون، ثم طار إلى الملكوت، بعد أن تلا قوله تعالى ﴿فستعلمونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾.

* * *

وفي الصباح الباكر أخرج زعانفة سليمان بن داوود جثّة ابن الخطيب، ورموها بقرب باب الشريعة، فَمَرَّ بها رجل من المجاذيب، وسارع بنشر الخبر في أهل البلد، فاستنكروا هذا الفعلَ الشنيع، وأُخْطِرَ أبناءُ لسان الدين بالأمر، فجاؤوا بسرعة إلى باب المحروق، وصَلّوا على والدِهِم صلاةَ الجنازة، ثم دَفَنُوهُ خارجَ الباب.

وفي الليل، عاد زَعانِفَةُ سليمانَ بن داوود، وابن زمرك، فنبشوا القبر وأخرجوا جُثَّةَ ابنِ الخطيب وطَرحوها فوق القبر. ثم قام الأوغادُ بجَمْعِ أَعوادٍ، وأَضْرَمُوا النَّارَ في الجُثَّة، ثم أعادوها إلى الحُفْرة. فلمّا أصبحَ الصباحُ، عاينَ الحاضرونَ من أهل فاس

هذه الشناعة الجديدة التي لا يفعَلُها إلّا الأشقياء الآيِسُونَ من رحمة الله، فَضَجُّوا بالاستنكار والبُكاء والدعاء، وتعجَّبُوا من جَسَارَة الفَعَلَة، وتمثيلهم بميّت لا يملك أن يدفعَ عن نفسه شيئًا

احترقَ شَعَرُ ابن الخطيب واسْوَدَّتْ بَشَرَتُه، وعَمَّ الخبر في فاس، فَضَجَّ الناس لهذا الفِعل الشنيع وتبرَّؤوا من فَعَلَتِه، وعَظُمَ النكير على سليمان بن داوود، وابنِ زمرك. وخاف هذا الأخير مِنْ سُوءِ العاقبة فعجَّل بالعودة إلى الأندلس. وكَثُرَ القِيلُ والقَالُ حول هذه الشناعة، وانجرَّ الحديثُ إلى الطعْنِ في الدوْلَةِ القَائِمَة، وتَفَاجَأَ السلطانُ أبو العبّاس أحمد بن أبي سالم بما حَصَل، فاستدعَى وزيرَه ولامَه لومًا شديدًا وقرَّعَه، وأغلظَ له القوْلَ، لكنّ الوزير ادَّعَى البراءَة، ونَسَبَ الفِعْلَ لِوَزَعَةِ ابن زمرك من الأندلسيّين. حَزِنَ الناسُ حُزْنًا شديدًا على ابن الخطيب وحَفِظُوا سيرَتَه، واستبدلَ أهلُ فاس تسميةَ بابِ الشريعة ببابِ المحروق، على الرّغم من أنّ هذه التسمية كانت موجودة قبل حرق ابن الخطيب، لكنّ شناعة الجريمة نَسَخَت التسميةَ الأولى، ولم يَعُدِ الناسُ يَذْكُرونَ إلّا المحروقَ الجديد، لشهرته ونباهته ونهايته المفجعة. ودعا آخرون على ابن زمرك بنيل جزائه مضاعفًا.

أمّا ابن خلدون، فلمّا بلغه الخبر حزِن وتواجَدَ على صديقه، وأصابه كَرْبٌ عظيم، وزَهِدَ في الدنيا. وكاد سلطان الأندلس يفتِكُ به لدفاعه عن صديقه، فخرج بشفاعة أصدقائه مِنْ عندهم، بعدَ عُسْرٍ، وأقسم أن يعتزلَ السياسة من أجل العلم والتدريس، فحلَّ بقلعة ابن سلامة قرب مدينة وهران، واعتزل عن الخلق، حتى

أكملَ كتابه في التاريخ. أمّا غرناطة فقد عمَّها مطر شديد، ونامت بعد موت ابن الخطيب كما لم تنم من قبل، وتلك كانت نهاية حلم الأندلس الذي غنَّاه لسان الدين:

جَادَكَ الغَيْثُ إذا الغَيْثُ هَمَى يا زمانَ الوَصْلِ بالأندَلُسِ
لم يَكُنْ وَصْلُكَ إلّا حُلُما في الكَرَى أو خِلْسَةَ المُختَلِسِ

والسلام على من التزمَ الصراطَ السوِيَّ واهتدى.

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

@ktabpdf تيليجرام

حِسَابُ الجُمَّل الكبير

الترتيب النَّفَسي		الترتيب المشرقي		الترتيب المغربي	
ء	١	ا	١	ا	١
ه	٢	ب	٢	ب	٢
ع	٣	ج	٣	ج	٣
ح	٤	د	٤	د	٤
غ	٥	ه	٥	ه	٥
خ	٦	و	٦	و	٦
ق	٧	ز	٧	ز	٧
ك	٨	ح	٨	ح	٨
ج	٩	ط	٩	ط	٩
ش	١٠	ي	١٠	ي	١٠
ي	١١	ك	٢٠	ك	٢٠
ض	١٢	ل	٣٠	ل	٣٠
ل	١٣	م	٤٠	م	٤٠

ن	١٤	ن	٥٠	ن	٥٠
ر	١٥	س	٦٠	ص	٦٠
ط	١٦	ع	٧٠	ع	٧٠
د	١٧	ف	٨٠	ف	٨٠
ت	١٨	ص	٩٠	ض	٩٠
ز	١٩	ق	١٠٠	ق	١٠٠
س	٢٠	ر	٢٠٠	ر	٢٠٠
ص	٢١	ش	٣٠٠	س	٣٠٠
ظ	٢٢	ت	٤٠٠	ت	٤٠٠
ث	٢٣	ث	٥٠٠	ث	٥٠٠
ذ	٢٤	خ	٦٠٠	خ	٦٠٠
ف	٢٥	ذ	٧٠٠	ذ	٧٠٠
ب	٢٦	ض	٨٠٠	ظ	٨٠٠
م	٢٧	ظ	٩٠٠	غ	٩٠٠
و	٢٨	غ	١٠٠٠	ش	١٠٠٠

ملحوظة: للحصول على قيمة «طه» نضيف قيمة حرف «ط» (٩) إلى قيمة حرف «هـ» (٥)، فنحصل على مجموع ١٤. ومُناظِر هذا العدد في المرآة هو ٤١، ومجموعهما ٥٥. وهو سريان الحفظ في الوحدات (٥) والعشرات (٥٠). أمّا عدد «طه» بالنَّفَسي فهو (١٦ + ٢ = ١٨). وهذا العدد يساوي الاسم «حيّ». فلا تكون الحياة الحقيقيّة إلّا للمحفوظ حفظًا شاملاً. ولا شكّ أنّ الصلوات الخمس تحفظ الإنسان في يومه، كما أنّ أركان الإسلام الخمسة تحفظ الإنسان في دينه. ومن كان محفوظًا في يومه ودينه كان حيًّا بالحياة الحقيقيّة.

فهرس المحتويات

إهداء	٧
بيان أدبي حول هويّة النور	٩
﴿طَهَ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾	٢١
طبع الماء	٢٣
طبع الهواء	٥٥
طبع النار	١٠٣
طبع التراب	١٦١
شجرة الطبوع (طوبى)	١٩٩
حِسابُ الجُمَّل الكبير	٢٧٣
فهرس المحتويات	٢٧٥

تحكي هذه الرواية سيرةَ لسان الدين ابن الخطيب، شهيدِ المحبّةِ وصريعِ الروح الذي يُعتبر مع صديقه ابن خلدون أعظمَ رجلين أنجبهما القرن ٨ هـ./ ١٤ م في الغرب الإسلامي.

وقد كان لابن الخطيب الفضل في إبعاد خطر حملات الاسترداد من قشتالة والممالك النصرانيّة، وبلغ أوج قمّته العلميّة والأدبيّة والسياسيّة، وملأ قصر الحمراء بأشعاره وأخباره، فتكالب عليه الأعداء، وفي مقدّمتهم أولئك الذين أحسن إليهم مثل تلميذه الخائن ابن زمرك، فأفسدوا ما بينه وبين سلطان مملكة غرناطة. ولمّا رأى تَغَيُّرَ الأحوال، اضطرَّ إلى الهرب، لكنَّ أعداءه وجَّهوا له زورًا عدّة تُهَم، منها تهمة الزندقة، فَحاكموه، وسُجِنَ وعُذِّبَ. ثم قتلوه خنقًا في سجنه وأخرجوا جثّته وأحرقوها.

مكتبة الرمحي أحمد
@ktabpdf تيليجرام

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت
تصميم الغلاف رنم الجندي
ISBN: 978-9953-89-231-3
9 789953 892313